جابر عصفور

بعيدًا عن مصر



الدار المصرية اللبنانية

بعيدا عن مصر

جابر عصفور

الدار المصرية اللبنانية

إلى أحمد شمس وعطية عامر ووليام جرانارا

مع عميق امتناني.

مفتتح

كنت أحلم -وأنا طالب جامعي- أن أمضي في طريق طه حسين، فأستكمل تعليمي العالي بعيدا عن مصر. ومرت الأعوام الدراسية، وتفوقت وأصبحت معيدا في الجامعة سنة 1965 وفي قسم طه حسين، واقترب تحقيق الحلم، ولكن جاءت كارثة 1967 لتجهض الحلم، فحصلت على الماجستير سنة 1969، ولم يكن هناك مفر من استكمال الدكتوراه في جامعة القاهرة، ووعدتني أستاذتي سهير القلماوي بأن أذهب في منحة دراسية إلى الولايات المتحدة لاستكمال أدواتي في النقد الأدبي، ودراسة تيارات النقد الجديدة التي أخذنا نسمع عنها، ولذلك ذهبت إلى الجامعة الأمريكية، ودرست فيها ما يؤهلني لفهم اللغة الإنجليزية والكتابة بها. ولكن المنحة التي وعدت بها طارت، وبقي حلم السفر لا يضيع، وبالمصادفة التي حكيت تفاصيلها فيما كتبت، حصلت على فرصة للسفر إلى جامعة وسكنسون-ماديسون، أستاذا زائرا، ولست دارسا. وسافرت بالفعل سنة 1977.

ومنذ أن وضعت قدمي في هذه الجامعة العزيزة على قلبي، عاهدت نفسي أن أحقق في اثني عشر شهرا ما يحققه غيري في أعوام. وبالفعل، واصلت العمل ليلا ونهارا، فكنت طالبا مجتهدا وأستاذا ملتزما، ولم أترك شيئا ينبغي أن أتعلمه إلا تعلمته، ولا كتابا يستحق أن

أقرأه إلا قرأته. وكان عاما كاملا مرهقا، امتد من العام الدراسي إلى أشهر الدراسة الصيفية. كما سافرت في أول أغسطس 1977.. عدت في أواخر أغسطس 1978.

وأشهد أن هذه الأشهر هي من أجمل أشهر العمر، لا لأنني عرفت فيها الجامعات الأمريكية للمرة الأولى التي تشبه في بهجتها الحب الأول، ولكن لأنها وضعت قدمي على الطريق المنهجي الذي يجمع بين الأصالة والمعاصرة في النقد الأدبي، وأسهمت في إحداث قطيعة معرفية مع كثير مما كنت أعتقده صوابا من قبل، وما عرفته بعد أن اتسعت حدقتا الوعي المعرفية على كل المستويات.

ولذلك يظل للسنة الأولى التي قضيتها في الولايات المتحدة أثر معرفي على كل المستويات والمجالات. وقد أثر ذلك في مقالاتي ودراساتي التي نشرتها في مجلة «فصول» التي أسهمت في إقناع صلاح عبد الصبور بإصدارها حين كان رئيسا للهيئة المصرية العامة للكتاب. وقد صدرت المجلة سنة 1980. وكان رئيس التحرير عز الدين إسماعيل ونائباه صلاح فضل وأنا. ولا يستطيع متابع منصف إلا أن يقرر أن هذه المجلة قد أحدثت ثورة في النقد الأدبي العربي، وأنها أسست لنقد أجد، وحققت قطيعة معرفية مع ما قبلها وما عاصرها من مناهج تقليدية، وأنها أسهمت في تغيير المصطلح النقدي. وقد حكيت عن ذلك في كتابي «تحديات الناقد المعاصر» (بيروت 2014).

هذا عن المرة الأولى التي كنت فيها بعيدًا عن مصر. أما المرة الثانية فجاءت مع أحداث سبتمبر 1981، التي أطاح فيها السادات بأكثر من ستين أستاذا من الجامعات المصرية. وقد انتهت بي مصادفة طيبة إلى أن أتلقى دعوة لكي أعمل أستاذا زائرا في جامعة استكوهلم بالسويد. ولم يكن من سبيل أمامي إلا الرحيل. وظللت في جامعة استكوهلم لعام كامل، تغيرت فيها الأحوال والأوضاع، فقام الرئيس الأسبق مبارك بعقد مصالحة وطنية، وأعاد الأساتذة المفصولين إلى جامعاتهم معززين مكرمين. ولم أجد صعوبة في التأقلم الفوري مع الحياة السويدية، فأكثر سكان السويد يتحدثون الإنجليزية. ولا يضطر الشخص إلى تعلم اللغة السويدية إلا من كان ينوي الإقامة في السويد. والحق كدت أفعل ذلك، ولكن حبي للوطن -الجمر هو الذي منعني من البقاء في السويد، فاضطررت إلى العودة بعد وداع حار من أصدقائي وتلامذتي.

ولكن السويد لم تكن هي السفرة الأخيرة، بعيدا عن مصر، فقد جاءت سفرة ثالثة. كانت إلى الولايات المتحدة من جديد سنة 1995، ولكن لكي أعمل أستاذا زائرا في جامعة هارڤارد هذه المرة. وما أدراك بجامعة هارڤارد، فهي درة الجامعات الأمريكية. وقد جاءت بعد دعوة شفاهية من زميلي وليام جرانارا، فوافقت، وبعد شهر أو أكثر قليلًا وصلت الدعوة الرسمية لأشغل كرسي الشواف بقسمي اللغة العربية ومركز دراسات الشرق

الأوسط، وهو كرسي أنشئ بتمويل سعودي، لكن لا علاقة للسعودية بإدارته أو بمحتويات التدريس فيه أو اختيار الأساتذة المدعوين للتدريس باسمه، فهذه كلها أمور أكاديمية بحتة تخضع للمعايير الدقيقة لجامعة هارفارد التي هي جامعة صارمة فيما يتصل بالتقاليد الأكاديمية.

وكنت في ذلك الوقت أمينا عاما للمجلس الأعلى للثقافة. وكان قبولي السفر إلى هارفارد يحتمل الاعتذار عن عملي في وزارة الثقافة، ولكني كنت وضعت -منذ بداية عهدي مع المناصب العامة في وزارة الثقافة وغيرها- أن يكون انحيازي النهائي هو الانحياز لمساري الأكاديمي وما يمكن أن يفتح أفقا معرفيا لي. وفي ضوء ذلك، عرضت الأمر على فاروق حسني وزير الثقافة في ذلك الوقت. وكان يعرف قيمة ومعنى أن تدعوني جامعة هارفارد للتدريس فيها، وخففت عليه بأن أخبرته أنني لن أتغيب أكثر من أربعة أشهر، وبعد تفكير طويل منه، وافق على أن أحصل على إجازة بدون مرتب من عملي أمينا عاما للمجلس الأعلى للثقافة لأربعة أشهر، يتولى فيها صديق العمر فوزي فهمي الإشراف على المجلس إلى حين عودتي. ولحسن الحظ كان المجلس قد استقرت أموره.

وحملت رحلي، وانطلقت بالطائرة إلى مدينة بوسطن القريبة من مدينة كمبردج التي رأيتها مدينة جامعات عريقة، ففيها هارفارد، وهي أعرق -وأقدم- الجامعات

الأمريكية. وإلى جوارها على امتداد نهر تشارلز جامعة إم. آي. تي. ومن الناحية المقابلة على شاطئ النهر نفسه رادكليف براون كولج التي تحولت من جامعة مخصصة للبنات إلى جامعة مفتوحة، هي جزء من جامعة هارفارد. هذا عن الجامعات العريقة القديمة، ولكن هناك الجامعات الحديثة، وغيرها من الجامعات التي جعلتني أعتقد أن مدينة كمبردج تكونت حول جامعة هارفارد التي أسسها رجل دين مسيحي اسمه جون هارفارد سنة 1636 لكي تكون منافسة لجامعة أكسفورد في بريطانيا.

وأعتقد أن هذا هو السبب الذي جعل كمبردج اسما للمدينة التي احتوت جامعة هارفارد، كما جعلت جامعة هارفارد تهتم بالدراسات اللاهوتية في كلية خاصة بها (Divinity School) وبها مكتبة هارفارد اللاهوتية التي هي مبنى أثري فريد في عمارته. وقد تخرج في هارفارد سبعة رؤساء للولايات المتحدة، هم: جون آدامز، وجون كوينسي آدامز، ورذرفورد هايز، وفرانكلين روزفلت، وجون كنيدي، وجورج دبليو بوش (الابن)، وباراك أوباما، كما تخرج فيها أغا خان الرابع، وبيل جيتس صاحب مايكروسوفت ومؤسسه، ومارك زوكربيرج مؤسس موقع فيس بوك..

والحق أنني منذ اليوم الأول لي في جامعة هارفارد، كنت مفتونا بعراقتها وقدمها ومكانتها. وكان أول جزء توقفت عنده في ساحاتها تمثال القس البروتستانتي

جون هارفارد، وأخذت أسترجع تاريخها الذي أعرف بعضا منه منذ تأسيسها سنة 1636 قبل أن ينتصف القرن السابع عشر، وأتأمل المباني القديمة من حولي، وهي مبان تم تجديدها وترميمها أكثر من مرة لتحافظ على عبق التاريخ العريق العتيد لهذه الجامعة التي يضيف فيها كل جيل إلى ما سبقه، فتجد المباني القديمة إلى جانب المباني الحديثة. وكان صديقي وليام جرانارا لا ينسى أن يصحبني في جولات تعريفية، لم أكتف بها، فقد عرفت طريقي إلى أماكن بيع الكتب لأحصل على أكثر من كتاب عن تاريخ جامعة هارفارد العريق.

وزادني فخرا بوجودي بها ما عرفته بعد ذلك من أنها لم تحمل اسم مؤسسها عند تأسيسها سنة 1636، وإنما سنة 1639 تكريما للقس الإنجليزي الذي تبرع بمكتبته ونصف ممتلكاته. وبعد ذلك أطلق على الضاحية التي أسس فيها جون هارفارد نواة الجامعة (كلية) اسم كمبردج أيضا تحية للجامعة البريطانية التي تخرج فيها جون هارفارد في موطنه إنجلترا. وقد تضاعفت مساحة الضاحية مع الأيام إلى أن تحولت إلى مدينة باسم الجامعة القديمة التي تخرج فيها المؤسس جون هارفارد.

وقد كان دافع جون هارفارد لتأسيس كليته تعليم المهاجرين الأوربيين المستقرين في بوسطن المطلة على المحيط الذي جاء عبره المهاجرون. وكان المقصد

الأساسي من التعليم هو تعميق المعتقدات البروتستانتينية وتعليم اللاهوت والإدارة والتجارة بإشراف الكنيسة. وافتتحت هارفارد باثني عشر طالبا مدعومين بالكتب والإعانات المادية. ولكن مع مرور الوقت تقلصت الصلة بين الجامعة والكنيسة البروتستانتينية وسلطة الولاية. وتحولت هارفارد سنة 1865 إلى جامعة خاصة مدنية لا دينية، وإن لم يمنع ذلك من وجود كلية لاهوت. أما كلية رادكليف براون للبنات فأنشئت مع بدء التعليم العالي للبنات سنة 1879، مقابل هارفارد المخصصة للبنين، إلى أن تغير الأمر بعد ثورات الشباب في الستينيات، فادمجت رادكليف في هارفارد التي كانت أخذت تقبل البنات سنة 1977.

وما أكثر ما كنت أسترجع هذه المعلومات وأنا أتجول ما بين المباني القديمة لهارفارد، أو وأنا داخل إلى مكتبة وايدنر، وهي أكبر مكتبة جامعية في العالم. ولم تكن مكتبة وايدنر هي المكتبة الوحيدة، بل المكتبة الرئيسية. وكنت أسترجع، في ذاكرتي ما سبق أن عرفته من معلومة أن عملية قبول الطلاب في هارفارد هي أصعب عملية قبول للطلاب في العالم. ولذلك لم أستغرب عندما عرفت أن جامعة هارفارد كانت -ولعلها لا تزال- أفضل جامعة في العالم بحسب تقرير صحيفة تايمز عام 2005، وقد جاء بعد جامعة هارفارد الجامعة المنافسة لها والمجاورة لها في المكان على ضفة نهر

تشارلز: أعني معهد ماساتشوستس للتقنية (إم. آي. تي).

ولم يكن من الغريب أن أفيد من الأشهر التي قضيتها في هارڤارد (نصف عام)، وأن تزدوج شخصيتي مرة أخرى فأكون أستاذا زائرا وتلميذا، وأن أقيم علاقات مع الأساتذة المهتمين بالنقد الأدبي، وأن أشارك في الأنشطة الثقافية، فقد كانت هارڤارد في زيارتي الأولى أشبه بمدينة العجائب المعرفية والثقافية التي لا تنتهي، لكن المؤكد أن أجواءها كانت أكثر محافظة من جامعة ماديسون -وسكنسون التي هي جامعة إقليمية في نهاية الأمر، أو جامعة استكوهلم التي ليست في مستوى ولا غنى ولا عراقة ولا تقدم جامعة هارڤارد.

وكان من جوانب التقدم في هارڤارد أن كل طالب يعرف موضوعات الكورسات التي يختار منها قبل بدء الدراسة بأشهر عديدة، ويختارها عن طريق الكومبيوتر، ولذلك كان لابد أن يعرف طلاب قسم اللغة العربية كفيرهم الموضوعات التي سوف أقوم بتدريسها قبل أن أغادر مصر، كي يعلن عنها للطلاب المهتمين، فاخترت موضوع «جدل الحداثة والتحديث»، واخترت أن يكون ذلك من خلال قراءة نصوص من رفاعة الطهطاوي «تخليص الإبريز»، والمويلحي «حديث عيسى بن هشام»، ونجيب محفوظ «زقاق المدق»، وعبد الرحمن منيف «مدن الملح». ولم يزد عدد طلابي عن ستة، كلهم درس العربية لعامين على الأقل. وكنت أذهب للتدريس

مرتين في الأسبوع، وفي كل مرة ساعة لمقابلة الطلاب. ولذلك كان الوقت متاحا للقراءة، والعودة إلى التلميذ المجتهد الذي كنت عليه في ماديسون -وسكنسون. ونسيت تماما القاهرة التي كنت بعيدا عنها، عملا بشطر صلاح عبد الصبور: أجافيكم لأعرفكم.

تبقى المرة الأخيرة التي كنت فيها بعيدا عن مصر. وكانت في هارڤارد أيضا، سنة 2001 وعندما عرض علي أن أكون أستاذا زائرا مرة أخرى، فقبلت فورا، وأخبرتهم أنني سأقوم هذه المرة بتدريس كورس عن القمع في الرواية العربية Novels of Oppression. فقد كان موضوع القمع في الثقافة العربية بعامة، والرواية العربية الحديثة بخاصة يشغل انتباهي منذ أن انشغلت ببحثي «بلاغة المقموعين» طوال عام 1992. وأعلن عن الكورس بالفعل قبل ذهابي إلى هارڤارد بأشهر كالعادة.

ولم تكن مدينة كمبردج غريبة عني هذه المرة، فلم يكن أمامي سوى اكتشاف ما لايزال في حاجة إلى الكشف. وكانت محاضراتي عن روايات القمع العربية أساس عدد لا بأس به من مقالاتي في جريدة الحياة اللندنية، وذلك إلى جانب عدد من المقالات التي كانت أقرب إلى الانطباعات الشخصية عن حياتي في مدينة كمبردج، ومنها إلى مدينة بوسطن عاصمة الولايات، والعودة مرة أخرى إلى كمبردج، حيث أقيم في محيط الجامعة. وقد نشرت هذه المقالات مسلسلة في جريدة «البيان» الإماراتية، وجمعتها في كتاب صغير -صدر في

سلسلة «كتاب الهلال» بعنوان: «من هناك». ولم أنتبه إلى أن حبي لطه حسين جعلني أقتبس -دون أن أدري- أحد عناوين كتبه. وها أنذا أجمع «من هناك» إلى كل ما كتبت من مقالات. بعيدا عن مصر، وأشعر بنوع من شجن الذكريات حلوها ومرها، ولكنها تظل ذكريات عن زمن جميل مضى.

وأجمل ما في هذا الزمن هو رحابة الأفق الذي يقترن بالحياة في عالم التقدم الغربي. صحيح أن التقدم لم يعد مقصورا على الغرب فحسب، فهناك نصف العالم الآسيوي الجديد، إذا استخدمنا عنوان كتاب كيشور محبوباني، خصوصا بعد أن تهاوت سطوة المركزية الأوربية-الأمريكية، وتحول «الآخر» إلى «آخرين». لكن العلاقة مع «الآخر» -أيا كان- هي علاقة تسهم في تطوير الوعي بالهوية، فالأنا لا تكتمل معرفتها بنفسها إلا بمعرفتها بغيرها، فردا أو جمعا، والانتقال من عالم «الأنا» إلى عالم «الهو» يفتح أفق «الأنا» على معرفة بلا حدود، سواء كان ذلك للأنا، عملا بما يقوله صلاح عبد الصبور: أجافيكم لأعرفكم، أو للآخر الذي تقترب منه بما يقضي على ظلمة الجهل به، فتستبدل بالجهل المعرفة على كل المستويات. وهذه فائدة أن تكتب أو تتأمل، وأنت بعيد عن مصر..!

بقيت ملاحظة ختامية عن طبيعة ما أقوم به في هذا الكتاب، فهو ليس تسجيلًا للذكريات الشخصية فحسب، وإنما هو محاولة للجمع ما بين الذكرى الشخصية

والذاكرة العلمية، في سياق لا يخلو من الإشارة السياسية. والحق أنني أردت أن أنقل إلى قارئ هذا الكتاب بعض ما تعلمته وما لاحظته على السواء، وما أسعدني شخصيا، وما أثراني أكاديميا.

أعني لكل ما يجعلني أتطلع إلى زمن الذكريات الذاتية والعلمية بنوع من فرحة الحنين وعرفان المغترب بحثا عن معارف جديدة لا نهاية لتغير مجاليها واحتمالاتها.

وبعد،

فالشكر واجب لكل الذين لولاهم ما ظهر هذا الكتاب إلى النور، ومنهم سكرتيرتي الوفية نجلاء الكاشف والأستاذ كمال عبد الوهاب الذي حمل عني عناء المراجعة والتصويب، ولعائلة الناشر الصديق محمد رشاد: أحمد ونورا ونرمين.

جابر عصفور

الدقي - الجيزة

9 / 10 يناير- 2016

أولا: أمريكا للمرة الأولى

السفر إلى الولايات المتحدة

كنت أحلم طوال سنوات دراستي في المرحلة الثانوية بأن أذهب إلى فرنسا للحصول على درجة الدكتوراه مثل طه حسين الذي أصبح مثلي في كل شيء، وعندما دخلت إلى جامعة القاهرة واخترت قسم اللغة العربية بكلية الآداب، قسم طه حسين، تواصل الحلم في داخلي، وتزايد مع السنوات، وزادت عليه رغبة الحصول على درجة الدكتوراه في الأدب المقارن، فقد كنت معجبا بمحمد غنيمي هلال وكتاباته، وكان جهير الصوت الأدبي في سنوات الستينيات، وقرأت مقالاته في مجلة «المجلة» وغيرها من مجلات الستينيات، وعرفت ما كتبه عن «الأدب المقارن» في كتاب، لا يزال من أهم كتب الأدب المقارن في اللغة العربية، فأضفت إلى حلم الذهاب إلى فرنسا، حلم الحصول على دكتوراه الأدب المقارن منها.

ولم أرض، في الحلم، بالذهاب إلى جامعة مونبلييه التي حصل فيها طه حسين إلى أطروحته الأولى، بل ذهب بي خيال أحلام اليقظة إلى باريس، عاصمة النور أو «فترينة الدنيا» كما وصفها توفيق الحكيم في كتابه الجميل «زهرة العمر». وكانت باريس قد أخذت تتحول إلى أسطورة تشبه جنة العلم والفنون، بعد أن قرأت ما

كتبه الصاوي محمد عنها وما كتبه الحكيم على وجه التحديد، وكم تصورت نفسي «محسن» الذي وصفه توفيق الحكيم في «عصفور من الشرق» أو الحكيم نفسه الذي نشر رسائله إلى صديقه الباريسي في «زهرة العمر».

ومرّت سنوات الكلية، وتوالت سنوات ما بعد التخرج، حيث أصبحت معيدا في الكلية، وكان لابد من تسجيل أطروحة الماچستير التي لم يقض العمل فيها على حلم الذهاب إلى باريس للحصول على الدكتوراه في الأدب المقارن.

لكن كارثة 1967 وما أعقبها من تقليص خطط البعثات إلى الخارج بددت الحلم، وكان لابد من إتقان اللغة الإنجليزية لاعتبارات عملية، تتصل بمتابعة مدرسة النقد الأدبي الجديد التي كانت صاعدة في السنوات الخمس الأولى من الستينيات في مواجهة تيار النقد الواقعي التي فرضتها على وعيي الشاب تحولات الواقع المصري الذي أخذ يزداد إلحاحا في مدى التحول الاشتراكي، فترتب عليه تغيير حلم الدكتوراه من باريس إلى لندن التي أخذت أمتلك عنان لغتها بعون من دراسة إضافية في الجامعة الأمريكية، وحاولت أستاذتي، سهير القلماوي، أن تحصل لي على منحة من إحدى الجامعات الأمريكية لأكمل فيها الحصول على أطروحتي للدكتوراه في النقد الأدبي.

وعرف الدكتور يعقوب السيد بكر محاولات أستاذتي وشعرت أن الحلم قارب التحقق عندما أصبح من نصيب قسم اللغة العربية الحصول على منحة لدراسة الدكتوراه في إحدى الجامعات الأمريكية، وتم ترشيحي بالفعل ووعدني الدكتور يعقوب بكر، رحمه الله، وكان عميد الكلية في ذلك الوقت بالتدخل للإسراع بالإجراءات حتى لا تتعثر الأمور، لكن حتى هذا الأمل في استكمال معرفتي بنظريات النقد الغربي ومدارسه، تبدد عندما عرفت أن المنحة أو البعثة تم تحويلها إلى قسم اللغة الإنجليزية، نتيجة نفوذ الدكتور رشاد رشدي، رحمه الله، وكان رئيس قسم اللغة الإنجليزية في ذلك الوقت، وذا نفوذ أكبر، فأخذ البعثة، وأضاف مدتها الزمنية إلى أحد تلاميذه الذي كان في الولايات المتحدة أصلا، خصوصا بعد أن استنفد هذا التلميذ المقرب منه السنوات المقررة له، وكان في حاجة إلى سنوات أخرى، والطريف أن هذا التلميذ -بعد أن حصل على درجة الدكتوراه- استقر في الولايات المتحدة، وآثر العمل فيها على العمل في الجامعة المصرية، وبقيت أنا في حال بائس من إحباط الحلم!

ولم يكن أمامي إلا العمل في أطروحة الدكتوراه والتفكير في الاستقرار اللازم لهذا العمل واخترت العمل في التراث النقدي والبلاغي، تحت إشراف أستاذتي سهير القلماوي التي أشرفت على أطروحة الماجستير، وتزوجت، وأخذت أعمل في أطروحة الدكتوراه التي

وضعت فيها كل جهدي، أملا في أن أنجز عملا علميا متميزا، يضيف أفقا جديدا في مدى التراث النقدي الذي لا أزال متعلقا به، واستغرقني العمل إلى الدرجة التي أنستني الحلم القديم، وانتهيت فعلا من العمل بعد أربع سنوات متواصلة، خصوصا بعد أن أصبحت قادرا على مطالعة المراجع الإنجليزية، بفضل المنحة الدراسية التي ساعدتني سهير القلماوي في الحصول عليها من الجامعة الأمريكية بالقاهرة، كي أصبح قادرا على القراءة بالإنجليزية لاسيما أن موضوع الرسالة «الصورة الشعرية» الذي كنت أعمل فيه، لم يكن له مراجع متاحة باللغة العربية سوى كتاب وحيد للدكتور مصطفى ناصف، رحمه الله، وأصبحت مدرسا في الجامعة، بعد درجة الدكتوراه، ووعدوني بإمكان حصولي على إجازة دراسية لمدة عام أقضيها في إحدى الجامعات الأمريكية، ولكني لم آخذ الوعد على محمل الجد، فقد اكتفيت بما نالني من إحباط، وقد كان فراغي من أطروحة الدكتوراه في يونيو 1973 وحصولي على درجة مدرس في شهر يوليو 1973 فيما أذكر.

وقد أفرحني وأفرح مصر كلها نجاح الجيش المصري في عبور قناة السويس، واسترداد سيناء السليبة في أكتوبر المجيد سنة 1973 فارتفعت جماهيرية السادات الذي أصبح بطل العبور، ولم تتأثر هذه الجماهيرية رغم الثغرة، ورغم دخول مصر مباحثات فصل القوات، وبداية صفحة جديدة من الصراع العربي- الإسرائيلي،

وبداية مناخ ديمقراطي زعم السادات أنه ماضٍ فيه، جنبا إلى جنب سياسة الانفتاح التي لم تكن آثارها السلبية قد ظهرت فور تطبيقها. أما عني، فقد انشغلت بالتدريس في القسم، وكنت أقبل ما يوكله لي القسم من تدريس أي مادة، فقمت بتدريس البلاغة ومذاهب النقد الأدبي الحديث والنقد العربي القديم ومذاهب التفسير الإسلامي وعلوم أخرى، فقد كان أساتذة القسم الكبار يرون أنه من الأفضل لتكويننا العلمي المستقبلي أن نقوم بتدريس مواد القسم المتعددة لنكتسب المزيد من الخبرة والمعرفة الموسوعية، خصوصا ونحن في ريعان الشباب، وهي خطة لا يزال معمولا بها إلى اليوم، تقريبا رغم تغير الأحوال والظروف.

وكان زميلي أحمد شمس الذي تخرج قبلي بعدد من السنوات، قد أتيحت له فرصة السفر إلى كوريا، ليعمل مدرسا للغة العربية في جامعة سيول، إن لم تخني الذاكرة، وبعد انتهاء عمله فيها لم يعد إلى مصر، فذهب إلى الولايات المتحدة، وتنقل بين جامعاتها بعد أن اكتسب خبرة تعليم اللغة العربية للأجانب، واستقر فيها ابتداء من 1973 تقريبا، متنقلا بسبب الدروس الصيفية بين جامعات عديدة، منها جامعة ماديسون في ولاية وسكنسون التي نجح في إقامة علاقة وثيقة بالمتنفذين في قسم اللغات والدراسات الإفريقية بها، خصوصا صديقنا المشترك داستن كاول الذي كان يقوم بتدريس اللغة العربية، فيما عدا الفصل الدراسي

الصيفي الذي انفرد أحمد شمس بالتدريس فيه أكثر من مرة.

وعندما حصل داستن كاول على إجازة دراسية لعام كامل، كان لابد من إيجاد بديل له طوال هذا العام، فاقترح عليه أحمد شمس أن أكون أنا هذا البديل، ولحسن الحظ كان داستن على اطلاع بكتابي «الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي» وعدد من مقالاتي التي نشرتها في تلك السنوات، ومن المؤكد أن أحمد شمس بطيبته المعروفة ووفائه لأصدقائه قد أضاف العديد من الصفات المغربة، فتحمس داستن كاول لتزكية طلبي لدى الكلية، وكتب أحمد شمس الطلب بنفسه.

وفوجئت في أحد شهور الصيف التي كنت أقضيها في الإسكندرية ببرقية -كيبل- من جامعة ماديسون وسكنسون بقبول للعمل فيها، والتعاقد معي لمدة عام، على أن أبدأ عملي في شهر سبتمبر، إن لم تخني الذاكرة، وكدت أرقص فرحا بعد أن قرأت البرقية، وكنت أعرف أن أحمد شمس وراء كل شيء، وأنه فعل ذلك ليمنحني الفرصة لتحقيق حلمي القديم بالدراسة العليا في إحدى جامعات الولايات المتحدة. صحيح أنني كنت قد حصلت على درجة الدكتوراه من جامعة القاهرة، لكن الحلم القديم لم يمحه الزمن، كل ما حدث أنه أصبح رغبة متقدة في أن أكمل ما كان ينقصني من

معرفة النقد الأدبي بمدارسه التي كانت معاصرة وجديدة في ذلك الوقت.

وكنا قد أخذنا نسمع عن البنيوية، وقرأنا كتب أستاذ الفلسفة الكبير المرحوم الدكتور زكريا إبراهيم «مشكلات فلسفية». خصوصا كتابه «مشكلة البنية» الذي كان له أعمق الأثر في جيلي. ولم أكن قد قرأت كتاب زميلي صلاح فضل عن «النظرية البنائية» في النقد، إلا بعد أن عدت من الولايات المتحدة، ولا أذكر أن الكتاب صدر قبل سفري في مطالع سبتمبر على الأقل، وكنت متشوقا لأقرأ عن البنيوية الفرنسية في مصادرها التي كنت أعلم أنها مترجمة كلها إلى اللغة الإنجليزية، وقررت الذهاب إلى جامعة ماديسون وسكنسون لأقوم بتدريس العربية ليومين أو ثلاثة في الأسبوع، وأقضي بقية الوقت في التهام كل المعارف النقدية ولوازمها في الأيام الباقية.

وأخيرا، نجحت في الاتصال بأحمد شمس في ولاية نورث كارولينا التي كان يعمل في جامعتها في ذلك الوقت، فأوصاني بالذهاب إليه، قبل بدء التدريس في جامعة ماديسون بأسبوعين على الأقل، وذلك لكي أتعود على الحياة الجامعية الأمريكية، وأحضر معه بعض دروسه، فقد كانت جامعته تبدأ السنة الدراسية، قبل أن تبدأ جامعة ماديسون بثلاثة أسابيع فيما أذكر، وأوصاني أن أتصل به تليفونيا من مطار نيويورك للطيران الداخلي -مطار لاجواردیا- بمجرد وصولي إليه،

كي أخبره بتفاصيل وصولي إلى مدينة شارلوت عاصمة ولاية نورث كارولينا التي كان يعمل في إحدى جامعاتها في مدينة بوون.

وساعدني أحمد مرسي، وكان صديقا حميما في ذلك الوقت، قبل أن يغيرنا وتتغير بنا مؤثرات الزمان والمكان، على أن أحصل على دعم مالي من جامعة القاهرة للسفر إلى الولايات المتحدة في مهمة دراسية لمدة عام، وكان مقربا من رئيس جامعة القاهرة، حسن حمدي. وعندما اكتملت استعدادات السفر، انطلقت إلى مطار القاهرة، وركبت طائرة شركة T.W.A في أطول رحلة قمت بها في حياتي في ذلك الوقت إلى نيويورك، بعد توقف في أحد المطارات الأوربية، لم نغادر فيها الطائرة التي وصلت إلى نيويورك في الصباح الباكر وخرجت من مطار جون كنيدي الدولي، وانتقلت إلى مطار لاجواردیا للطيران الداخلي بين الولايات، وكانت أكثر كلمة سمعتها خارج المطار إلى أن وصلني التاكسي إلى لاجواردیا القريب هي كلمة shit بكل تنويعاتها، وفي مطار لاجواردیا، جلست في كافتيريا وجدتها أمامي، أحتسي القهوة الأمريكية، وأهدأ قليلا لأستجمع مشاعري المختلطة التي كان يمتزج فيها الفرح بالخوف والقلق، فيغلبني التوتر الذي كنت أحاول التغلب عليه بقراءة القرآن في سري.

وأخيرا ركبت الطائرة بعد أن استجمعت نفسي، وحجزت مقعدا في الطائرة المسافرة إلى مطار شارلوت،

كما أخبرني أحمد شمس، وجعلني أجعل خط الطيران: القاهرة- نيويورك- شارلوت- ماديسون، ونجحت في محادثته تليفونيا، وكان يعلم بموعد وصولي، وانتظر مكالمتي في مكتبه، ورحب بي فرحا، مبديا الحماسة المحببة التي لاأزال معتادا عليها، كلما خاطبته هاتفيا، وأبلغته أن طائرتي ستصل إلى مطار شارلوت في تمام الساعة السادسة والنصف مساء، فطمأنني بأنه سيكون في انتظاري، ولكي يزيد من طمأنتي أعطاني تليفون سكرتيرة القسم الذي يعمل فيه، فقد كان يعرف خوفي من نسيانه مواعيدنا في القاهرة، وصرخ بلهجته الأقصرية: لا تقلق ستراني بمجرد دخولك إلى صالة الوصول، ولن يمنعني عن ذلك إلا الموت، وبالطبع، اختفى التوجس من داخلي.

واطمأننت إلى عدم نسيانه الموعد كالعادة، فتوكلت على الله، وجلست ساعات طويلة أنتظر طائرة شركة «نورث وست» للطيران الداخلي، في رحلتها إلى لاجورارديا، ولاحظت أثناء الحجز، أن لا أحد طلب أن يرى جواز سفري، بعد أن أبرزته في مطار جون كنيدي، وأنا أعبر الجوازات إلى داخل الولايات المتحدة. وبعد انتظار طويل إلى جانب حقيبتي، حان موعد الانتقال إلى المكان المخصص لطائرة عاصمة نورث كارولينا، وركبت الطائرة التي طارت بي لساعتين فيما أذكر، إلى أن وصلنا إلى مطار شارلوت في الجنوب الأمريكي،

وانتظرت حقيبتي إلى أن تسلمتها، وخرجت أحملها إلى حيث ينتظرني العزيز أحمد شمس الدين الحجاجي.

ولكن للأسف لم أجده بين المنتظرين، فحملت الحقيبة إلى أن وصلت إلى كافتيريا، جلست فيها أراقب مدخل المطار، مدركا أن أحمد شمس سوف يتأخر بعض الوقت كعادته، ومر الوقت بطيئا ثقيلا، وأخذ المطار يخلو من الخارجين والداخلين تدريجيا، وطلب مني النادل في الكافتيريا حساب القهوة، فدفعتها، وخرجت وهم يغلقون أبواب الكافتيريا ومضيت حاملا حقيبتي الثقيلة إلى باب المطار الوحيد، ووقفت أنتظر العزيز أحمد شمس، وظللت واقفا ساعة كاملة ثم ساعة أخرى، ولم يظهر أحمد، فحاولت مهاتفة السكرتيرة التي أعطاني رقمها، ولكن ما من مجيب فقد كانت الساعة تجاوز التاسعة مساء، ولم يكن معي رقم منزلها، فجربت تليفون منزل أحمد، ولكن ما من مجيب، فازداد قلقي.

وبدأت الأسئلة المذعورة: ماذا جرى لهذا الرجل، أيمكن أن يكون خرج من منزله متأخرا؟ ولكني في انتظاره أكثر من ساعتين ونصف، وقد أخبرني أن المسافة من بيته إلى المطار حوالي ساعة عبر الطريق السريع، هل يمكن أن يكون قد حدث له شيء أثناء القيادة؟ لم أملك إلا أن أدعو الله له بالسلامة، ومع العاشرة مساء أخذ القلق يتزايد خوفا من أن يكون حدث له حادث، ومع تزايد حركة عقرب الساعة، بدأت ألحظ وجوه الأمريكان السود الذين يحومون حولي،

فأخذ الرعب يتزايد، فقد حذرني منهم العارفون بالولايات المتحدة، وقال لي الزاعمون بمعرفتهم ولايات الجنوب أنها ولايات غير آمنة في المساء، وأنني سوف أكون محظوظا، إن اكتفى شذاذ الآفاق بسرقة محفظتي وساعتي مقابل حياتي، أما إذا لم أكن محظوظا فقد تنالني طعنة سكين أو خنجر!

وكانت الساعة أخذت تجاوز الحادية عشرة، وأنا جالس على حقيبتي ولمحت ما يشبه القاعدة المرتفعة كعمود قليل الارتفاع توجد عليه خارطة المدينة، وتحتها أسماء الفنادق، ومعها أرقام تليفونات، وما على المرء إلا أن يضغط الزر الموجود أمامه اسم الفندق، ويطلب منهم غرفة وإرسال تاكسي، وقلت لنفسي: حسنا، هذا هو الحل الأخير، إذا لم يصل أحمد حتى الثانية عشرة، أي منتصف الليل، سأضغط زر أحد الفنادق، وأطلب إرسال تاكسي يحملني إلى الفندق، وأبيت ليلتي آمنا، وفي الصباح يفعل الله ما يشاء. ولكن أين أحمد شمس؟ ماذا جرى له؟ مؤكد حدثت حادثة في الطريق، لا يمكن أن يكون قد نسي وصولي كل هذا الوقت، وظللت أضرب أخماسا في أسداس، ينهشني القلق على صاحبي، ويملؤني الخوف من وحدتي في مكان أصبح مخيفا، وزادني خوفا تلفتي الدائم وحذري من أن أمريكيا أسود قد يمر من بعيد ويهاجمني. وأقول لنفسي: سامحك الله يا أحمد، ولي الله في الليلة الأولى في الولايات المتحدة.

واستمعت إلى دقات ساعة الميدان الصغير، فهممت بالذهاب لأضغط على زر أحد الفنادق، وحملت الحقيبة، وكلما تقدمت خطوتين، أتوقف وأدعو الله أن ينتهي هذا الرعب، وأستريح، وأنظر إلى الساعة مرة أخرى، متعلقا بأمل بدأ يتقلص منذ أكثر من ساعة، وعندما وصلت الساعة إلى الثانية عشرة والربع، حزمت أمري، وحملت الحقيبة مرة أخرى، لكي أحجز في أحد الفنادق وما كدت أقترب من الخارطة المضيئة حتى سمعت صوت محرك سيارة آتية في الطريق المقفر تماما حتى من التاكسي، فتوقفت عن مد يدي إلى اسم أي فندق، فقد سمعت صوت أحمد شمس بلهجته الأقصرية التي تتميز بتعطيش الجيم: چابر، ونظرت ملهوفا فإذا به أحمد، وإذا بسيارته تتوقف، ويخرج منها أمامي، باديا عليه إرهاق القيادة لفترة طويلة، وفي اللحظة التي شعرت فيها بالاطمئنان عليه، انفجرت بالعبارات الغاضبة الحانقة، ولكنه أخذني في أحضانه، وهو يلهث من الانفعال، قائلا: لقد ضللت الطريق، وبدلا من أن أتجه إلى الشمال حيث يوجد مطار شارلوت، اتجهت إلى الجنوب، ووصلت إلى مدينة أخرى، بحثت عن مطارها، وظللت أنتظر الطائرة القادمة من نيويورك، وانتظرت خروجك وعندما لم أجدك سألت، فإذا بي في مدينة أخرى، ومطار آخر، واضطررت أن أقود السيارة مرة أخرى متجها إلى شمال الطريق، إلى أن وصلت إلى مدينة شارلوت، وها أنذا، واحتضنني مرة أخرى، وهو

يرحب بي، وأنا أضحك من الغضب والاطمئنان عليه، وانتهاء هذا الموقف الكابوسي في تلك الليلة!

وتحركنا بالسيارة الساعة الثانية عشرة والنصف، وقاد أحمد السيارة إلى الطريق السريع الذي اتجهنا فيه جنوبا إلى بوون المدينة التي يعمل فيها أحمد ويقيم، وكان علي طوال الطريق أن أنتبه وأنبه أحمد إلى أنه يقترب من الرصيف أكثر من اللازم، وأخاف أن ينام وهو سائق وأطلب منه أن يحدثني، ويجيب عن أسئلتي، وعيني مسلطة على اتجاه السيارة، في طريق سريع، كان خاليا لحسن الحظ، وأخيرا، وصلنا إلى منزله وحملت حقيبتي للمرة الأخيرة في اليوم الطويل الذي آن له أن ينتهي، وصعدت معه إلى الطابق الثاني، حيث توجد حجرتان، الكبيرة حجرة نومه، والثانية خصصها لي. وما إن أخرجت منامتي من الحقيبة، وهو ماض في أسئلته عن أحوال القاهرة، حتى سقطت في السرير نائما على الفور، ولم أدر به وهو يتركني ذاهبا إلى غرفته.

ولم أستيقظ إلا في وقت متأخر من الصباح، وخرجت إلى شرفة البيت الخشبي، حيث يأتي الضوء، فرأت عيناي واحدا من أجمل المشاهد التي أذكرها في الولايات المتحدة، فقد كان البيت يقع على ربوة تل، تمتد تحته مئات الهكتارات من الخضرة الهابطة إلى سفح يبدو أشبه بالغابة التي يحتضنها امتداد التل الذي يعلو ربوته المنزل الخشبي الصغير الذي استأجره أحمد

من أرملة خمسينية العمر، زارتنا في عصر اليوم لترحب بضيف أحمد صديقها الذي تعتز به كثيرا، وجلست معنا في الشرفة وتحدثت معي، وأنا أمارس المحادثة باللغة الإنجليزية التي كنت أنطقها كما تعلمتها، وهي تنطقها بلهجتها الجنوبية اللافتة، ومضى اليوم سريعا، لم نغادر فيه المنزل، فقد كان يوم عطلة في جامعة أحمد التي لم تكن بدأت الدراسة فيها بعد.

وفي صباح اليوم التالي، تناولنا الإفطار في باحة البيت المفتوحة على المروج المترامية حولنا، وكنت أشعر بهدوء نفسي كامل، وراحة كاملة، وآمل في أن أواجه عاما كاملا من الحياة في الجامعات الأمريكية ومكتباتها، فقد كنت في مطالع الثلاثين من عمري، متوثبا بالنشاط والرغبة النهمة في معرفة مجال تخصصي الذي لا يزال في حاجة إلى المزيد من المعرفة، لأنه مجال لا يكف عن التغير والتطور، وأخذت إنجليزيتي تتحسن بسبب حواراتي مع أصدقاء أحمد وزملائه، هؤلاء الذين أصبحوا مثل أحمد طيبة وكرما. فصاروا يتسابقون في دعوتنا إلى العشاء. وكانت دهشتي بالغة عندما دعانا أحدهم إلى ضيعة له مترامية الأطراف، وقد عرفت أنه ليس وحده في ذلك!

واصطحبني أحمد إلى الجامعة في يوم الدراسة الأول، وألقى لطلابه أولى محاضرات الفصل الدراسي الأول، وكانت عن الديانات البدائية التي أنتجت الأساطير وكان اهتمامه بهذا الموضوع بعض اهتمامات

أطروحته لدرجة الدكتوراه، وكانت «الأسطورة في المسرح المصري». ولاتزال إلى اليوم أهم مرجع في مجالها، وظللت أدوام معه على الذهاب إلى محاضراته طوال الأسبوع الأول إلى أن تعودت على طريقة محاضراته وكيفية إدارة الدرس والحوار مع الطلاب، فتركني بقية الأسبوع الثاني أتجول حرا في الجامعة، وأتجول في مكتبة البيع الخاصة بها، لا أشتري شيئا، وإنما أتعرف على العناوين والكتابات التي تهمني، أو أذهب إلى مكتبة الجامعة وأقرأ فيها ما أريد، أو أجلس في الكافيتريا العامة،وأتعرف على عقلية الطلبة، واستكملت معرفة الحياة الجامعية الأمريكية، وقبل أن تنتهي استضافة أحمد لي أبى إلا أن يقيم لي مأدبة عشاء عامرة، دعا إليها معارفه من الأساتذة والأستاذات في جامعة نورث كارولينا، وهي جامعة من الجامعات الإقليمية الصغيرة، وفي المأدبة -وقبلها- عرفت بعض سر هذه المحبة التي يكنها زملاء أحمد له، فقد كانت ترجع إلى براعته في الطهي، وخاصة الملوخية التي كان يجيد طهيها إلى حد كبير وإلى درجة كانت تدفع كل من يدعوه أحمد إلى قبول هذه الدعوة لكي يستمتع بطبق الملوخية الشهير الذي كان يتقنه أحمد كل الإتقان.

وقد كنت أحسده على هذه البراعة في الطهي، فأنا لم أكن أجيد الطهي على الإطلاق، وقد كان خبرتي بذلك مخجلة إلى أبعد حد. أما أحمد فقد كنت جالسا في

المنزل بعيدا عن المطبخ أشم رائحة الملوخية بعد أن قام أحمد بإضافة التوابل والبهارات، التي فاحت رائحتها في المنزل كله، وبالفعل حين أقبل موعد العشاء أخذ زملاء أحمد، ذكورا وإناثا يأتون إلى المنزل، ويرحبون بي بوصفي المحتفى به والذي تقام المأدبة على شرفه، وكان بعض الخجل لا يزال يفارقني، ولهذا لم أكن أتجاوب تماما مع محاولاتهم في جذبي إلى الكلام وإلى الحوار حول إقامتي بينهم في جامعتهم الصغيرة، فقد كنت أرد على أسئلتهم بجمل قصيرة مقتضبة خائفا من أن تخونني لغتي الإنجليزية التي لم أكن قد أتقنت الحديث بها بعد. وعندما وضع أحمد أطباق الملوخية باللحم، تفوح منها رائحتها التي تغري النفوس بالإقبال عليها، فوجئت بحب الأمريكان الحاضرين للملوخية وعشقهم الشديد لها وتعلقهم بأحمد لأسباب تتصل بشخصيته الجذابة بالطبع، ولكن بصفاته التي تقع في مقدمتها البراعة الكاملة في الطهو.

وقد كنت أعرف هذه البراعة في أحمد قبل السفر حين كان يدعونا إلى منزله في القاهرة. ولكن من الواضح أن هذه البراعة قد تحولت إلى مصدر للجاذبية التي تشد إليها النساء الجميلات قبل الأساتذة الجامعيين. وأخذنا وقت العشاء في سمر وضحك إلى أن انتهت المأدبة العامرة وانصرف بعد تناول الشاي زملاء أحمد وزميلاته وصديقاته في آن. وجلست مع أحمد بعد أن خلا البيت كله إلا منا نحن الاثنين وأنا

أشاكسه وأداعبه عن الملوخية التي كانت تجذب الأمريكيين والأمريكيات على وجه الخصوص إلى منزله. وقضينا ليلتنا سعيدين فرحين بوجودنا معا.

وعندما جاء الصباح زارنا زوج صاحبة المنزل وكان عجوزا ظريفا خفيف الظل بحق ومضينا معه هابطين التل الذي يقع المنزل الذي أستأجره أحمد على قمته، وكان المنزل يتكون من طابقين في الدور الأول منه غرفتين للطعام والاستقبال وفي الدور الثاني غرفتان للنوم. وظللنا نسير هابطين التل الأخضر الذي ظل يبهرنا بجماله إلى أن اخترنا بقعة محاطة بالأزهار وجلسنا فيها نتأمل جمال الطبيعة التي لا أظن قد رأيت مثلها من قبل واحتسينا بعض المشروبات التي قدمها إلينا أحمد. وأذكر أنني قضيت في هذه الجنة يومين آخرين أغلقت بعدهما حقيبتي الضخمة وأخذت أستعد إلى السفر. وصحبني أحمد شمس إلى المطار، وعانقني مؤكدا ضرورة قدومي إليه مرة أخرى في العطلة التي تأتي بعد انتهاء الفصل الدراسي الأول، وعانقت أحمد مودعا إياه في المطار والدموع تترقرق في أعيننا، وقلت له: إلى اللقاء، مؤكدا ضرورة عودتي إليه في إجازة ما بعد الفصل الدراسي.

وكان أحمد كريما كل الكرم يؤمن بالبيت الذي قاله الشاعر العربي القديم:

ونكرم جارنا ما دام فينا

وبالفعل اتصل أحمد بتلميذة له اسمها نانسي لكي تتولى حجز غرفة في الفندق الموجود بمدينة ماديسون بالقرب من الجامعة، واتصل كذلك بصديق سوداني هو إسماعيل الذي سوف يكون مساعد مدرس لي في الجامعة، حسب النظام المتبع في الجامعات الأمريكية إذا زاد عدد الطلاب على ستة فلابد للأستاذ أن يكون له مساعدا للتدريس، خاصة إذا كان طلابه يقتربون من العشرين أو يزيدون على العشرة، وهذه سنة متبعة في تدريس اللغات على وجه التحديد.

الاستقرار في ماديسون

هكذا نزلت من الطائرة في مطار ماديسون في اليوم الأول من وصولي، فوجدت في انتظاري إسماعيل الذي كان شابا سودانيا، في مثل عمري تقريبا، ورحب بي ترحيبا حارا كما لو كان يعرفني منذ سنوات، فقد كان شابا يألف ويؤلف، واصطحبني في تاكسي من المطار إلى فندق ماديسون في وسط المدينة بجوار الجامعة، وأعطوني غرفة واسعة، تطل نافذتها على الشارع وكان الفندق فخما لا يقل مستوى عن هيلتون القاهرة، أجرة الإقامة فيه ثلاثون دولارا في اليوم ولم يطالبني أحد بالدفع مقدما، ولم أشعر بارتفاع الثمن، فقد كانت الولايات المتحدة لا تعرف الغلاء الفاحش الذي عرفته في السنوات اللاحقة وأبلغني إسماعيل أنه سيأتي في الصباح، وسيتركني لكي أستريح، لكنه لم يغادر إلا بعد أن أخبرني أنه قد عثر لي على مسكن ملائم سيريني إياه في الصباح، قبل أن يصحبني لزيارة مكتبي في الجامعة، واستلام المكتب المخصص لي، وهو مكتب داستن كاول الذي سيكون مكتبي لعام كامل. وبعد أن تركني إسماعيل، وجلست وحدي في غرفتي، وأخرجت ما أرتديه مؤقتا لأنه قال لي: إني لن أقيم في الفندق أكثر من ثلاثة أيام.

ومع قدوم المساء رن الجرس في مكتبي، وسمعت من يقول لي بالإنجليزية: هاللو دكتور جابر، أنا تلميذة

أحمد شمس وصديقته المقربة، هل تنزل ملقابلتي أم أصعد إليك، فبادرت بالإجابة: انتظريني، أنا هابط إليك. وارتديت ملابسي بسرعة، فوجدت فتاة طويلة لحيمة، ترتدي بنطالا وصديرية، وهي تتطلع إلي باسمة، فاتحة ذراعيها على امتدادهما لعناقي، وربتت على ظهري كأنها أم حنون مع أنها لم تتجاوز العشرينيات، ولكن السمنة الواضحة أعطتها ملامح جعلتها تبدو أكبر من عمرها. ودعتني إلى الخروج معها كي أتعرف على ماديسون، مؤكدة لي أن أحمد شمس أوصاها برعايتي، وتلبية كل مطالبي، فتمتمت شاكرا لها، وخرجنا من الفندق إلى الشارع الرئيسي الذي تطل عليه غرفتي، وكان المساء قد حل، والأضواء غمرت الشارع العامر بالحياة، وأخذنا نسير معا، وهي تحكي لي كل ما يمكن أن أطلب معرفته عن مدينة ماديسون في ولاية وسكنسون التي عاصمتها ملووكي.

وأخبرتني أن هذه المدينة هي مسقط رأس جولدا مائير التي ولدت فيها لأبوين يهوديين، مهاجرين إلى الولايات المتحدة، بحثا عن الأمان وفرص الحياة الثرية، وذلك قبل أن تهاجر جولدا الشابة إلى فلسطين، وتشترك مع بن جوريون في تأسيس العصابات الصهيونية التي اغتصبت أرض فلسطين، والانتصار على العرب الذين حاولوا إنقاذ فلسطين التي أصبحت إسرائيل، ومضت نانسي قائلة إنهم في ملووكي صنعوا تمثالا شمعيا لجولدا مائير وضعوه في متحفها باعتبارها فخرا لليهود

الذين هم أكبر المجموعات السكانية غير المسيحية في الولاية.

وقد أضاف لي إسماعيل السوداني، الذي أطلقت عليه هذا الاسم معتزا بصداقته، واعتزازا بوفائه لكل السودانيين الموجودين في المدينة، أقول أضاف لي معلومة مهمة، مؤداها أن تدريس اللغة العربية وآدابها، كان يقع ضمن اختصاصات قسم اللغات السامية، ذلك لأن الصهيونيين المتنفذين في الجامعة، طردوا اللغة العربية من القسم، في عدائهم للعرب، فلم تجد اللغة العربية مكانا في أقسام الكلية إلا في قسم اللغات والآداب الإفريقية، على أساس أن اللغة العربية لغة إفريقية، يحتل ناطقوها الشمال الإفريقي كله على الأقل، وأخبرني إسماعيل أن حفاوة قسم اللغات والآداب الإفريقية باستقبال اللغة العربية والترحيب بها، ترجع إلى أن أغلب الأساتذة إما أفارقة مهاجرون، أو أمريكيون سود يعتزون بأصولهم الإفريقية الأولى.

أما نانسي فقد ظلت تجوب بي أهم شوارع مدينة ماديسون القريبة من الحي الجامعي ولم نتوقف إلا بعد أن شعرنا بالإرهاق، فجلسنا في أحد المحال لتناول مشروب، وهي لا تكف عن الحديث في كل شيء، بما فيه حياتها نفسها، وأخيرا صحبتني إلى الفندق مصرّة على أن توصلني إلى غرفتي، فاستجبت لرغبتها، وما إن وصلنا إلى باب الغرفة، دون أن يعترض أحد على صعودها معي، حتى حييتها شاكرا، معترفا بجميل

صنعها، وسارعت بإغلاق الباب حتى لا تدخل معي الغرفة، فلم أكن أجرؤ على دعوتها إلى الغرفة خوفا من القيل والقال، ناسيا أنني في الولايات المتحدة التي لا يتدخل فيها أحد في حياة أحد، ولا حتى الاعتراض على سلوكه مهما كان، ولم أدرك إلا بعد أشهر أن كثيرا من التقاليد المتوارثة التي حملتها معي من القاهرة لم يكن لها محل من الإعراب في هذه البلاد التي تتقدس فيها حرية الفرد إلى أقصى درجة يمكن تخيلها.

وكان صوت إسماعيل السوداني بشارة صباح اليوم الثاني في مدينة ماديسون، وسرعان ما هبطت إليه مليئا بالنشاط، وذهبنا معا إلى مقر شركة مالكة عقارات، منها عمارة عشرة أدوار في الشارع الموازي للفندق، وينتهي بحدائق حرم جامعة ماديسون، وكانت المسافة بين مدخل العمارة التي أقمت فيها ومدخل المبنى الذي يقع فيه مكتبي، تحتاج إلى المشي على القدمين حوالي خمس عشرة دقيقة، وبعد توقيع عقد الشقة التي ذهبنا إليها وتفقدناها، شعرت بالراحة النفسية لملاءمتها ما أنا في حاجة إليه، فقد كانت مكونة من غرفتين وصالة، واحدة للنوم، والثانية بها مكتب متصل بأرفف كتب تعلوه في اتجاه السقف. وتركنا العمارة، بعد معرفة الدور الذي تقع فيه الغسالات الكهربائية، ونزلنا إلى المدخل الذي يقع بعد غرفة صغيرة بها صندوق بريد لكل شقة، وعلمني إسماعيل كيفية استخدام الأرقام السرية وانطلقنا إلى الجامعة، ومررنا على مكتبة

الجامعة المفتوحة حتى العاشرة مساء، وأمامها مكتبة كبيرة من أدوار عديدة لبيع الكتب والمراجع الجامعية في أحد الأدوار إلى جانب أدوار أخرى للأدوات الكتابية والهدايا، ودور أخير لما يمكن أن يحتاج إليه طلاب الجامعة خارج تلك الدوائر.

ووصلنا إلى المبنى الذي يقع فيه مكتبي، في الدور السادس، وحصلنا على المفتاح من سكرتيرة القسم، وكانت شابة، جميلة الوجه، رشيقة في العشرينيات الأولى من عمرها، بالغة الحيوية، لا تفارقها الابتسامة، وصحبتني وإسماعيل إلى مكتبي، وفتحت الباب، مشيرة بحركة راقصة باليه أن أدخل، وتركتنا راكضة إلى مكتبها. ولفت انتباهنا أن الجدار المواجه للباب كان من الزجاج، يطل على امتداد بحيرة ميندوتا التي ذكرتني ببحيرة قارون في الفيوم، لكن مع الفارق في جمال ما يحيط ببحيرة ميندوتا.

وسرعان ما أبلغني إسماعيل أن اسم البحيرة هندي الأصل، وأن مدينة وسكنسون تقع في منطقة البحيرات التي تمتد إلى مدينة شيكاغو التي تبعد عن ماديسون ثلاث ساعات ونصفا بالسيارة، وأن المنطقة كلها كانت موطنا للهنود الذين بقيت أسماء بحيراتهم على حالها، وتركني إسماعيل أستمتع بمشهد البحيرة الجميل،وأتخيل كيفية قضائي عاما كاملا، أتطلع قبل وبعد المحاضرات إلى بحيرة ميندوتا، وأنا جالس على مكتبي الذي يمتد بطول الغرفة المستطيلة الصغيرة

التي أخذت أتطلع إلى أرفف المكتبة التي تحتل الجدار الأيسر بعد الباب، ووجدت الأرفف مكدسة بكتب أغلبها بالإنجليزية، أخبرني إسماعيل أنها في عهدتي إلى أن ينتهي عام تعاقدي، ويعود داستن كاول من إجازته الجامعية الممتدة لعام.

وكانت السكرتيرة قد أعطتني الأوراق التي فيها الفصول التي سأقوم بتدريسها في الفصل الأول مع أسماء الطلاب الذين سيساعدني إسماعيل، على إنجاز مهام التدريس الرئيسية لهم، فيقوم بتصحيح التمارين اللغوية والإشراف على غيرها من الواجبات التي سوف أقوم بتكليف الطلاب بتجهيزها قبل مواعيد المحاضرات، في المنزل أو المكتبة، فقد كان إسماعيل متعاقدا مع القسم للعمل T.A أو مساعد مدرس، وكان عدد طلابي يزيد على العشرة بقليل، وأنا الذي تعودت على التدريس لمئات الطلاب في قاعات محاضرات كلية الآداب التي يتزايد بؤس تضاعف أعدادها مع غيرها من الكليات في جامعة القاهرة.

وعندما جلست في مكتبي، وحيدا، فاجأني من جديد الشعور بالوحدة التي شعرت بها في مواجهة مصير مجهول، في مدينة ماديسون، فلم أكن طالب بعثة أتى للتعلم في الولايات المتحدة، وإنما كنت أستاذا مساعدا زائرا، جاء للتدريس في إحدى البلدان المتقدمة التي تمنيت الحصول منها على درجة الدكتوراه. ولكن أمنيتي لم تتحقق بسبب فساد الأوضاع الجامعية في

مصر. وها هي إرادة الله، ثم فضل أحمد شمس، وصلا بي إلى هذا الموضع، فأصبح الحلم متحققا جزئيا، لكن على نحو أصعب، فقد كان علي أن أقوم بدور مزدوج: أن أقوم بتعليم طلاب الجامعة اللغة العربية والأدب العربي، وأن أتعلم في الوقت نفسه ما لم أكن أعرف من محدثات النقد الأدبي العالمي.

وكان شعوري بثقل المهمة المزدوجة يزيد من حدة شعوري بالوحدة التي استعنت عليها بقراءة القرآن في سري والدعاء إلى الله سبحانه وتعالى أن يوفقني. ولذلك مضيت في عزم لإنهاء إجراءات الوصول، وحملت حقيبتي واتخذت طريقي إلى الخارج، ولكني وجدت إسماعيل ببشرته السوداء وملامحه الطيبة، وكان من عمري تقريبا، يدخل الغرفة في مودة خالصة، هاتفا: يا مرحبا يا أخ جابر. وللأسف نسيت بقية اسمه بسبب اعتلال الذاكرة، مع أنه كان نعم الأخ والصديق في العام الكامل الذي قضيته في مدينة ماديسون. وأخبرني إسماعيل عن نظام التعليم في جامعة ماديسون، والفارق بين دوري في إلقاء الدروس العامة النظرية، أما التدريب أو التطبيقات فيتولاها هو، بوصفه الـ T.A (اختصارا لكلمة مساعد مدرس Teacher Assistant).

ولكن إسماعيل العزيز لم يعاملني معاملة معيد للأستاذ كما يحدث في جامعة القاهرة، وإنما معاملة الصديق لصديقه أو الأخ لأخيه. وبالفعل، كان إسماعيل

نعم الأخ والصديق، فقد كان هو وزوجه بيف (اختصارا لاسم بيفرلي) أقرب اثنين إلى قلبي وعقلي لعام كامل، بيتهما أصبح بيتي، وأصدقاؤهما أصبحوا أصدقائي. وكان إسماعيل من السودان ويعمل في أطروحته لدرجة الدكتوراه في تاريخ التطبيب الإفريقي تحت إشراف يان فانسينا، وهو أستاذ أمريكي من أصل بلچيكي فرانكفوني الهوى، وكان أكبر وأهم أستاذ أمريكي في التاريخ الإفريقي واللغات الإفريقية، ويعمل في الكلية التي أعمل فيها، وكانت مختصة بالعلوم الإنسانية، حيث يقع قسم اللغات والدراسات الخاصة بالشمال الإفريقي الذي أصبحت أستاذا به، في الدور السادس من المبنى الضخم الذي كان يقف شامخا بأدواره العشرة، مطلا على البحيرات المواجهة له.

ولم تطل دهشتي من وضع اللغة العربية ضمن آداب ولغات شمال إفريقيا، فقد أخبرني إسماعيل -كما أشرت من قبل- أن اللغة العربية كانت داخل قسم اللغات والآداب السامية الذي تغلب عليه الدراسات العربية، حيث وجد أساتذة صهاينة ويهود متعصبون، طاردوا اللغة العربية ونجحوا في طردها من قسم الآداب السامية. وكان الرد عليهم من أساتذة الأفروأمريكان، فضموا اللغة العربية إليهم، وجعلوها ضمن دراسات لغات الشمال الإفريقي، حيث القسم الذي قضيت فيه واحدة من أجمل سنوات عمري، ما بين سبتمبر 1977 إلى نهاية أغسطس 1978، ولم يعكر صفو هذه السنة

سوى ما حدث في نوفمبر سنة 1977 من زيارة السادات لإسرائيل!

وقد اصطحبني إسماعيل من مقر الجامعة ليطوف بي في مدينة ماديسون الهادئة التي بدت لي، من الطائرة، مدينة ريفية، محاطة بمزارع ممتدة، وليست مدينة صناعية مثل شيكاغو التي لم تكن بعيدة عن محافظة وسكنسون التي تعد مدينة ماديسون الثانية فيها بعد العاصمة ملووكي التي ولدت فيها جولدا مائير في أسرة يهودية من المهاجرين الشرقيين الذين استقروا في الولايات المتحدة، قبل أن ينهب الصهاينة بمساعدة الاستعمار البريطاني أرض فلسطين. وبعد أن وضعت حقيبتي في الفندق، اصطحبني إسماعيل إلى الغداء الخفيف، تركني على وعد أن يأتي إلي في الصباح، كي يصحبني للتعرف على القسم الذي سأعمل فيه والأساتذة الذين سأقوم بالتدريس إلى جانبهم.

ولم أنفرد بنفسي طويلا في الغرفة، فمع اقتراب المساء، جاءت نانسي، تلميذة أحمد شمس التي صحبتني معها لأتعرف على ملامح ماديسون، فخرجت معها، ومضت بي من شارع إلى شارع إلى أن هدني التعب، فطلبت منها أن نجلس كي نستريح ونشرب شيئا، ودخلنا إلى أول مكان وأقربه، وجلست أمامي على المنضدة، وهي تشرح لي مدينة ماديسون، وأخبرتني أنها مدينة تكونت من الهجرات الأولى القادمة من الدول الشيوعية على وجه الخصوص، ولذلك فعدد

الذين توارثوا المذهب الماركسي كبير نسبيا، وأن المدينة تضم مركزا مهما للحزب الشيوعي، وأن الديانة التالية في العدد بعد المذاهب المسيحية الثلاثة هي اليهودية، وأن اليهود كثيرون في المدينة وأقوياء المكانة على السواء. وقلت لنفسي، إذن هذا هو سبب طرد اللغة العربية من قسم اللغات والدراسات السامية.

وكانت نانسي مسيحية، كما فهمت، ولم أجرؤ على سؤالها هل هي كاثوليكية أو بروتستنتينية أو إنجيلية، فقد بهرتني نانسي بإنسانيتها وطيبتها. وبعد أن تناولنا مشروبنا، خرجنا مرة أخرى للتجوال إلى أن عرفت ملامح المدينة، والطرقات التي تؤدي إلى الجامعة والمطاعم والمقاهي التي كانت مزدحمة بالطلاب الذين هم ريفيو النشأة في الغالب، لكن مع ملاحظة أن ريف الولايات المتحدة ليس كالريف المصري، فهو لا يعرف قرانا البائسة، وإنما المدن الصغيرة التي تتكون من تجمعات أغلبها يعمل بالزراعة وما يرتبط بها من حرف. وسرعان ما عرفت أن بعض الأسر تجعل من بيوتها مطاعم، تقدم الطعام الذي تطهوه ربة المنزل، وتتولى الخدمة بقية العائلة. وهي مطاعم متناثرة، عبر الطرقات التي تمر بحقول لا نهاية لخضرتها بعيدا عن فصل الشتاء القارص بجليده، أو وقدة الصيف برطوبتها العالية. وكان من الطبيعي أن أدعو نانسي إلى عشاء بسيط في أحد مطاعم البيتزا، وظللت سعيدا بالاستماع إليها، وهي تأكل، وأن أتعود على الحديث باللغة

الأمريكية بلهجة وسكنسون. وودعت نانسي بعد العشاء، والتي أبت أن تفارقني إلا أمام الفندق حتى تطمئن علي. وأخيرا، أصبحت في غرفتي، وارتديت منامتي، ودلفت إلى السرير كي أنام بعد يوم مرهق طويل.

ولكن من الذي ينام في لياليه الأولى في مدينة غريبة، وهو على أعتاب حياة جديدة؟! وبالطبع لم أنم إلا لماما، وكم أسعدني مجيء الصباح، ونزولي إلى مطعم الفندق، ولم أحزن كثيرا على عدم وجود الفول، وقلت لنفسي: انس عاداتك وادخل في هذا العالم الجديد، ولست وحيدا تماما لحسن الحظ، فقد عرفت صديقين جديدين في يومك الأول: نانسي وإسماعيل. ولم أكد أفرغ من نطق إسماعيل في سري حتى وجدت وجهه الطيب الباسم، يدخل إلى مطعم الفندق باحثا عني، وكنت أكملت فطوري الأمريكي، فقمت واقفا مرحبا به.

وبعد أسئلة الاطمئنان عن ما فعلت، قال لي: هيا، أمامنا مهام كبيرة، الأولى أن نذهب إلى الجامعة، والثانية أن أذهب معه إلى الغداء في منزله، كي أتعرف على زوجه بيف. وبدأنا بالجامعة، ودخلنا مكتب السكرتارية. وتعرفت إلى سيدة جميلة، بالغة الرشاقة، اسمها بات (اختصار لاسم باتريشيا) سرعان ما أصبحت صديقة ودودة، ولكن ما أكثر ما كانت تغضب مني ضاحكة بعد تصويب نطقي لاسمها، خصوصا حين كنت

أقوم بتخفيف حرف الباء. وأنطق اسمها bat التي تعني خفاشا، بدل أن أقول Pat التي كانت اختصارا لباتريشيا بالباء الثقيلة لا الخفيفة (وتعني عند الاختصار: رثثة). ولكنها كانت تعرف صعوبة التمييز في النطق بين صوت ألـ B والـ P. وما أطرف ما واجهت من مآزق بسبب عدم صواب نطقي فقد كانت هذه هي المرة الأولى التي أستخدم فيها اللغة الإنجليزية في الحياة اليومية صباح مساء، وفي كل مجال: معرفي أو غير معرفي.

وبعد أن عرفت پات العزيزة، اصطحبني إسماعيل لنقابل رئيس القسم إدريس ماكوارد وهو أفروأمريكي، رياضي القامة، فاحم السواد، ودودا في تعامله. وتولى الرجل الترحيب بي قائلا بعض كلمات المجاملة التي تقبلتها شاكرا، وتمنى لي التوفيق خلال العام الذي سأعمله معهم بديلا عن داستون كاول الذي عرفته قبيل سفري. وتركني إدريس على وعد بأن أحضر إحدى الحفلات التي يقيمها لطلابه وبعض زملائه كلما وجد مناسبة. ومضيت وإسماعيل في ممرات الدور الذي يقع فيه مكتب إدريس وبات (Pat). ومررنا على غرفة مكتب داستون كاول التي ستصبح غرفة مكتبي لمدة عام كامل، وفتحت الباب بالمفتاح الذي أصبح مفتاحي، وكانت الغرفة مستطيلة، جدارها المواجه للباب حائط زجاجي يعلو منضدة بطول الغرفة- كما قلت من قبل- هي طاولة المكتب الذي لم يكن عليه سوى تليفون.

ويطل الزجاج على منظر الخضرة المترامية التي لا تنتهي إلا عند شاطئ بحيرة ضخمة.

وأخبرني إسماعيل أن الجامعة تطل على بحيرات ثلاث تحيط بماديسون كلها، أكبرها بحيرة مندوتا التي لم أعد أذكر سوى اسمها لأني كنت أطل عليها من مكتبي، وأتناول غذائي في كافيتريا اتحاد الطلاب التي تقع على شاطئ البحيرة نفسها. وما أكثر ما كنت أترك العنان لأفكاري، وأنا أتطلع إليها، وأفكر في الاستقرار في الولايات المتحدة، وأنسى جامعة القاهرة، وأكون مثل غيري من المصريين الذين استقر بعضهم في جامعة وسكونسن، مثل إيهاب حسن الذي كان قد اشتهر بوصفه رائدا لتنظير ما بعد الحداثة، وإدوارد سعيد الذي كان ناقدا أخذ يعلو نجمه بعد صدور كتابه «بدايات» الذي اشتريته من مكتبة الجامعة لبيع الكتب، ولكن تمسكي بحلم أن أكون مثل طه حسين في مجال الدرس الأدبي كان يحول بيني وغواية أفكار الاغتراب، فقد عقدت العزم على أن أستفيد بكل ما أستطيع في جامعة ماديسون، كي أعود بعدها إلى القاهرة لمواصلة حلم طه حسين.

وعاد إسماعيل بعد أن تركني وحيدا في المكتب، أتأمل كتب داستن كاول، وذهب ليحضر بريده من مكتبه، وخرجنا معا إلى حيث توجد سيارته، وانطلقنا إلى الشركة التي سأوقع معها عقد إيجاز سنويا (lease) لشقة صغيرة، مكونة من غرفتين وصالة صغيرة، وقال

لي إسماعيل إنه قرأ عنها في الجريدة، وأنها تقع في عمارة جديدة ملك هذه الشركة، تقع على الطريق الذي يقودني إلى الجامعة مباشرة، والمسافة بينها والجامعة يمكن أن أمشيها بلا إرهاق. ووقعت العقد، وكان الإيجار معقولا بمقاييس سنة 1977، وأظنه كان حوالي مائة وتسعين دولارا، بما فيها حق استخدام غرفة الغسالات الكهربائية وكلفة المياه والإنارة على السواء. وبعد أن قمت بتوقيع العقد الذي يبدأ بعد أيام معدودة من الشهر، وأنهينا إجراءات التعاقد، ومررنا على العمارة وأرينا المشرف صورة العقد، ووعدنا بتسليم مفتاح الباب الخارجي والشقة في صباح اليوم الأول من الشهر بعد أربعة أيام، أخذني إسماعيل، وذهبنا بسيارته إلى مساكن الجامعة، حيث يسكن طلاب الدراسات العليا، ومنهم إسماعيل الذي كان يعمل في أطروحة الدكتوراه، إلى جانب عمله مساعد مدرس لي في مادة اللغة العربية باعتبارها لغة أجنبية.

ووجدنا زوجه بيف بانتظارنا، وكانت أمريكية يشغل والدها منصبا بالغ الأهمية في عاصمة ولاية وسكنسون (ملووكي) وعائلتها بوجه عام بالغة الثراء، على النقيض من إسماعيل الذي كان مكافحا، يعمل لينفق على نفسه ودراسته دون أي عون من أهله في السودان. ولكن كل ما نعرفه من الفوارق الطبقية لا معنى له في الولايات المتحدة، خصوصا بين بيف القصيرة الجميلة الوجه الشاهق بالبياض ذي النمش الخفيف، والروح المرحة

التي جعلتها أختا لي وزوجة أخ طوال إقامتي في ماديسون.

وكان مسكن إسماعيل وزوجه أنيقا بسيطا، لم أر منه سوى الصالة التي هي للاستقبال والطعام في آن. ولم تغب عني درجة المحبة التي كان يبديها كل منهما إزاء الآخر، ودرجة المساواة التي كانت تميز التعامل بينهما. وكان إسماعيل زوجا متفهما، لا يتخذ قرارا إلا بعد التشاور معها، وكانت هي كذلك. وكانت هي زوجا عاملة، تعمل في إدارة تابعة للولاية، وهو يتابع دراسته العليا ويعمل في الجامعة على السواء.

ومرت الأيام الباقية على استلام شقتي سريعة وإسماعيل وبيف لا يتركاني إلا لكي أعود إلى الفندق للنوم، حتى جاء أول الشهر، وانتقلت إلى بيتي الخاص، ودفعت مائة وخمسين دولارا للفندق، مقابل الأيام الخمسة التي قضيتها فيه، فقد كانت الليلة بثلاثين دولارا، وهو شيء لم يعد له وجود الآن. المهم أنني حملت حقيبتي وذهبت إلى شقتي الجديدة، وكانت غرفة نوم تحتوي على سرير مع كوميدينو للملابس ودولاب صغير، أما الغرفة الثانية فكان فيها أريكة طويلة مريحة تصلح للنوم، يقابلها مكتبة ومكتب، أو مكتب فوق حافته عدد من الأرفف للكتب، ووضعت في أرفف المكتبة الصغيرة المعجم الذي أحضرته معي، والأوراق التي كنت أحملها.

أما الصالة التي هي المدخل فقد كان بجوار حائطها الأيمن المجاور للشباك أدوات طهي، وموقد وفرن كهربائي، وفي الناحية المقابلة كان الحمام في الزاوية مواجها للمطبخ. وقضيت ليلتي الأولى في هذه الشقة إلى أن حضر إسماعيل في صباح اليوم التالي ليصحبني إلى مكتبي في الجامعة لنتحدث فيما لم نتحدث فيه عن تفاصيل العمل وعن طبيعة الطلاب، وكانت بقايا ثورات الطلاب العالمية في الستينيات لا تزال باقية، والروح التحرري الذي خلقته لا يزال فاعلا، وقد لاحظت أمام باب المنزل كومة من الأثاث المستخدم وتلفزيونا أبيض وأسود لا بأس به.

وسألني إسماعيل إذا كنت أحتاج إلى تلفزيون، فأجبت بنعم، فقال: احمل هذا التلفزيون. ولما لم أجرؤ على فعل ذلك حمل إسماعيل الجهاز، وقال لي: افتح باب العمارة، ففتحت بالمفتاح الذي معي،ومضى معي إسماعيل حاملا الجهاز إلى المصعد، وفتحت باب الشقة ودخل إسماعيل غرفة المكتب، وأنا وراءه، ووضع التلفزيون على الأرض المكسوة بالموكيت الرمادي الفاتح في مواجهة الأريكة، ونظر إلي باسما وقال: ها قد أصبح عندك تلفزيون. وأخبرني أن سكان العمارة التي أسكن فيها عندما يشترون قطعة أثاث جديدة، يأخذون القديمة ويضعونها على الرصيف لتحملها عربة النفايات صباح كل يوم، ومن حق المحتاج الحصول على حاجته مما يتكوم على الرصيف المواجه للعمارة.

وذهبنا إلى الجامعة، بعد أن مررنا بالمكتبة وتعلمت إجراءات الاستعارة، وعرفت الغرفة الصغيرة التي أصبحت امتلك مفتاحها، وزادت دهشتي عندما عرفت أن المكتبة تغلق أبوابها في التاسعة مساء، وأنه مباح لي أن أحمل ما شئت من كتب على سبيل الاستعارة، وأن المكتبة يمكن أن تحضر لي أي كتاب أحتاجه إذا لم يكن فيها عن طريق الاستعارة بين المكتبات Interlibrary Loan وأن هناك مركزا لتصوير الرسائل الجامعية في مدينة ميتشجن يمكن الحصول على نسخة مصورة لأية رسالة أريدها عن طريق خدمات المكتبة التي تعمل فيها ماكينات التصوير بالمجان للأساتذة الزائرين والمقيمين. وتركت المكتبة إلى ما يواجهها، حيث تباع الكتب الجامعية والمراجع التي يحتاج إليها الطلاب والأساتذة. وبعد أن زرنا المكتبة، واشتريت بعض الكتب التي حلمت بشرائها، ذهبنا إلى البنك القريب، وفتحت حسابا، وعرفت للمرة الأولى في حياتي الفيزا كارد الخاص بالبنك، والمنافذ التي يمكن أن أحصل منها على ما أريد.

وعدنا إلى القسم، وإلى مكتبي، حيث أطلعني إسماعيل على الكتاب المقرر على الطلاب الذين يدرسون العربية باعتبارها لغة أجنبية، وعرفت أني سأقوم بتدريس القسم الثاني منه، لأن الطلاب قد درسوا القسم الأول مع داستن كاول الذي وجدت في مكتبته لحسن الحظ كتابا قديما عن النحو العربي Arabic Grammer كتبه المستشرق القديم رايت،

فأخذته مع الكتاب المقرر لأبدأ الاستعداد للتدريس، وأتعلم مصطلحات النحو العربي باللغة الإنجليزية، وحمدت الله أن هذه هي مهمتي في الفصل الأول. أما الفصل الثاني فسندخل في باب تدريس الأدب العربي باللغة الإنجليزية، ووجدت في المكتبة ترجمات لأيام طه حسين وكاتب ياسين (نجمة) وعددا آخر من الأعمال المترجمة. وعرفت الأيام التي سأقوم بالتدريس فيها، والقاعة التي سوف ألتقي فيها بالطلاب. وكان إسماعيل شهما، فدخل معي المحاضرة الأولى، وجلس إلى جانب الطلاب، وابتدأت حياتي في الجامعة تأخذ في الدوران على جبهتين: الجبهة الأولى هي تدريس قواعد اللغة العربية بوصفها لغة أجنبية، والجبهة الثانية هي تحسين لغتي الإنجليزية، والاستفادة من دروس الكتابة التي كانت بالمجان لكوني أستاذا زائرا.

وكان العمل في الجبهتين بالغ العسر في الفصل الدراسي الأول، فقد كان علي أن أجلس إلى مكتبي حتى الصباح في أكثر الأيام، أو حتى وقت متأخر في أفضل الأحوال، أقرأ كتاب رابت عن النحو العربي وأحفظ مصطلحاته بالإنجليزية، فإذا فرغت من تحضير الدرس الذي سوف ألقيه على الطلاب بإنجليزيتي المتواضعة، انتقلت إلى القراءة فيما وقع بين يدي من كتب النقد الأدبي، وأختم بمذاكرة وإعداد واجب الكتابة الإنجليزية التي كنت أحضر دروسها، وظللت على هذا الحال المرهق طوال الفصل الدراسي الأول، إلى أن

تحسنت لغتي الإنجليزية، فأخذ العمل طابعا أكثر بهجة، لكن ليس أقل إرهاقا.

وتعلو البسمة وجهي وأنا أتذكر الأخطاء البشعة في النطق التي كنت أرى رد فعلها على طلابي، لكن تهذيبهم كان يمنعهم من الضحك. وكان الأقرب منهم إلي ينبهني في رقة، لكن لم يخل الأمر من مآزق طريفة. أذكر أنني كنت أعلّم الطلاب يوما أسماء الخضروات بالعربية وما يقابلها بالإنجليزية، وجاء الدور على الباذنجان وبدل أن أقول Eggplant نطقتها Egg Planet فجعلت الكلمة بيضة الكوكب. وقد قضت ماري إحدى تلميذاتي هذا الخطأ على جدتها في المزرعة الخاصة بهم، وأصرّت الجدة على أن تدعوني الحفيدة إلى زيارتهم في عطلة نهاية الأسبوع، وظلت ماري تلح إلى أن قبلت الدعوة، واحتفت بي الجدة الطيبة، وأخذتني إلى حقل الخضروات، وهي تأمرني بأن أردد وراءها أسماء الخضروات الموجودة عندهم. وكان جزاء رضاها عني غذاء جميلا لا ينسى، جمعني بالأسرة كلها التي قبلتني لكي أكون أحد ضيوفها المحتفى بهم.

وكان هذا الخطأ حسن النتيجة، لكني أذكر أنني مرة كنت في زيارة مدينة واشنطون العاصمة، ذهبت لكي أشاهد مقبرة جيفرسون الرائعة، ومقبرة (لنكولن) كما نكتبه بالعربية، وعندما ضللت الطريق سألت أحد الأمريكيين، وكان عجوزا يمر بهذه المزارات مثلي، فسألته عن مزار لنكولن أو Lincoln Memorial ونطقتها

بحرف اللام (L) كما هي في القوس. ونظر إلي الرجل شذرا، وهو يسألني ماذا تقصد؟ فقلت Abraham Lincoln فابتسم الرجل ساخرا، وصحح النطق فحرف الـ (L) صامت لا ينطق صوتيا، فيصبح (لينكن) وليس (لينكولن) كما كنت أنطق. وقد قررت بيني ونفسي أن أسأل عن ما أسمعه ولا أعرفه دون خجل. لكن بعد موقفين سخيفين، لا أجرؤ على الكلام عنهما، كففت عن هذه العادة، وكنت أقوم بتسجيل صوت الكلمات في ذاكرتي إلى أن أبحث عنها بالقاموس.

وأذكر بالعرفان مساعدات نانسي وبيف زوجة إسماعيل وسوزان أول صديقة عرفتها، وكانت في الدراسات العليا، وطلبت من كل واحدة منهن أن تسجل على شريط كاسيت فصلا من كتاب أو رواية، مع تقديم الأصل والتسجيل. وكنت أجلس بعد المذاكرة وتحضير الدروس مسترخيا، أسمع التسجيل وأطالع بعيني الأصل. وأعتقد أن هذه الحيلة أفادت في تحسين نطقي وأكمل المهمة جهاز التلفزيون والاستماع إلى المحاضرات في الجامعة مع مشاهدة الأفلام التي كانت تعرض في الجامعة، وذلك ضمن أنشطة اتحاد الطلاب، وأذكر أن صديقتي سوزان قالت لي: ستتأكد من تحسن إنجليزيتك عندما تحلم باللغة الإنجليزية.

وقد حدث ذلك في الفصل الثاني، فشعرت بسعادة غامرة، وكانت إنجليزتي قد أصبحت أفضل بكثير، وكف تلاميذي الشياطين عن الضحك من وراء ظهري، وكانوا

شياطين فعلا في التعامل معي، فأذكر أنني كنت أذهب إليهم بشكل رسمي: الحلة كاملة، والقميص معه رابطة عنق تناسب لون الحلة، كما كنت أفعل تقليدا لأساتذتي في جامعة القاهرة، وكنت أظنني بالمظهر اللائق أمام هؤلاء الطلاب. ولكن پات سكرتيرة القسم فاجأتني ذات يوم بأنه ليس من الضروري أن أدخل إلى الطلاب بهذا الشكل الرسمي الكامل، وأنه من الأفضل التحرر مما كنت عليه، وأدخل على الطلاب بملابس عادية Casual.

وعندما ألححت عليها في سبب ما تقترحه أجابت خجلى إن الطلاب يرونني رجعيا متخشبا، فقررت أن أكون كما يريدون وأكف عن ارتداء الملابس المتخشبة، وأكون مثل هؤلاء الطلاب، وساعدني قدوم الشتاء وتساقط الثلوج، فارتديت الملابس التحتية المعدة لذلك، وفوقها الچاكيت المبطن الذي يحتضن القميص الصوفي، وأدب على الثلج في تؤدة حتى لا أنزلق، وأصبحت (كاچوال) كما أراد الطلاب الذين سرعان ما أحبونني وأحببتهم، وكان منهم أصدقاء حميمون يزورنني في سكني، وأذهب معهم إلى حفلاتهم. وكان منهم مايكل الذي كان يمتلك سيارة (Truck) أطلقت عليها اسم الدبابة. كنا نذهب فيها في نهاية كل أسبوع، إذا تيسر الحال، إلى شيكاجو التي كنا نصلها بعد رحلة ثلاث ساعات بالدبابة.

مفارقة الرحلة إلى أمريكا

كان السفر إلى الولايات المتحدة سنة 1977 أحد الأحداث المهمة في حياتي. وهو حدث ارتبط بمفارقة دالة، فقد كنت مرشحا -بواسطة أحد كبار القوم الذين أحسنوا الظن بي- لكي أعمل ملحقا ثقافيا في سفارتنا في طهران- إيران. وقابلت وزير التعليم في ذلك الوقت، مصطفى كمال حلمي، عليه رحمة الله، في صيف 1977، إن لم تخني الذاكرة، واحتفى بي الرجل، وظل يحدثني عن أهمية السفر إلى إيران التي كانت العلاقات بينها ومصر في طريقها إلى التصاعد، في مدى التقارب المتزايد بين شاه إيران والسادات. وكنت على وشك التسرع بالقبول، لكني طلبت من الوزير أن يمهلني بعض الوقت لتدبر أموري، خصوصا أنني كنت العائل الوحيد لوالدتي، بعد وفاة أبي، ولم يكن لأمي سواي في الحياة.

ولذلك كان لابد أن أفكر فيها، أو أتعلل بها، لا أدري. وقد فوجئ وزير التعليم بما رآه محاولة لتأجيل اتخاذ القرار، والتردد إزاء فرصة يتلهف مئات غيري على اقتناصها. ويبدو أنني لم أكن في أعماقي حريصا على المضي في الطريق الذي قد يبعدني عن المشروع العلمي الذي انطويت عليه، والذي أصبح تحقيقه هدف حياتي على نحو معلن، أو غير معلن، خصوصا أنني بدأت أسهم بمقالاتي في الحياة الثقافية، وألقى بعضا من حسن الظن بما كنت أكتب في ذلك الزمان البعيد.

وربما كنت حريصا على أن أتباعد عن أي عمل يربطني سياسيا بالتوجهات الساداتية التي كنت نافرا منها، وأهمها حرص السادات على التخلص من الإنجازات الناصرية، واستبدال علاقة التحالف الجديد بالولايات المتحدة بعلاقة التحالف القديم بالكتلة الاشتراكية، وعلى رأسها الاتحاد السوفيتي. ولم يكن غريبا، في سياق هذه التوجهات، أن يقوم السادات بإلغاء معاهدة الصداقة المصرية- السوفييتية في مارس 1976، قبل أشهر معدودة من الانفجار الذي شهدته مصر، في يناير 1977، والذي أطلق عليه السادات «انتفاضة الحرامية»، بينما أطلقت عليه المعارضة التي كنت متعاطفا معها اسم «ثورة الخبز» التي حدثت بسبب رفع أسعار المواد الغذائية في مصر، فجأة، وهو القرار الذي فجّر مخزون الغضب الجماهيري بسبب سوء الأحوال الاقتصادية، والتحول عن طريق الأحلام القومية التي ارتبطت بشعارات: الحرية والوحدة والاشتراكية.

ولذلك ترددت في قبول السفر إلى إيران، وتحججت بأمي التي لم يكن لها سواي، كي أعطي نفسي فرصة دراسة الأمر وتقليبه على جوانبه، حالما يبعث الله مخرجا أفضل وسفرا أجمل. وقد تحقق الحلم بمصادفة بهيجة، فقد كان صديق عمري الدكتور أحمد شمس الدين الحجاجي يعمل في الولايات المتحدة، أستاذا في جامعة «نورث كارولينا». وكان يتركها في فترة الصيف

ليعمل أستاذا في «الكورسات» الصيفية التي تقيمها الجامعات الأمريكية الأخرى، ومنها جامعة وسكنسن -ماديسون التي كان يذهب إليها لتدريس «الكورس» الصيفي، وهناك أقام علاقة طيبة بأعضاء هيئة التدريس، خصوصا الدكتور داستن كاول الذي كان يتولى تدريس اللغة والأدب العربي في الجامعة. وحدث أن حصل داستن كاول على منحة دراسية لمدة عام، وكان على الجامعة أن تُعيّن بديلا له، أستاذا زائرا، في فترة غيابه.

وانتهز أحمد شمس الفرصة وعرض على داستن أن أحل محله، وقدّم له بعض ما كنت قد نشرت من إنتاج علمي، ابتداء من كتابي عن «الصورة الفنية في التراث البلاغي والنقدي» الذي نشرته سنة 1974، وانتهاء بالمقالات والدراسات التي كنت أهديها له عندما كان يزور القاهرة، فقد كانت صلتي به، ولا تزال، صلة حميمة لا تخلو من علاقة الأخ الكبير بالأخ الصغير الذي هو أنا. وقام أحمد بكتابة طلب العمل في الجامعة دون أن أعرف، وألحق به نماذج من إنتاجي العلمي التي يبدو أنها لقيت استحسان اللجنة المشكلة لهذا الغرض، وكانت النتيجة أن أرسلت لي جامعة وسكنسن دعوة رسمية للعمل أستاذا مساعدا (زائرا) للأدب العربي، عن طريق ما كان يسمى «الكابل» في ذلك الزمان الذي لم يكن يعرف الفاكس أو الـ E-Mail.

وكانت دعوة جامعة وسكنسن حلا سعيدا حاسما لترددي في اتخاذ قرار قبول السفر إلى إيران للعمل ملحقا ثقافيا لأربع سنوات، فقد قلت لنفسي: عام في جامعة أمريكية، أعرف فيه مستجدات النقد الأدبي الحديث والمعاصر أفضل عشرات المرات من العمل الدبلوماسي في إيران، وهو عمل ما كان يمكن أن يضيف أكاديميا إلى تكويني، فضلا عن ما كان يمكن أن يورطني فيه سياسيا. ولذلك، ذهبت في الموعد الذي حدده لي وزير التعليم لأبلغه بقراري، وضدِم الرجل عندما أخبرته بقبول دعوة جامعة وسكنسن-ماديسون، وتفضيلي الطريق الأكاديمي على غيره. وكنت أرى في نظرات عينيه ما يبدو استهجانا أو استغرابا لرفضي فرصة ذهبية لسنوات أربع، وقبولي العمل سنة واحدة في جامعة أمريكية لم تكن من الجامعات الشهيرة، أو ما يسمى بجامعات القمة، أمثال هارڤارد وييل والـ M.I. T. وبرنستون وغيرها. وتركني الرجل أخرج من مكتبه مشيعا بنظرات الاستنكار بالقطع.

وكنت قد بدأت على الفور في اتخاذ إجراءات السفر، خصوصا بعد أن أبرقت للجامعة بموافقتي على الدعوة. وبقيت مشكلة مهمة، تحتاج إلى حل، وهي ثمن التذكرة إلى الولايات المتحدة التي كان من شروط التعاقد أن أدفعها من جيبي. وكانت الرحلة بالطيران إلى الولايات المتحدة، ولا تزال، باهظة النفقات، لا يقدر عليها أمثالي. ولكن الصديق أحمد مرسي ذلّل هذه العقبة بأن ذهب

إلى رئيس جامعة القاهرة التي كنت مدرسا فيها، وأقنعه أنني ذاهب في مهمة دراسية، فأصدر الرجل قراره بأن تتحمل جامعة القاهرة نفقات الرحلة، وذلك بسبب محبته لأحمد مرسي بالدرجة الأولى.

ولم أهدأ إلا بعد أن أكملت الاستعدادات للسفر. وكان منها الفراغ من كتابي «مفهوم الشعر» الذي كنت أريد التقدم به، مع غيره، للترقية إلى درجة أستاذ مساعد التي اقترب موعد التقدم إليها. ولم يكن هناك مفر من وصل الليل بالنهار إلى أن أنهيت الفصلين الأخيرين من الكتاب، وتركته في رعاية زوجي التي أشرفت على طباعته مع بعض الأصدقاء. وبعد أن اطمأننت إلى أن إنتاج الترقية مكتمل، وجاهز عندما يحين موعد التقديم القريب، توكلت على الله، وركبت الطائرة في الرحلة الطويلة إلى الولايات المتحدة، محققا حلمي القديم بالسفر إلى إحدى الجامعات الأجنبية والتعلم منها.

واندمجت شيئا فشيئا في الحياة الجامعية الجديدة. وفي مجتمع ماديسون، وهي المدينة الثانية الكبرى في ولاية وسكنسن، بعد ملووكي العاصمة. ويرجع تاريخ إنشائها إلى سنة 1836، وأصبحت ولاية سنة 1848 ، ولا يزال يطلق عليها اسم مدينة البحيرات الأربع التي تحيط بها المدينة، وهي: ميندوتا، ومولونا، وكيجنوسا، وإبيسا، وكلها أسماء هندية الأصل، مثل اسم وسكنسن نفسه الذي هو الصيغة الإنجليزية المأخوذة عن

الفرنسية المأخوذة، بدورها عن التسمية التي أطلقها الهنود الحمر على المنطقة. وهي تبعد حوالي 77 ميلا من ملووكي.

وكان تعداد سكانها، يوم زرتها، أكثر من عشرة آلاف نسمة، لكنها ظلت تواصل نموها وزيادة عدد سكانها- إلى أن وصلت إلى أكثر من مائتي ألف نسمة في تعداد سنة 2000، فاختفت المدينة الهادئة التي سعدت بالحياة فيها ما بين أغسطس1977 ومطلع سبتمبر 1978. وكانت الاتجاهات الراديكالية ذات تاريخ ملموس في المدينة، شعرت بآثارها بعد معرفتي لها، خصوصا الإضرابات العديدة التي احتج فيها الطلاب على الشركات المستغلة للعمال والملوثة للبيئة، سنة 1967، مثل شركة داو للكيميائيات، وأسفر الاحتجاج عن جرحى عديدين من الطلاب في الاشتباكات العنيفة. وتصاعد الاحتجاج، سنة 1969، مصحوبا بالإضراب للدفاع عن حقوق الطلاب في حرية التعبير، وضرورة إسهامهم في التغيير، فضلا عن الحقوق المدنية العادلة للطلاب الأمريكان الأفارقة وأعضاء هيئة التدريس، واستمرت المظاهرات التي واجهها الأمن بعنف سنة 1970.

وكان ذلك ضمن سياق الموجة العالمية من ثورة الطلاب التي اقترنت بصعود تأثيرهم، وحركاتهم الثورية التي قام علماء الاجتماع من أمثال هربرت ماركيوز وآلان تورين بإلقاء الضوء عليها، مؤكدين اقترانها

بالاحتجاج الذي أسقط حكومة ديجول في فرنسا، وأدى إلى تغيير نظام التعليم، وإنشاء جامعة فنسان المتحررة، واقترن هذا أيضا بمواصلة الاحتجاج العنيف على استمرار الحرب الأمريكية في فيتنام، إلى أن اضطرت الحكومة الأمريكية إلى التخلي عن هذه الحرب الاستعمارية. وطبيعي -والأمر كذلك- أن يتصدر الحياة السياسية في ولاية وسكنسن النشطاء الليبراليون وذوو الأيديولوچيات التقدمية، وأن يكون تأثيرهم ملحوظا في الجامعة التي تميزت بعدد طلابها الكبير وارتفاع مستواها العلمي بالقياس إلى غيرها من الجامعات الحكومية.

وظلت ماديسون تتميز بهدوئها وحيويتها في مدى إدراكي لها في تلك السنوات البعيدة، ومدى حبي للتجول في شوارعها، واستمتاعي بحدائقها، وقت الفراغ، خصوصا في الأمسيات الصيفية التي تزدان بأوركسترا المدينة الذي كان يقدم موسيقاه مجانا للسكان. وكانت هذه الأمسيات تمثل الجوانب الفنية التي تضيف إليها أوبرا المدينة ومسرحها، ومتحفها للفن المعاصر، فضلا عن دور السينما التي رأيت فيها الأفلام من كل نوع بلا رقابة أو حساسية أو منع، للمرة الأولى، وذلك في مناخ من الانفتاح الكامل والحرية التي لا حدود لها سياسيا، وثقافيا، واجتماعيا. يضاف إلى ذلك المكتبات المتعددة لبيع الكتب في المدينة فضلا عن مكتبة الجامعة الضخمة. وقد أسعدني -في المكتبات- ما

أسعدني في الفنون من طلاقة حرية التعبير والانفتاح على كل الاتجاهات، ابتداء من الليبرالية وليس انتهاء بالماركسية بكل أطيافها.

هكذا، وجدت نفسي -أنا الأقدم من مجتمع مغلق نسبيا- أعيش في مجتمع مفتوح، لا يعرف الانغلاق في أي مجال أو اتجاه. مباهج المعرفة والفنون متاحة فيه بلا قيد أو شرط، أو تحيز، أو رقابة أو وصاية. ولم يكن عليّ سوى أن أنهل قدر استطاعتي مماهو مبذول، متاح، ابتداء من السياسة والفكر، وليس انتهاء بمناهج الدرس الأدبي. ولم يدهشني -والأمر كذلك- أن أجد تمثيلا للحزب الشيوعي الأمريكي (Cpusa) في الولايات المتحدة، وهو واحد من الجماعات الماركسية اللينينية العديدة في هذه البلاد. وقد ظل أكثر الجماعات الشيوعية وأوسعها نفوذا، خلال النصف الأول من القرن العشرين، ولعب دورا مؤثرا في المرحلة الأولى من صعود الحركة العمالية، ونَظَّم وقاد الاتحادات الصناعية الرئيسية، ودافع عن حقوق الأمريكيين الأفارقة خلال هذه الحقبة.

ولكن قوته السياسية تم قمعها والقضاء عليها بالقوة خلال صعود المكارثية، ثم خلال حقبة الحرب الباردة. غير أنه عاود وجوده بعد ذلك، ولا يزال محتفظا بمقره الرئيسي في مدينة نيويورك، يصدر صحيفته الأسبوعية «عالم الشعب» ومجلته الشهرية «شؤون سياسية». ويجاوز أعضاؤه الآلاف، وينموا نموا بطيئا حقا، لكن في

اضطراد، مع زوال معوقات التعصب في ذلك الوقت، وقبل أن تأتي الحقبة الريجانية (نسبة إلى الرئيس ريجان) بنزعاتها المحافظة التي لم تكف عن التصاعد القمعي إلى اليوم. وقد نفر الحزب الشيوعي الأمريكي، في نهاية الثمانينيات، من زعامة ميخائيل جورباتشوف، وانتقد سياسة البرسترويكا (الإصلاحية) التي تبنّاها، غير عابئ بما ترتب على ذلك من قطع صلته بالاتحاد السوفيتي الذي أنكر موقف الحزب سنة 1989. ولم أكتشف وجود حزب شيوعي في الولايات المتحدة فقط، بل وجود غيره من الأحزاب.

ولم يكن وجود الحزب الشيوعي وحده ما لفت نظري إلى مدى الحرية السياسية في الولايات، فقد سمعت عن وجود حزب أمريكي نازي، وذلك في البلد الذي مات الآلاف المؤلفة من أبنائه في الحرب ضد النازية. وقد عرفت، مؤخرا، وجود ما يسمى «المجموعات النازية الجديدة في الولايات المتحدة»، وذلك بسبب ما ينص عليه الدستور الأمريكي من ضمان حرية التعبير التي تسمح للتنظيمات السياسية بأعظم مدى من التعبير، حتى لو كان التعبير عن الأيديولوچيات النازية أو العرقية أو المعادية للسامية، وكلها أيديولوچيات تأخذ صف هتلر، مؤمنة بمعتقداته وأفعاله إيمانها بالرايخ الثالث. ولا يتم القبض على أحد من هذه المجموعات إلا في حالة ممارسة العنف أو الكراهية التي تنعكس في سلوك يجاوز معتقد صاحبه إلى إيذاء الآخرين. ولذلك

يوجد إلى جانب هذه المجموعات أخرى غيرها، تقوم على التمييز العرقي، وتفضيل الجنس الآري، جنبا إلى جنب «الفاشية الجديدة». وهي تسمية موازية لتيار بدأ في العشرينيات، وانتشر في أوروبا، خلال فترة ما بين الحربين العظميين.

وقد تعوّدت أن أذهب مع إسماعيل وزوجه بيف إلى ملووكي كبرى مدن الولاية وعاصمتها، بين الحين والحين، وكان يحدث ذلك لكما وجدنا وقتا من الفراغ، فننطلق للنزهة، للتمتع بجمال الحقول المحيطة بماديسون، أو الغداء في أحد المطاعم الهادئة البعيدة عن المدينة، أو الذهاب إلى ملووكي لزيارة متاحفها وأهم معالمها. وكانت ملووكي، ولا تزال فيما أظن، ضمن أكبر المدن الأمريكية من حيث الكثافة السكانية؛ تأتي بعد نيويورك، ولوس أنجلوس، وشيكاغو، وهيوستن، ودالاس، وسان فرانسيسكو، .. وغيرها. وتقع على الشاطئ الجنوبي الغربي لبحيرة ميشجن، وعلى بعد حوالي تسعين ميلا من شمالي مدينة شيكاغو، وذلك في نقطة التقاء تصل ما بين ثلاثة أنهار: مينيمون، وكينكين، وملووكي. وكلها تسميات ترجع إلى الهنود الحمر- السكان الأصليين لأمريكا الذين لا تزال نسبة قليلة من بقاياهم تعيش في المدينة التي تتميز بالتنوع العرقي بين سكانها الذين يرجعون إلى هجرات جاءت إليها من ألمانيا، وأيرلندا، وإنجلترا، وإيطاليا، وفرنسا، وإسبانيا، وأمريكا اللاتينية، فكانت النتيجة هي المزيج

المتنوع عرقيا الذي يضم العديد من الأجناس والأعراق، ابتداء من الأصول الأوروبية، وانتهاء بالمنتسبين إلى السكان الأصليين من الهنود الحمر الذين لا يزال أحفادهم يعيشون في المدينة. وتتنوع المدينة دينيا كما تتنوع عرقيا. ففيها ديانات عديدة، ومذاهب متنوعة من المسيحية التي تضم الكاثوليك واللوثريين والميتوديين (أتباع الحركة الدينية التي قادها -سنة 1729- شارلز وچون ويزلي في أكسفورد، وذلك لإحياء كنيسة إنجلترا) وبعض المسلمين.

وتتوزع المدينة ما بين أغلبية بيضاء،وأقلية سوداء، حوالي ثلث عدد السكان تقريبا، تعتز بحمل صفة الأمريكيين الأفارقة بثقافتها وفنونها المغايرة التي تؤكد أصالتها بطرق عديدة. ولذلك توصف المدينة بأنها كوزموبوليتانية، مثل شيكاغو القريبة منها والأكثر منها عددا وتنوعا، ويبدو أن طابع التنوع البشري للعاصمة ملووكي هو المسؤول عن حضور نزعة راديكالية يسارية فيها، وفي بقية المدن الكبرى للولاية. وهي نزعة كانت، ولا تزال، تُقرن الدفاع عن الحقوق المدنية للسود (الأمريكيين الأفارقة) بالدفاع عن الحقوق العادلة للعمال. وينعكس طابع التنوع البشري في الفنون والاحتفالات وأشكال الاحتفالات، وذلك إلى الدرجة التي جعلت من ملووكي مدينة الاحتفالات الموسيقية الأولى في الولايات المتحدة، حسب موسوعة جينس الشهيرة.

ولا أزال أذكر متعتنا المشتركة -أنا وإسماعيل وزوجه- باحتفالات ملووكي وصخبها، أيام الصيف، وحماسة إسماعيل للفنون الأفروأمريكية، فقد كان سودانيا، أكثر مني قربا إلى إفريقيا السوداء التي لم أكن أعرف عنها الكثير، وأكثر تشجيعا لي على تذوق هذه الفنون، والاقتراب من الثقافة الأفروأمريكية التي كان يقول لي: نحن أولى بالانتساب إليها، مادمنا جئنا من القارة الأصل التي نبعت جذور هذه الفنون منها، لكن بعد زرعها في تربة مغايرة ومناخ مختلف. ولم تكن متعتنا بهذه الفنون تخلو من اللهو، خصوصا عندما نتجول ما بين احتفالات ملووكي التي كان يطلق عليها مدينة البيرة والشراب، لأن فيها أعلى نسبة من الحانات بالقياس إلى عدد السكان، ويرجع معنى اسمها -في أصله الهندي الأحمر- إلى دلالات تجمع ما بين «الأرض الطيبة» و «التجمع الطيب» و «البلاد الجميلة المبهجة».

ولم تكن زياراتنا إلى ملووكي تخلو، بالطبع، من زيارة جامعاتها العديدة، أو متاحفها، أو مسارحها، أو الاطلاع على جرائدها، أو مشاهدة تلفزيونها المحلي، أو الاستماع في الطريق إليها إلى محطات إذاعاتها المحلية، فكنا نشعر بالانتقال من هدوء ماديسون وقلة عدد سكانها إلى الصخب النسبي لعاصمة الولاية التي كانت، بالتأكيد، أقل صخبا من مدينة شيكاغو القريبة

منها، والتي تعوّدتُ الذهاب إليها مع اثنين أو ثلاثة من طلابي الذين صاروا أصدقاء لي.

وما أسرع ما كانت أوقات الفراغ القليلة تنتهي، فنعود من ملووكي إلى ماديسون في السيارة التي كانت تقودها زوجة إسماعيل، بيف، التي كانت لا تكف عن شرح كل شيء لي كأنها أستاذ حنون، حريص على تعليم تلميذه كل ما يعرفه، الأمر الذي كان يضيف إلى بهجة طريق العودة، وسط الحقول الخضراء المترامية على مدى البصر، فقد كانت وسكنسن، ولا تزال، إحدى الولايات الزراعية التي تغلب عليها حياة الريف (الأمريكي طبعا). ويتميز أهلها بالبساطة، ومدينتها ماديسون بالهدوء والأمان.

وكانت تلك ميزة كبيرة، فلم تكن ماديسون عامرة بأنواع التسلية البريئة أو غير البريئة، مثل غيرها من المدن الكبرى الصاخبة، ابتداء من ملووكي وليس انتهاء بشيكاغو، فلم يكن في ماديسون سوى الجامعة التي تتركز حولها المدينة الهادئة، الأمر الذي كان يبعث على التفرغ للعلم، وعدم الانشغال عنه بمغريات العقول أو الأجساد. وكانت ماديسون، ولا تزال، واقعة في منطقة البحيرات الكبرى في «الميدوست» (وسط الغرب) الأمريكي، أما مباني الجامعة فكانت موزعة على تلال محاطة ببحيرات كبيرة، هي امتداد للبحيرة الكبرى التي تطل عليها مدينة شيكاغو التي كانت تبعد عن ماديسون مسافة ثلاث ساعات بالسيارة.

وكانت الرحلة من المنزل إلى الجامعة ، ومنها إلى المنزل متعة للعين والحواس: شوارع هادئة، تحيط بالجامعة، وطريق مستقيم يقودني من المنزل إلى مدخل الحرم الجامعي مباشرة، وانقسمت حياتي ما بين مكتبي وسكني إلى قسمين غير متكافئين. القسم الأصغر نسبيا، هو قسم الأستاذ الذي يقوم بتدريس لغته ونصوصها وقواعدها، والقسم الأكبر هو قسم الطالب الذي أخذ يحصّل كل ما يحتاج إليه من معارف وآفاق جديدة. وظل كلا القسمين يحتاج إلى جهد، فلم أكن أعرف معرفة المتمكن المقابلات الإنجليزية لمصطلحات النحو والصرف العربيين، فضلا عن قواعد النحو الإنجليزي التي كان لابد من الاستعانة بها على سبيل المقارنة التوضيحية. وقد فوجئت بضعف الطلاب في هذا الجانب، على نحو ما كان عليه حال طلابنا الذين يجهلون قواعد لغتهم. واستعنت بالكتب التي وجدتها في المكتبة على تذليل هذه العقبة. وكان أغلبها كتب المستشرقين الذي تخصصوا في قواعد اللغة العربية وصرفها، وأهمها كتاب المستشرق رايت عن «النحو العربي».

يُضاف إلى ذلك الكتاب المقرر الذي اشترك في تأليفه عدد من أساتذة جامعة ميشجن، منهم بيتر عبود وغيره، وأصبح الكتاب المعتمد لتدريس العربية للمبتدئين في الكثير من الجامعات الأمريكية، سواء بأجزائه الثلاثة المتدرجة في المستويات اللغوية، أو بالشرائط الصوتية

الملحقة به للتدريب عليها -في معمل اللغات، خصوصا في المرحلة الأولى التي تقترن بتعلم كيفية نطق الحروف والمقاطع التي لم يتعود الطالب الأجنبي، أو الأمريكي، على النطق بها.

وكان الكتاب المعتمد يضم، في مجلده الأخير، عددا من النصوص الأدبية السهلة في بناء جملها وتراكيبها. ولا تزال تعلق في ذهني قصة قصيرة جدا بعنوان: «سوزان وعلي» للطيب صالح الذي كان كتابه «مواسم الهجرة إلى الشمال» قد ترجم إلى اللغة الإنجليزية. وكانت هناك نصوص أخرى من إحسان عبد القدوس وأشباهه من الكُتّاب الذين يتميزون بسهولة أسلوبهم وبساطته، وأحسبني تعلمت من تدريس اللغة العربية للأجانب أهمية اختيار نصوص القراءة، والتمييز بين الأسهل للطالب الأجنبي والأصعب، خصوصا من منظور الأسلوب والتراكيب والمفردات. وكانت هذه الخبرة بمثابة عدسة مضافة إلى عدسات قراءاتي السابقة، انتبهت معها إلى ما لم أكن انتبه إليه من قبل، فأعدت قواعد التراتب الأدبي في ذاكرتي، ورفعت من لغة أمثال يوسف إدريس ببساطتها وبلاغتها العامية المفصَّحة، بالقياس إلى لغة أمثال طه حسين المليئة بالمترادفات والفواصل الإيقاعية والموازيات البلاغية. وقس على ذلك كتابات العقاد وأمثاله التي دفعتني قراءة النصوص مع طلاب أجانب عنها إلى إعادة النظر في آليات قراءتها، وتراتبات قيمتها.

هذا عن القسم الخاص بتدريس اللغة العربية للأمريكيين الأجانب عنها، وهو القسم الذي أفدت منه معرفة النحو المقارن وإحكام أجرومية اللغة الإنجليزية وقواعدها النحوية التي كنت أستعين بها لإفهام الطلاب أجرومية اللغة العربية. وكنت إذا وجدث ما يعسر عليّ شرحه أو تفسيره أو الإجابة عن سؤال خاص به، وما أكثر ما كان يحدث ذلك، أكرر جملة فردنان دي سوسير (1857 - 1913) عالم اللغة السويسري الذي انطلقت من نموذجه المنهجي الحركة البنيوية في مجالاتها المختلفة. وهي الجملة التي تتحدث عن اعتباطية اللغة التي لا يمكن عقلنتها أو تبريرها المنطقي في كل الأحوال. وما أكثر الطرائف التي كانت تحدث لي في البحث عن المترادفات الإنجليزية للكلمات العربية ونطقها الإنجليزي الذي كان يفلت مني أحيانا.

أما القسم الثاني الخاص بالدارس الذي انقلب إلى طالب علم متحمس، متلهف على استكمال ما يجهله في الحقول المعرفية التي تبدأ من تخصصه، وتعود إليه في مدى تضافر الاختصاصات أو المجالات البينية، فكان أكثر قلقا وتوترا من المدرس، حريصا على أن يحصّل في وقت قصير ما يحصّله غيره، عادة، في وقت طويل، فلم أكن أملك رفاهية دارسي الدكتوراه الذين يطمئنون إلى تعدد السنوات، فالمتاح لي كان أشهرا معدودة في النهاية، ونهاياتها تلوح منذ بدايتها، فتصلصل عربة الزمن المجنحة بأجراسها في اندفاعها السريع إلى

الأمام. ولذلك كنت أصل الليل بالنهار لمعرفة ودراسة ما كنت أحلم بتحصيله وتطوير أفقه. وكان كلا القسمين يحتاج جهدا كبيرا وتفرغا تاما، لكن من الذي يهتم بصعوبة الجهد في مرحلة الشباب، مع وجود الدافع المتلهب لتأكيد حضور الذات وإصرارها على النجاح؟!

وأخذت أبدأ يومي مبكرا، فقد كانت المحاضرات تبدأ في الثامنة صباحا، وذلك بعد عمل متواصل في الليل، أراجع في جزء منه ما أقوم بتدريسه في الصباح، وأدرس الكتب الجديدة في النقد الأدبي، الجزء الباقي، فلا يتبقى من الليل لي سوى سويعات قليلة للنوم. ولكني كنت أنهض نشطا، ممتلئا بالحيوية والحماسة، وأندفع في طريقي، سيرا على الأقدام، صوب الحرم الجامعي الذي كان يبدأ بميدان فسيح مستطيل تقع على جهته اليمنى مكتبة الجامعة التي كانت أول مكان زرته بالطبع، وعلى الجهة اليسرى مكتبة الجامعة لبيع الكتب (Book Store) المقررة على الطلاب، أو التي تقدم لهم وللأساتذة المتاح المتجدد في فروع المعرفة المختلفة، وتحتل أحد الأدوار، بين بقية الأدوار الثلاثة التي كانت مخصصة للملابس أو الأدوات الكتابية أو الهدايا أو الأدوات الكهربائية الصغيرة. وبعد انتهاء الميدان المستطيل، يبدأ التل الممتد الذي يقود إلى المبنى الذي يقع فيه القسم الذي عملت به طوال العام، وهو قسم اللغات والآداب الإفريقية.

وسرعان ما تعرفت إلى زملائي في قسم اللغات والآداب الإفريقية، ابتداء من رئيس القسم هارولد شويب الذي كان شاعرا من الأمريكان الأفارقة، وكان يدعوني إلى بعض جلسات مجموعة قراءة الشعر التي كان عضوا مبرزا فيها. وكان هناك إدريس ماكوارد، أظرف الزملاء وأكثرهم أريحية، وبفضله عرفت الحياة الاجتماعية التي تصل بين الأساتذة والطلاب في الحفلات التي كان مغرما بالإشراف عليها أو الدعوة إليها في منزله. ولم يفتني بالطبع أن بعض الأساتذة كانوا من الأفارقة الذين استقروا، في الجامعة التي تولوا فيها تدريس آدابهم الوطنية، بينما البعض الثاني من الأمريكيين السود الذين كانوا معتزّين بهويتهم ولونهم، وذلك في مجتمع متعدد الأعراق والأصول، شأنه شأن غيره من مجتمعات المدن الأمريكية متغايرة الخواص عرقيا وثقافيا واجتماعيا.

وقد كنت أعرف المزيد عن هذا المجتمع وتعدده الثقافي من الكتب (لم تكن مباهج الإنترنت متاحة أو معروفة في ذلك الوقت) التي كنت اشتريتها في كل مجال واتجاه، سواء في حقل تخصصي الدقيق، أو الحقول المجاورة، المتأثرة به والمؤثرة فيه. وكان الشهر ينتهي، عادة، وقد أنفقت كل ما أملك على شراء الكتب التي كنت أقول في نفسي: إنها إن لم تنفع الآن فسوف تنفع فيما بعد، وقد حدث ذلك كثيرا، في مجالات الفلسفة الإسلامية أو التراث العربي بوجه عام. ولا أزال

احتفظ بترجمة چيمس مونرو وتقديمه لرسالة «التوابع والزوابع» وكتبا عن «الحب عند العرب» أو الطريق الذي سلكه أرسطو إلى ميراثهم. وقد فرحت بكتاب ولفسون الضخم عن فلسفة المتكلمين، فاشتريته، وظللت أحتفظ به إلى أن أهديته إلى زميلي الدكتور مصطفى لبيب الذي فاجأني بترجمته كاملا، فنشرته له في مجلدين ضمن «المشروع القومي للترجمة» الذي كنت أشرف عليه في المجلس الأعلى للثقافة، قبل أن أقوم بإنشاء المركز القومي للترجمة.

وكانت نتيجة التهوس بشراء الكتب في مجالات عديدة، أنني لم أدخر شيئا، ولم يبقَ معي من مرتبي في نهاية العام، قبل سفري، سوى ثمن التذكرة الذي سوف أعود بها إلى القاهرة، وبعض الهدايا البسيطة لأسرتي. ولكن قبل أسابيع قليلة من العودة فوجئت بخطاب من إدارة الضرائب في الولاية، يطالبني بدفع الضرائب التي قدّرتها الإدارة، بناء على معاييرها. ومن عاش في الولايات المتحدة يعرف جدية هذه الإدارة وتنفذها القانوني المباشر الذي يؤدي إلى سجن المتهربين من الضرائب. وعندما فتحت خطاب الضرائب في مكتبي وقعت في حيص بيص كما يقول العرب القدماء، فلم أكن أملك عُشر المبلغ الضخم الذي يطالبونني به (آلاف عديدة من الدولارات). وكنت أعرف خطورة هذا الخطاب، فطلبت رقم التليفون المطبوع على الخطاب للاستعلام، وتحدد لي موعد مع المسؤول بعد عدة أيام.

ولم أنم في هذه الأيام من القلق، والتفكير في إمكان استدانة هذه الآلاف العديدة، لكن مِنْ مَنْ؟ وكيف؟

وفي النهاية، أسلمت أمري إلى الله، وذهبت لمقابلة المسؤول الذي استقبلني ببشاشة، وتركني أشرح له المشكلة التي وضعني فيها حبي للكتب، وظل باسما طوال شرحي له أن حبي للكتب والعلم هو الذي جعلني بلا مدخرات على الإطلاق. وبعد أن فرغت، فاجأني الرجل بأسعد خبر سمعته طوال الاثني عشر شهرا من إقامتي في الولايات المتحدة، وأبلغني بوجود معاهدة بين الحكومة المصرية والولايات المتحدة. وتنص هذه المعاهدة على إلغاء الضرائب عن مواطني كلا البلدين، إذا كانوا في عمل أكاديمي، أو منحة دراسية، وذلك بحد أقصى لا يجاوز سنتين من الإقامة المتصلة. وكدت أرقص من الفرح، فقد أزاحت هذه المعلومة التي لم أكن أعرفها من قبل كل الهموم عن كاهلي، وأكْمَلَتْ فرحتي بثروة الكتب التي لم أبخل عليها بالشراء ولم تُبقِ لي مدخرا من المال، لكنها لا تزال تبقي لي سعادة تشبه فرحة من يمتلك كنزا من نفيس المقتنيات!

في جامعة وسكنسن - ماديسون

كان التنوع البشري -في موازاة التنوع العرقي و الثقافي- أول ما لاحظته، طوال أشهر عملي في جامعة وسكنسن-ماديسون التي نقلتني من حال إلى حال على مستويات عديدة، وفي مجالات متباينة.ولذلك كان عدد الطلاب السود كبيرا، فضلا عن الطلاب العرب وغيرهم من الجنسيات الأخرى. ولكن ما لفت نظري بوجه خاص هم الطلاب السود الذين اقتربت منهم، ودخلت في علاقات حميمة معهم للمرة الأولى، فعرفت عن الثقافة الأفروأمريكية ما لم أكن أعرفه من قبل، واكتشفت أنها عالم شديد الرحابة والتنوع والثراء.

وأظن أن هذه الثقافة كانت تؤكد في ذهني، على نحو غير مباشر،نظريات نقد المركزية الأوروبية الأمريكية ونظريات التبعية، على الأقل من منظورها الخاص الذي ينقض مركزية الثقافة البيضاء وهيمنتها المتعالية، وذلك بما يؤكد الحقوق المدنية للسود من ناحية، ورفض منطق التمييز العنصري من ناحية موازية. ولم يكن من المستغرب -والأمر كذلك- أن يشارك هؤلاء الطلاب أقرانهم البيض، وعلى نحو أكثر فاعلية، في التظاهر ضد التمييز العنصري في جنوب إفريقيا، ومطالبة مجلس أمناء الجامعة بالتوقف عن

استثمار أموال الجامعة، تحت مظلة حكومة روديسيا العنصرية.

ولم يكن ذلك يعني أن كل أساتذة قسم اللغات والآداب الإفريقية الذي أعمل فيه أمريكيون خلص بالجنسية أو الولادة، فقد كان من بينهم أستاذ مرموق من أصل بلچيكي هو يان ڤانسينا الذي تقاربنا وتصادقنا، وذلك بسبب اهتمامه بتعلم اللغة العربية إلى جانب غيرها من اللغات الإفريقية التي كان يتقنها، ووجدت فيه خير دليل إلى الحياة الجامعية الأمريكية، فقد كان أكبر مني سنا، ويعاملني معاملة الأخ الأصغر، ويدعوني إلى منزله الذي تعرفت فيه على زوجه الرائعة، وأصبح هو وزوجه البلچيكية، مع إسماعيل السوداني وزوجه الأمريكية بيڤ، أقرب أصدقائي في مدينة ماديسون.

وأنا مدين لصديقي يان ڤانسينا على وجه الخصوص بالكثير الذي تعلمته منه على مستويات عديدة، ابتداء من الاهتمام بالتقاليد الشفاهية بوصفها مصدرا بالغ الأهمية للتاريخ في المجتمعات التي لم تصل إلى المرحلة الكتابية بعد، مرورا بإثارة اهتمامي بأهمية الاقتراب الحميم من الثقافة الإفريقية الخاصة بالقارة التي لم أكن أعرف شيئا ذا بال عن إبداعها، وليس انتهاء بآداب المائدة والشراب التي تعلمتها في بيته. وكان قد أصدر كتابه «التقاليد الشفاهية» الذي لا يزال مرجعا بالغ الأهمية لدارسي المأثورات الشعبية، وأحسبني

أهديته إلى صديقي أحمد مرسي الذي ترجمه إلى اللغة العربية بعنوان: «المأثورات الشفاهية»- أهم كتاب في زمنه عن التاريخ الإفريقي.

وقد أسعدني بعد سنوات من عودتي إلى مصر أن أجد أليكس هيلي صاحب الكتاب الشهير «جذور» يذكره في كتابه، ويغدو يان إحدى شخصيات المسلسل الشهير الذي تحوّل إليه الكتاب، وهو الذي دلّ حفيد كونتا كينتي على أصله، وحدّد له المنطقة الجغرافية في إفريقيا التي اختطف منها تجار العبيد جذه الأكبر. وكان ذلك عن طريق بعض الكلمات التي ظلت تتوارثها العائلة، معتزة بها اعتزازها بمأثوراتها التي تؤكد هويتها، وتدل على جذورها. وقد شعرت بسعادة غامرة، وأنا أرى، في الحلقات الأخيرة من مسلسل «جذور»، من يقوم بدور صديقي يان ڤانسينا، وتذكرت الأشهر الجميلة التي قضيتها في رعايته وزوجه العزيزة.

وأذكر أن علاقتي بالأساتذة ظلت طيبة وحميمة، ربما بحكم انتمائي وبعضهم إلى القارة نفسها، وربما بحكم تعاطفي مع الأمريكان السود الذين كانوا لا يزالون يعانون من بقايا التمييز العنصري، ذلك على الرغم من قانون الحقوق المدنية الذي تبناه الرئيس چون كيندي، وظل يرعاه إلى أن صدّق عليه الكونجرس الأمريكي، وعلى الرغم مما كان يطلق عليه التمييز الإيجابي (Positive Discrimination). وهو إعطاء الأقليات المضطهدة التميز الذي يرد عليها بعض حقوقها

المسلوبة في المجتمع. وهو المبدأ الذي تلجأ إليه بعض الحكومات العربية عندما تخصص عددا بعينه من كراسي البرلمان -مثلا- للأقليات الدينية (مثل المسيحيين في مصر) والمرأة، لكي تسهم في القضاء على التمييز الضار، أو تخفف من آثاره الخطرة على الأقل.

وطبيعي أن يكون قسم اللغات والآداب الإفريقية مليئا بالطلبة الأمريكيين السود، لا يماثله في ذلك سوى أقسام الثقافة الأفروأمريكية التي كانت قد بدأت صعودها اللافت في الجامعات الأمريكية، تعبيرا عن أهميتها واتساع مداها وتمثيلها لمجموعات كبيرة ضخمة مؤثرة من أصوات الناخبين. وقد أخذت، بدوري، أهتم بها، وشيئا فشيئا، تعلمت أن الثقافة الأفروأمريكية هي جزء يتميز عن الكل الذي تنتسب إليه، وهو الثقافة الأمريكية على وجه العموم، القائمة على مبدأي التنوع الثقافي والبشري في آن.

وقد تركت هذه الثقافة الخاصة بصماتها على الثقافة العامة بإسهاماتها في الآداب، والفنون، والخبرات الزراعية، والطعام، والأزياء، والموسيقى، واللغة، فكانت لها ملامحها اللغوية المائزة في المفردات والتراكيب، داخل الإنجليزية-الأمريكية، ومنحاها الديني الخاص الذي لم يخلُ من حضور الإسلام، رغم أن المسيحية كانت تُستخدم بوصفها أداة أيديولوچية لإخضاع العبيد السود، وجعلهم أسلس قيادا، وهو الأمر الذي دفع السود

إلى إعادة تأويل العقيدة المسيحية، وتحويلها إلى سلاح لتحريرهم، مؤكدين قصة موسى -عليه السلام- الذي رفض الطاغوت، وقاد أتباعه إلى الأرض الموعودة، وكذلك أفكار العهد القديم عن «الرب» العنيف، المحارب الذي يحمي العبيد الأفارقة الذين يعبدونه. وتنامت التأويلات مع حركة المقاومة التي انتهت بتأسيس الكنائس الخاصة، وصعودها إلى درجة أدت إلى تأسيس الكنيسة الإفريقية الميتودية، وتعيين ريتشارد آلان الذي ابتدأ نشاطه الطويل في فيلادلفيا. ولا تزال الكنائس المعمدانية للسود هي التي تستوعب أغلبيتهم، ذلك على الرغم من وجود عدد ضخم لا يزال على ولائه للكنيسة الإنجيلية والبروتستنتية.

ويوازي الاعتقاد في الإسلام الاعتقاد في المسيحية، وذلك بالطريقة نفسها التي تم بها تأويل الإسلام ليغدو سلاحا للمقاومة، ووسيلة للمواجهة، في مدى الحلم بالحقوق المدنية التي تحققت بعد عذاب طويل، وقمع مخيف، ترك آثاره الغائرة التي لا تزال باقية في وعي المقموعين السابقين، رغم تحررهم الظاهري. ولم يكن من الغريب، في هذا السياق، أن تتأسس جماعة أمة الإسلام التي يقودها إليجا محمد، ساعية إلى تأكيد وطنيتها السوداء الممزوجة بالعقيدة، والمعجونة بدماء ضحايا التعصب الديني والعرقي، وذلك في تاريخ موجع، وعلى طريق الآلام الذي جعل «أمة الإسلام» تصل إلى أقصى قوتها خلال الستينيات وأوائل

السبعينيات، وذلك قبل أن تأخذ في التفكك التدريجي بعد اغتيال مالكوم إكس.

وكان الدين هو الوجه الآخر من العلاقات والعادات الاجتماعية في الثقافة الأفروأمريكية، سواء في تعدد جوانبها أو تنوع لوازمها. وتقترن أنواع أو أنساق الطعام ومفرداته ببعض هذه اللوازم، خصوصا في عوائد تقديمه أو اختيار مفرداته التي ظلت مشروطة بالأوضاع الاجتماعية الاقتصادية للآكلين. ولم تكن مفردات الطعام تخلو من «البامية» والأرز، أو السرغوم الذي يشبه الذرة المسكرة، والقمح المطحون (الجريش) والبطيخ. وظل الطعام الأفروأمريكي يعكس الأوضاع الاقتصادية المتدنية التي عاناها السود، سواء تحت نير العبودية، أو تحت شعارات التحرر التي ظلوا يقاسون، تحت راياتها، الأمر الذي ترك بصماته على مفردات الطعام وكمياته وعدد مرات تناوله.

وعندما تحسنت الأوضاع اشتهرت في شيكاغو أكلة الأضلع (الرّيش Rips) المشوية والمنقوعة في صلصة حارة لا يقدر عليها إلا أولو العزم من أصحاب المعد القوية. وكنت واحدا منهم في ذلك الزمان البعيد، حين كنا نقضي بعض إجازات نهاية الأسبوع في شيكاغو، ذات الكثافة السكانية السوداء، فنذهب إلى أحياء السود، ونلتهم هذه «الرّيش» الـ (Rips) كالوحوش الضارية، نخففها بالمشروبات التي كانت تطفئ بعض نار الأكلة التي أحببتها في ذلك الوقت، ولا أستطيع سوى

تذكرها، الآن، فمعاودتها في هذا العمر تفضي إلى المستشفى فورا.

وقد لاحظت أنه بقدر اعتزاز الأفروأمريكان بتاريخهم الخاص، وأعيادهم الخاصة، يحتفون بأدبهم الخاص، وبأسماء أعلام الأدباء الذين تتابعوا بعد حقبة العبودية، وازدهروا مع حقبة حركة الحقوق المدنية، وفي سياقاتها المتعاقبة التي لم تكن قد انتهت خلال عملي في جامعة وسكنسن. وهكذا، سمعت عن نهضة هارلم، وعن شاعر مثل لانجستون هفس والروائي نيل هوستون، كما سمعت عن ريتشارد رايت الذي تجاوزت شهرته الولايات المتحدة نفسها، وقد تُرجِمت إحدى رواياته الشهيرة (ابن البلد) إلى العربية، ونشرتها «دار المعارف» إن لم تخني الذاكرة. وكتب طه حسين عن هذه الرواية مقالا كاشفا في ليبراليته، لا أذكر ما هي، على وجه التحديد، وكان يعاصر ريتشارد رايت رالف أليسون صاحب رواية «الرجل غير المنظور» التي نالت الجائزة القومية للكتاب سنة 1953.

وجاء بعد هؤلاء الجيل الأسعد حظا الذي أخذ ينال الجوائز المحترمة، ويحظى باهتمام النقاد، ويدفع الدارسين إلى تحديد الصفات المائزة للأدب الأفروأمريكي وتحليله. وهو الجيل الذي تنتسب إليه الشاعرة آني ألن، والكاتبة المسرحية لور هانسبيري، فضلا عن أميري بركه الذي كان يكتب الشعر إلى جانب

المسرحيات التي ظلت تثير الجدل، والتي نالت إحداها جائزة حلقة النقاد في نيويورك.

وكان من حسن حظي أن أكون في جامعة أمريكية، يحتل فيها السود مكانة بارزة، خلال فترة الاهتمام بالأعمال الإبداعية للكُتّاب السود الذين أخذوا يحصدون الجوائز الأدبية، وذلك في سياق ظهر فيه اسم الكاتبة توني موريسون التي كانت تعمل محررة في دار «راندوم هاوس»، وأسهمت في تحرير بعض أعمال توني كيد بامبرا وجاي چونز، وذلك قبل أن تتفجّر موهبتها الروائية، فتنشر «العين الأكثر زرقة» سنة 1970، وروايتها الأكثر شهرة «محبوبة» التي تحولت إلى فيلم سينمائي، بعد حصول الرواية على جائزة بوليتزر سنة 1988، وقبل أن تكون توني موريسون الأمريكية السوداء الأولى التي تحصل على جائزة نوبل في الأدب سنة 1993.

وقد حدث ذلك كله في سياق من صعود الأدب الأسود الذي أخذ يتصدر قوائم الكتب الأكثر مبيعا (Best Sellers) مثل رواية الأجيال الشهيرة «جذور: ملحمة أسرة أمريكية» التي كتبها أليكس هيلي (1921 - 1992) ونشرها سنة 1976، فنالت استحسان النقاد، وتصدرت قائمة الكتب الأكثر مبيعا، واستحقت الجائزة القومية للكتاب، وجائزة بوليتزر سنة 1977، وقد بيع من الرواية خلال عام واحد أكثر من مليون نسخة،

وأصبحت عملا أساسيا في مقررات الأدب في أكثر من خمسمائة جامعة وكلية عالية.

أما المسلسل التلفزيوني المأخوذ عنها فحقق شعبية هائلة، وجذب انتباه ثلاثين مليون مشاهد عند بثه تلفزيونيا سنة 1977، وأصبح من أشهر المسلسلات الدرامية التلفزيونية في العالم، بقدر ما أصبح حافزا على إنتاج مسلسلات على شاكلته، كتب بعضها إليكس هيلي نفسه. و أذكر أن الكاتب إسمائيل ريد وبعض الشاعرات السود، زاروا جامعة وسكنسن-ماديسون، أثناء عملي بها، وقرأونا بعض نتاجهم الإبداعي الذي نال استحسان الجمهور الأبيض والأسود على السواء، وكان ذلك في سياق من الذيوع لايزال مستمرا، أذكر من علاماته أن مقدمة البرامج الشهيرة أوبرا وينفري أسهمت في توسيع دوائر الاهتمام بالأدب الأفروأمريكي الذي تنتسب إليه بأكثر من معنى، وذلك عن طريق تقديمها أعلام هذا الأدب في برنامجها «منتدى أوبرا للكتاب».

وكان من الطبيعي أن يخلق الأدب الأفروأمريكي نقده الأدبي الذي يبحث عن شعريته المائزة، محللا خصائصه النوعية وتيماته المتكررة، ونظرته المختلفة إلى العالم، وذلك من خلال مذاقه المغاير في تقديم الشخصيات ومنظور الأحداث واختيار الموضوعات. ولا يخلو الأمر من وجود اختلافات داخلية في دائرة هذا النوع من النقد، بل في دائرة الأدب الأفروأمريكي نفسه،

فيذهب البعض إلى التركيز على جوانبه الأمريكية في نزعتها الإنسانية، مع التخفيف من نبرة النزعة المغالية في الانحياز إلى كل ما هو أسود.

ولا يزال السؤال مطروحا: هل ينتج هذا الأدب شعرية نوعية متمايزة تماما، أم أنها شعرية فرعية داخل شعرية عامة؟ وأيا كانت الإجابة فإن السؤال نفسه، بما ينطوي عليه من مفارقة تتضمن الاختلاف، يشير إلى إمكان تباين موقف النقد الأفروأمريكي من الأعمال الإبداعية التي يدور حولها، وذلك مثل انقسام النقاد حول رواية أليس واكر الشهيرة «اللون القرمزي» التي اتهموها بأنها غير عادلة في هجومها على الرجال السود، وهو الاتهام الذي رفضته الكاتبة ورذت عليه في كتابها «نفس النهر مرتين: توقير الصعب».

ولكن الثقافة الأفروأمريكية لا تقتصر على هذا فحسب، فهي تضم -فضلا عن ذلك- فنون الأداء الخاصة بها من أوبرا وباليه، كما تضم حركاتها التشكيلية الخاصة، وموسيقاها التي يتصدرها «البلوز» (Blues) الذي يرجع إلى التاريخ العبودي للسود، وطرائق تعبيرهم عن القمع الواقع عليهم، ورغبتهم المحتجزة أو المعلنة في مقاومته. وقد ظل هذا الفن الموسيقي، أو الأسلوب الموسيقي على نحو أدق، يتطور مع الوقت، وتتراكم عبر العقود عبقرياته الخاصة، إلى أن نصل إلى حقبة الستينيات والسبعينيات، فيصل البلوز إلى ذروة صعوده، ويشارك فيه البيض والسود، ويصبح لكل

مدينة أمريكية كبرى أسلوبها الخاص، داخل الأسلوب العام، مقرونا بغنائيات أو أغانٍ بعينها، تنال إعجاب الجميع. وقد أعجبت، على نحو خاص، بأسلوب البلوز الذي تطور في شيكاغو، وعلى امتداد ولاية ألينوي، حيث أضافوا الجيتار الكهربائي والطبول والبيانو، والباص، وأحيانا الساكسفون.

والمسافة جد بعيدة بين ما أصبح عليه هذا الفن، أو الأسلوب، وما نشأ بسببه نتيجة الهجرة العظمى للفقراء من العمال السود الذين اضطروا إلى الرحيل من الجنوب الأمريكي الزراعي إلى المدن الشمالية الصناعية، ومنها شيكاغو، وذلك في النصف الأول من القرن العشرين. وربما كان أصل هذه النشأة هو المسؤول عن إيقاع البلوز الذي يمتزج فيه الحزن بالغضب، والحنين بالغربة، والحرمان بالرغبة. وظل تركيب إيقاعه الجامع بين المتعارضات يشدني إليه، ولا يزال، فكنت أتقبل بسرور دعوة أصدقائي، من رفاق الرحلة إلى شيكاغو، لزيارة النوادي الليلية المشهورة بأحسن عازفي البلوز.

وأحسب أن هذا الإعجاب هو الذي أثار فضولي لمعرفة «الچاز» والاستماع إليه، والاهتمام بمعرفة أصوله من حيث هو مزيج من التقاليد الموسيقية الغربية والإفريقية، لا يفارق نبرة روحية، ذات طابع ديني، وذلك في خط التماس الذي يصل بين الجاز والبلوز. وقد أصبح فنا شعبيا في العشرينيات، وظل

منذ ذلك الوقت فنا جماهيريا بمعنى لا يعرف التمييز من ناحية، ولا يكف عن التأثير في أساليب الموسيقى الموازية من ناحية مقابلة. ومن الطبيعي أن يكون لكل منطقة شهيرة بالچاز أسلوبها الخاص، مثل منطقة «نيو أورلينز» التي أخرجت بيكس بيدر بيك الذي أسهم في تطوير الأسلوب وتوسيع دوائر تلقيه. يوازيه في ذلك، وربما يتفوق عليه، لويس أرمسترونج الذي كان يمتلك قدرة فريدة على الارتجال الذي أصبح علامة دالة على امتياز عازف الچاز، واختبارا لمدى نجاحه في تطوير الأداء الفني. وقد أنتجت التقاليد المتواصلة، في الچاز، ديوك إلينجتون الذي لفت إليه أنظار أمريكا كلها مع انتشار الإذاعة والتسجيلات التلفزيونية بعد ذلك. وأضف إلى هؤلاء أسماء من طراز بول روبنسون وراي شارلز (1930 - 2004) الذي أصبحت حياته موضوعا لفيلم «راي» الذي حصل على جائزة الأوسكار للتمثيل.

ولا أريد الاسترسال في الحديث عن السينما الأفروأمريكية بأفلامها التي تعتمد -في أحيان كثيرة- على الإبداعات السوداء، أو عن المسلسلات التلفزيونية المصاغة من منظور أفروأمريكي، فقد أصبحت هذه الأفلام والمسلسلات أكثر شهرة من التعرض لها، خصوصا بعد أن اقتحمت السينما الأمريكية موضوع التمييز العرقي ضد السود، وصنعت أفلاما شهيرة ابتداء من الثلاثينيات التي شهدت أفلاما من طراز فيلم بول روبنسون «الإمبراطور جونز» (1933) و «ذهب مع

الريح» (1939) مرورا بالخمسينيات والستينيات التي شهدنا فيها نجما استثنائيا مثل سيدني بواتييه الذي برز في أفلام من طراز «الجسوران» (1958) و «زبيب في الشمس» (1955) و «احذر من القادم على العشاء» (1967)، وهو العام الذي ظهر فيه فيلمه «في حرارة الليل» و«إلى أستاذي، مع حبي».

وقس على سيدني بواتييه النجوم الأكثر معاصرة، مثل مورجان فريمان، ودانزل واشنطن، وأدريان برودي، وويل سمث، وبيل كوسبي (صاحب «عرض كوسبي» التلفزيوني الشهير) وغيرهم من نجوم الأفلام القريبة العهد من مثل هال بيري التي حصلت على الأوسكار، فضلا عن نجوم أفلام من طراز «اللون القرمزي» و «محبوبة» وغيرها من الأفلام التي لعبت دورا مهما في تعرية وفضح التمييز العنصري ضد السود.

ولم يدهشني الحجم اللافت للأفلام التسجيلية التي تسجل التاريخ الأفروأمريكي من ناحية، وإبداعاته الفنية التي كافح مبدعوها لتأكيد حضورها وحضورهم. وكانت هذه الأفلام في بداية صعودها في السبعينيات، قبل أن تصبح ظاهرة لا يمكن تجاهلها بعد ذلك. ولم أكن أعرف- في ذلك الوقت من السبعينيات- الدراسات المتخصصة عن صور الأفروأمريكيين في السينما، ولا عن مراجعها التي ظلت تتراكم عبر العقود الأخيرة إلى أن اتسعت، وتضخمت، وجمعت مسلسلات التلفزيون إلى جانب السينما، وذلك في المدى الذي لم يخل من

أفلام «الكارتون»، وشجع على الاستقبال المتعاطف للسينما الإفريقية التي رأيت نماذج لأفلامها في قاعات العرض الصغيرة التي كانت تملأ جامعة وسكنسن. وأحسبني تصفحت في مكتبة الجامعة كتاب «السود في السينما: صورة متغيرة» الذي كتبه چيم باينز، ونشره معهد السينما في لندن، وكان ذلك قبل أن تتضخم مكتبة دراسات السينما الأفروأمريكية، وتصدر العديد من الكتب عن موضوعات (تيمات) الأفلام وعن كبار الممثلين والمخرجين الذين أبدعوا في تمثيلها وإخراجها.

ولا تكتمل صورة الثقافة الأمريكية السوداء إلا بإضافة فنون النحت والتصوير التي ازدهرت ما بين الخمسينيات والستينيات، وظلت تواصل ازدهارها في أفق ما أصبح يطلق عليه مصطلح «جماليات التمرد» التي لم تغرق في تجريدات الحداثة أو ما بعد الحداثة، وظلت منطوية على التزامها الخاص الذي لا يبعدها عن القضايا الأساسية التي تنطوي عليها. و قد وصل الأمر -في هذا الصدد- ببعض المنظرين إلى استخدام اصطلاح «الجماليات السوداء» في موازاة الجماليات الإفريقية التي أزاح عنها منظرو الثقافة الأفروأمريكية غبار التجاهل والنسيان، وصفات الدونية والهمجية في الوقت نفسه، فأعيد الاعتبار -في أمريكا، بعد فرنسا- إلى «الأقنعة الإفريقية» و «الفن الإفريقي التلقائي» الذي يتجلى في المنحوتات الخشبية التي أخذت

تتصدر معارض الفنون وجالیریاتها. وأصبح موضوع «الجماليات الإفريقية» موضوعا بارزا في الدراسات الإفريقية والأفروأمريكية على السواء.

وكان ذلك في تداعيات الحقبة الحديثة التي شهدت «نهضة هارلم» التي كانت أبرز الحركات في الفن الأفروأمريكي، حيث اتسع أفق الحرية للتعبير عن أفكار بعينها في العديد من أجزاء العالم بما انعكس على المجموعات الفنية في الولايات المتحدة خلال العشرينيات، حيث برزت أسماء مصورين ورسّامين، وذلك في السياق الذي أدى إلى أن يصدر چيمس بورتر أستاذ الفن في جامعة هاوارد أول كتاب معتمد عن الفن والفنانين الأفروأمريكيين بعنوان: «الفن الزنجي الحديث». وهو الفن الذي لم يعد أحد يستخدم كلمة «الزنجي» صفة له، خصوصا في السياق الصاعد للستينيات والسبعينيات التي عبرت فيها الأعمال الفنية عن الإيقاع المتغير في رؤى المجتمع ونظرته إلى الفن الأسود الذي سرعان ما تأسست مراكز فنية لدراسته وجاليريات دائمة لعرضه.

وأتصور أنه بقدر ما كانت معرفتي بالثقافة الأفروأمريكية تجعلني أقرب إلى تلامذتي السود، وأكثر تفهما لهم، وتقضي على رواسب التمييز العنصري التي ورثتها عن التراث الذي أنطوي عليه في داخلي، ظلت هذه المعرفة تقارب بيني ودارسي هذه الثقافة -في فروعها المختلفة- من زملائي الذي عرفت بفضلهم مجلة

ثقافية عامة مهتمة بالحياة الأمريكية السوداء في جوانبها المختلفة. أقصد إلى مجلة «Ebony» التي كانت تعني خشب الأبنوس الأسود. وهو عنوان ينطوي على المفارقة الدالة على صلابة المادة ونفاستها في إشارة ضمنية إلى تميز اللون الأسود الذي تدل عليه الكلمة.

وقد أسعدني -وأنا أكتب هذه الذكريات- أن مجلة «إبوني» أو «أبنوس» التي هي أقدم مجلة أفروأمريكية عامة لا تزال تصدر إلى اليوم، وأنها تحتفل بمرور ستين عاما على إنشائها، ولها موقع خاص على شبكة الإنترنت، قضيت في صحبته وقتا ممتعا، أثار في ذاكرتي انطباعاتي القديمة عن الأعداد التي قرأتها من هذه المجلة منذ سنوات بعيدة. ولا تزال المجلة محافظة على تقاليدها إلى اليوم، فتهتم بالجوانب الاقتصادية، والصحية، والرياضية،والأزياء، وعوالم الفنون: التمثيل والغناء، والرسم والتشكيل. وغيرها من إبداعات الثقافة الأمريكية السوداء، وذلك في قالب جذاب، وتنوع لافت، جعلها أكثر المجلات الأفروأمريكية نجاحا وشعبية. وقد ظللت من قراء هذه المجلة إلى أن انقطعت صلتي بها، للأسف، بعد العودة إلى القاهرة.

ولا شك أن معرفتي بالثقافة الأفروأمريكية فتح لي شفرات التواصل مع من لم أكن أتواصل معهم في الجامعة، وأخرجتني هذه المعرفة من الدائرة الضيقة التي كنت لا أزال محصورا فيها إلى الدائرة الواسعة التي ساعدتني على أن أندمج تدريجيا في عوالم

المجتمع الجامعي، وأكتسب عادات ومعارف عامة جديدة، جذبتني إليها الطبيعة المتحررة ثقافيا لولاية وسكنسون التي كانت تعد إحدى الولايات الراديكالية التي ظل لها حضورها المستمر في الآفاق اليسارية. وقد سبق أن أشرت إلى احتجاج الطلاب على استثمار مجلس الأمناء لبعض أموال الجامعة في حكومة روديسيا العنصرية. وهو موقف فهمت منه أن الجامعة في الولايات المتحدة ليست مؤسسة أكاديمية بحثية فحسب، وإنما هي إلى جانب ذلك- مؤسسة استثمارية، تعمل على زيادة رأس مالها عن طريق الإسهام في الأنشطة الاقتصادية التي تزيد من رأس المال. ولما كان منطق زيادة الأرباح هو الغالب على العقلية الاقتصادية الرأسمالية التي تدير الجامعة، ماليا، وتعمل على زيادة استثماراتها، فلم يكن من المهم الجهة التي تتعامل معها، من المنظور السياسي، ما ظلت مؤشرات الربح متصاعدة أو محققة.

ولذلك أعجبني الطلاب والطالبات الذين اقترنت جذريتهم السياسية بمواقفهم الاجتماعية. وكان طبيعيا أن يكون لي أصدقاء من بينهم، فالفارق الزمني بيني وبينهم لم يكن كبيرا، فقد كنت ما بين الثانية والثالثة والثلاثين، وبين الطلاب والطالبات من يماثلني في العمر، أو يسبقني في سنة المولد، وذلك بسبب أن الطالب الأمريكي يمكن أن يقطع دراسته، ويعمل بما يعينه على ادّخار نفقات الجامعة، فيعود إليها بعد

تحصيل ما يغطي نفقات تعليمه، ويكمل مسيرته العلمية، في نظام تعليمي مرن ومفتوح إلى أبعد حد. ولذلك كان من الممكن لأي طالب أن يغير تخصصه في أي وقت، وأن ينتقل من كلية إلى أخرى إذا تغيرت اهتماماته العلمية. واصطفيت من هؤلاء الطلاب و الطالبات ثلاثة أو أربعة، أصبحنا مجموعة متحابة متوادة. نذهب سويا إلى شيكاغو حين نجد الوقت، كي نقضي إجازة نهاية الأسبوع، إما لزيارة متاحفها العديدة، أو نواديها التي تعرفت فيها على موسيقى البلوز السوداء التي سبق أن ذكرت أصل منشأها الذي يرجع إلى أغنيات العمل التي كان يخفف بها العبيد السود من قسوة حياة العبودية التي عانوا منها طويلا.

وكانت زيارة شيكاغو بهجة للعين والعقل، خصوصا بمكتبات جامعاتها الشهيرة (شيكاغو وألينوي، ونورث وسترن) ومعالمها السياحية التي تبدأ من برج سيرز المشهور الذي كان يتباهى به أهل شيكاغو بوصفه أعلى مبنى في الولايات المتحدة، مرورا بالمتحف الصناعي الحديث، وليس انتهاء بشوارع شيكاغو الشهيرة في وسط المدينة، فضلا عن المكتبات والمعارض الفنية والجاليريات والسينمات والمسارح والنوادي الليلية التي كنا نقصدها لسماع أعلام عازفي البلوز، أو نرى الأفلام الجديدة، أو نشاهد المسرحيات الشهيرة.ولا أزال أذكر أننا حملنا معنا، في إحدى زيارات شيكاغو، كتابا صغيرا عن تاريخها وتطورها، عرفت منه الكثير عن هذه

المدينة التي كنت أحبها لكثرة مباهجها ومغرياتها، ولا أرضى بالبقاء فيها للسبب نفسه، ذلك لأنني كنت أوثر حياة ماديسون الهادئة التي تتيح التفرغ أكثر للقراءة والبحث.

وقد زرت مع أصحابي، في إحدى زيارات شيكاغو، متحف التاريخ الطبيعي الذي فتنت به فزرته أكثر من مرة بعد ذلك، ومثل غيره من المتاحف العديدة في الفنون والعلوم. وأذكر أني استعنت بأحد الأصدقاء كي يدلني على مكان مجلة «شعر» التي أسستها هاريت مونرو (1860 - 1936) سنة 1912، وجعلت منها لسان حال الشعر الحديث،ونشرت قصائد أعلامه من أمثال: عزرا باوند، وت. إس. إليوت، ووليام كارلوس وليامز، وماريان مور، وغيرهم من دعاة شعر الصورة والشعر الموضوعي. ولكن، للأسف لم نستطع أن نستدل على مكان المجلة التي كنت أريد زيارتها. وكان دافعي إلى ذلك معرفتي المسبقة بأن يوسف الخال (1917 - 1987) أسس مجلة «شعر» اللبنانية (1957 - 1964) على غرار المجلة التي أصدرتها هاريت مونرو من ألينوي-شيكاغو. ولكننا عدنا بخفي حنين بعد أن فشلنا في الوصول إلى مبنى المجلة التي لم يكن لها موقع على الإنترنت، كما هو الآن، ولم يكن هناك ما يشبه حتى الإنترنت.

ولا أزال أذكر مرحنا ولهونا في شيكاغو التي كنا ننطلق في حدائقها، ونذهب إلى أحياء السود الذين

اشتهرت مطاعمها بتقديم الوجبة التي كانت زيارة شيكاغو لا تكتمل دونها. أعنى الـ «ربز» Ribs التي كانت تحتاج إلى معدة شاب، تهضم الحجر، وصحبة بهيجة لا تكف عن المرح، أو المزج بين متع العقل والحواس.

وقد كثرت زياراتي إلى شيكاغو عندما تعرفت على صديق مصري يدرس في جامعة أليتوي. وقد أعانني على «شحن» الكتب الكثيرة التي اشتريتها مع «الأثاث» الذي حمله معه إلى مصر عن طريق البحر الذي كان أرخص وسيلة نقل عرفناها، واستخدمتها مرات عديدة، لنقل أحمال الكتب التي لم تكف عن التزايد إلى القاهرة. وكنا نعود من زيارة شيكاغو الصاخبة إلى ماديسون الهادئة، فنشعر بالفارق الكبير الذي يجعل أمثالي يؤثرون السكينة على الصخب والهدوء على الضجيج والزحام، فأبدأ في معاودة ما أخذت أقيمه من علاقات طيبة بزملائي وطلابي في قسم اللغات والآداب الإفريقية، وما اعتدت عليه من حوارات ثقافية، أعترف أنني عرفت بفضلها العديد من أبواب المعرفة التي انفتحت أمامي، ودلفت منها إلى آفاق لم أكن أعرفها. وأهمها في تقديري -الآن، وبعد مرور كل هذه السنوات- البدايات التي كانت ترهص بخطاب ما بعد الاستعمار، وتلحُّ على رفض نظريات التبعية والتمييز، وتؤكد أهمية التنوع البشري الخلاق والنقد الثقافي.

وسرعان ما أدركت -لكن بعد عودتي إلى القاهرة، واستعادة المشهد بهدوء، بأعين الذاكرة الفاحصة التي تعين على التمثل الواعي- أن خطاب ما بعد الاستعمار هو الخطاب الذي صاغه أبناء المستعمرات التي تحررت، خصوصا من أبناء العالم الثالث من الدارسين الذين اكتمل تكوينهم العلمي في العالم الأول، فاستخدموا ما تعلموه لنقض أيديولوچيات الهيمنة الاستعمارية التي مارستها أوروبا طويلا- ولحقت بها الولايات المتحدة- على الدول التي احتلتها واستوطنتها. وقد تضامن مع هؤلاء عدد من الباحثين الأوروبيين والأمريكيين الذين أخذوا على عاتقهم فضح خطاب الاستعمار في أشكاله القديمة والجديدة.

ولم ينبثق خطاب ما بعد الاستعمار فجأة، وإنما تراكم بفعل كتابات رائدة لأمثال: فرانز فانون (1925 - 1961) وإميه سيزير (1913 - 2008) وشينوا أتشيبي (1930 - 2013) وول سوينكا (1934 -) وكان جهدهم تمثيلا لاتجاهات فكرية متقدمة، حرصت على نقض المركزية الأوروبية -الأمريكية، وتعرية الأقنعة الأيديولوچية لنظريات التبعية ولوازمها. وكان لأنور عبد الملك وسمير أمين المصريين دور في ذلك، بعد هجرتهما إلى فرنسا. لكن البداية القوية المؤثرة جاءت مع كتاب إدوارد سعيد «الاستشراق» الذي يعتبره كثيرون الاستهلال الجذري للتيار الذي تعددت مسمياته ما بين «خطاب ما بعد الاستعمار» و «نظرية ما بعد الاستعمار» و «دراسات ما

بعد الاستعمار»؛ وكلها مسميات متجاوبة الدلالة، متطابقة في إشارتها إلى مجال معرفي تشير فيه كلمة «الما بعد»- حتى في أصلها الإنجليزي- إلى النقض والاختلاف وليس مجرد التعاقب.

ومن الأحداث المهمة التي شهدتها في جامعة وسكنسن-ماديسون دعوة إدوارد سعيد الفلسطيني الذي كان قد لفت إليه الأنظار بقوة في الحياة الثقافية والنقدية في الولايات المتحدة. وكان يعمل في ذلك الوقت على كتابه «الاستشراق». ولذلك اختار أن يكون موضوع محاضرته في جامعة وسكنسن ماديسون عن جانب من جوانب الاستشراق، بوصفه أيديولوچيا من أيديولوچيات الهيمنة التي ترسّخ وعيا زائفا في عوالم القامعين والمقموعين على السواء، وذلك قبل عام واحد من صدور كتابه «الاستشراق» سنة 1978 الذي صدر بعد عودتي إلى القاهرة، فأقام الدنيا ولم يقعدها في مجال الدراسات الأدبية، وكان بمثابة قوة دفع هائلة للتيار الذي لمعت فيه أسماء عديدة بعد إدوارد سعيد، من أمثال: جاياتري سبيڤاك الهندية الأصل، وهومي بابا الإفريقي الأصل، وإعجاز أحمد الذي يشترك مع سبيڤاك في الأصل الهندي، وغير هؤلاء كثيرون يتوزعون ما بين الولايات المتحدة والقارة الأوروبية، خصوصا إنجلترا التي برزت فيها -إلى جانب كتابات هومي بابا ورانجات جحا وجماعة «النص الثالث»- كتابات روبرت يونج الذي وجد نفسه- بعد رحلة في نظريات ما بعد البنيوية-

في خطاب ما بعد الاستعمار، فأصدر كتابه الشهير «أساطير بيضاء: كتابة التاريخ والغرب» بعد ذلك بسنوات طويلة، 1990، وقد ترجم المجلس الأعلى للثقافة الكتاب، ودعونا المؤلف إلى القاهرة للمحاضرة في موضوع الكتاب على نحو خاص، وخطاب ما بعد الاستعمار بوجه عام.

وما أكثر ما شعرت به من فخر بوصفي عربيا، سنة إقامتي في ماديسون، وأنا أستمع إلى إدوارد سعيد الذي حضرت محاضرته، فقد كان ساحرا بإنجليزيته الرائقة، وجسارته العلمية التي كانت بمثابة ثورة جذرية على تقاليد دراسات العالم الثالث، خصوصا أقطاره التي شوّهت صورتها المركزية الأوروبية الأمريكية. وزاد من فخري بإدوارد سعيد العربي -الفلسطيني- أنه كان أحد النقاد القلائل الذين تخصص أهم مجلة أمريكية في النقد الأدبي، في ذلك الوقت، وهي «دياكرتكس» عددا كاملا عن كتابه «بدايات: المقصد والمنهج» سنة 1975. وهو الكتاب الذي أتاح لسعيد من الشهرة والمكانة ما لم يتحها له كتابه السابق «جوزيف كونراد ورواية السيرة الذاتية» سنة 1966 الذي كان في الأصل أطروحته لدرجة الدكتوراه من جامعة هارفارد.

ولم أستطع مقابلة إدوارد سعيد الذي توثقت علاقة الصداقة بيني وبينه بعد ذلك بسنوات عديدة. وكان في زيارته جامعة وسكنسن نجما ساطعا من نجوم الثقافة الأمريكية. ويبدو أن صفة الخجل التي لم تفارقني في

ذلك الوقت، ولا حتى بعده، منعتني من السعي إلى لقائه. ولم أكن أتخيل، في ذلك الوقت، أننا سوف نصبح أصدقاء، وأن ألتقي معه وزوجه أكثر من مرة، بل تشاء المصادفات السعيدة أن نشترك معا في جائزة سلطان العويس التي حصل عليها لتميزه العام، وحصلت عليها مناصفة مع أستاذي المرحوم شكري عياد. وكان إدوارد سعيد يهتم بما أكتب، وأذكر أنه امتدح بحثا لي عن «بلاغة المقموعين» في أحد فصول كتابه «عن المنفى» الذي ترجمه الصديق ثائر ديب.

وقد زاد من إعجابي بإدوارد سعيد في ذلك الوقت تمسكه بجذوره الثقافية العربية التي ظل حريصا عليها. ولا أزال أذكر بحثا له يناقش أحدث مناهج النقد في ذلك الوقت، وذلك في مدى تأثره بأفكار ميشيل فوكو (1926 - 1984) الذي انحاز إليه على النقيض من چاك دريدا (1930 - 2004) الذي كان قد أخذ يلفت الأنظار إليه في الولايات المتحدة. وكان إدوارد سعيد في اعتزازه بأصله وهويته القومية الأولى على النقيض تماما من أستاذ أمريكي مصري الأصل، هو إيهاب حسن الذي يُعدّ من أهم منظري حركة ما بعد الحداثة.

وقد ولد سنة 1925، وهاجر إلى أمريكا سنة 1964، هاربا من ديكتاتورية النظام العسكري الناصري. وأكمل دراسته في الأدب إلى أن أصبح واحدا من أبرز نقاد ما بعد الحداثة. وقد دعته جامعة ماديسون إلى زيارتها، وذلك لأنه كان يعمل في الجامعة نفسها، فرع ملووكي،

وتحدث عن ما بعد الحداثة، ونفرت منه لأنه يتنكر لأصله المصري وهويته العربية. وكان قد أصدر -قبل وصولي إلى أمريكا- كتابه عن الرواية الأمريكية المعاصرة سنة 1971، ثم كتابه الأشهر «تمزيق أورفيوس، نحو أدب ما بعد حداثي» في العام نفسه.

وقد عرفت أنه كتب بعد ذلك سيرة ذاتية بعنوان: «الخروج من مصر» تبدو كأنها استئصال لجذوره وتأكيد لهويته الأمريكية. ولا أخفي أنني كنت، ولا أزال أنحاز إلى إدوارد سعيد الذي نال من الشهرة والمكانة العالمية ما لم ينله إيهاب حسن، وذلك لأسباب متعددة، أولها- في تقديري بالطبع- أن إدوارد سعيد لم يتنكر لأصوله، وإنما ظل محتفظا بها، فخورا، مدافعا عنها، وحسبه ما كتبه عن القضية الفلسطينية التي ظل يدافع عنها وعن «تغطية الإسلام».

وأذكر أن محاضرة إدوارد سعيد التي استمعت إليها كانت مدخلي إلى عوالم لم أكن أعرفها من قبل، عوالم تجاوبت معها حواراتي مع زملائي في قسم اللغات والآداب الإفريقية، فعرفت ما لم أكن أعرفه عن مصادر ومراكز ومتاحف الثقافة الأفروأمريكية. ومنها مركز الثقافة الأفروأمريكية الذي تأسس سنة 1974. وكان ضمن الموجة الرائدة من بداية الاهتمام بهذه الثقافة التي اتسعت دوائر الاهتمام بها مع اتساع مجالات الحرية للسود الأمريكيين، وتزايد اعتزازهم بتاريخهم الخاص، وفخرهم بأصولهم، في الأفق الصاعد للثقافة

الأفروأمريكية من ناحية، والأفق الموازي الذي أرهصت به، ووازته في صعوده، أعني خطاب ما بعد الاستعمار من ناحية مقابلة.

وكانت نتيجة التوازي قوية في تفاعلها الذي ترتب عليه تغير في المفاهيم، وفي استخدام المفردات، ومنها تجنب استخدام كلمة زنجي (Negro) التي أصبحت -منذ السبعينيات- قرينة الإهانة والتحقير، فضلا عن علاقات المثاقفة بوجه عام، وما اقترن به من اتساع مدى التعددية التي أصبحت أساسا لسياسات ثقافية، تنبني على التنوع الإنساني الخلّاق.

مكتبات ماديسون

كانت مكتبة الجامعة أكثر الأماكن التي داومت على زيارتها والعمل فيها طوال الأشهر الاثني عشر التي عملت فيها بجامعة وسكنسن-ماديسون. وكان يُسمح للأساتذة باستعارة ما شاءوا من الكتب، وتخصص الجامعة لمن شاء منهم إحدى الكبائن التي تضم طاولة للكتابة وعددا من الأرفف التي يضع عليها كل أستاذ الكتب التي يستخدمها، وله الحق في استخدام آلة كاتبة، إذا أراد، ولم يكن الكومبيوتر ومباهج الإنترنت العلمية قد عرفت بعد. وقد حصلت على إحدى هذه الكبائن التي كتبوا اسمي عليها، وأعطوني مفتاحها.

وكانت المكتبة تعمل من الساعة الثامنة صباحا إلى العاشرة مساء. ولما لاحظ أحد الأمناء تأخري في العمل والقراءة، أخبرني أن من حقي الحصول على نسخة من مفتاح الباب الرئيسي للمكتبة، كي أقضي الوقت الذي أريده كاملا في الاطلاع، دون التقيد بمواعيد العمل الرسمية. ولكني شكرته على العرض مؤكدا له أنني لست في حاجة إلى ذلك، فلم أكن أستريح إلى فكرة البقاء وحيدا في مكتبة مترامية الأطراف، وكنت قد بدأت العمل في سكني الخاص، وقراءة وترجمة ما

اشتريته من كتب، كانت بداية مكتبتي التي أعتز بها في ميادين النقد الأدبي ومجالاته.

وأذكر أنني اعتدت الذهاب إلى المكتبة في الأيام التي لم أكن أقوم فيها بالتدريس، أو بعد المحاضرات الصباحية، قبل عودتي إلى السكن، أو قبل الذهاب إلى المطعم الذي كان يطل على بحيرة ميندوتا، والذي يكمل المبنى المخصص لأنشطة الطلاب ونادي الأساتذة. وكنت أوثر تناول الغداء في هذا المطعم الذي كنت أقابل فيه الزملاء والزميلات ومن اقتربوا مني أو اقتربت منهم من طلابي أو طلاب زملائي.

وكان مبنى المطعم قريبا من المكتبة، ومن الميدان الفسيح الطويل الذي تطل واجهتها عليه، بينما الواجهة الأخرى تطل على البحيرة التي تجمدت في فصل الشتاء، وأصبحت فضاء مغويا لمن يريد التزلج عليها، أو من يخاطر بالسير بسيارته الخفيفة، أو دراجته البخارية، على طبقات الجليد التي تغطي البحيرة تماما. ولم أبلغ يوما هذه الدرجة من الشجاعة التي اقترنت في ذهني بالتهور، فظللت -طوال أشهر الشتاء القارس- أرقب اللهو على سطح البحيرة المتجمدة من بعيد دون مشاركة، رغم إغراء أصدقائي والصديقات، وحتى على أن أحذو حذوهم.

وكما تعودت أن أفعل في دار الكتب المصرية، أو في مكتبة جامعة القاهرة كنت أذهب إلى قسم الفهارس، وأبحث بهدف في بعض الأحيان، وبلا هدف في أحيان أخرى، فقد كنت، ولا أزال، مغرما بالسياحة الحرة بين عناوين الكتب وأسماء مؤلفيها. وسرعان ما عرفت أنه يمكنني الحصول على أي كتاب بواسطة المكتبة حتى لو لم يكن من بين مقتنياتها، وذلك بواسطة نظام الاستعارة بين المكتبات الأمريكية (Interlibrary Loan)، وهو نظام لم أكن سمعت عنه قبل ذلك، ولا أظنه معمولا به إلى اليوم في مكتبات كثير من الجامعات العربية حسب علمي. وقد استعنت بهذا النظام في الحصول على بعض الكتب التي لم أجدها في المكتبة، والتي ضاعت عناوينها من الذاكرة التي ثقلت محتوياتها بما لم يعد في طاقتها حمله كاملا.

وقد اكتشفت -بواسطة فهارس المكتبة- وجود مركز للميكروفيلم في جامعة ميشجن التي كانت قريبة، أو مجاورة لولاية وسكنسن، وعرفت من الفهارس ما يحتويه هذا المركز من رسائل جامعية تدخل في دائرة اهتماماتي، فأرسلت في طلبها، وحصلت عليها بعد دفع تكاليف تصويرها وشحنها بالبريد. وأذكر من بينها بعض الرسائل من منظور النقد الأدبي البنيوي التي تحولت إلى كتب في السنوات اللاحقة. وقادني الفضول الوطني إلى معرفة الرسائل التي كتبها الإسرائيليون عن

الأدب العربي، وقد حصلت منها على رسالة دكتوراه الچنرال بيليد الذي كان أحد قادة حرب 1967 في سيناء، وكانت عن نجيب محفوظ بعنوان: «الدين موطني». ولا أزال أحتفظ بها في مكتبتي الخاصة، وإن كنت لا أعرف هل تمت طباعتها في كتاب إلى الآن، أم لا؟ وقد أسعدني أن المركز لا يزال مستمرا، فيما أخبرتني به أستاذة ليبية تعمل في جامعة ميشجن، وعرضت عليّ المساعدة في الحصول منه على أي كتاب أو أطروحة أريد، فشكرتها على الدعوة التي لم أعد أحتاج إليها بعد الإنترنت والـ E.mail.

وقد قادتني حماستي القومية إلى البحث عن كل ما كتب أو طبع في إسرائيل عن الأدب العربي، وقضيت وقتا طويلا في إعداد ما يشبه ببليوجرافيا بالمطبوعات العربية هناك، حسب جهدي. وكنت أنوي نشرها بعد عودتي إلى القاهرة، لكن زيارة السادات إلى إسرائيل، وبدء خطوات الصلح التي لا أزال رافضا لها، ما ظل الحق العربي مهدرا، صرفت نظري عن الموضوع كله، وألقيت بما جمعت من أوراق ومعلومات في أحد الأدراج التي نسيتها مع الوقت. ولكن هذا البحث قادني -على الأقل- إلى معرفة كتاب ساسون صوميخ عن نجيب محفوظ الذي نشر بالإنجليزية، سنة 1973 تحت عنوان: «الإيقاع المتغير»، وكانت له دراسة منشورة بالعربية عن يوسف إدريس وقصصه.

ولفت انتباهي كذلك شموئيل موريه الذي أصدر كتابه عن «الشعر العربي الحديث» بعد ذلك، وكان أطروحة دكتوراه، تحت إشراف محمد مصطفى بدوي. وقد عرفت أنه عراقي الأصل، واسمه العربي صمويل المعلم الذي تحول بالعبرانية إلى شموئيل، وانقلبت كلمة «المعلم» إلى مقابلها العبري: «موريه». ولا أزال، إلى اليوم، أشعر بقصورنا في دراسة ما يحدث في إسرائيل، وفي معرفة آدابها وثقافتها، أو معرفة ما يكتبونه عنا، وذلك على النقيض منهم، هم الذين يعرفون عنا كل شيء. وزاد سخطي على ما نحن فيه من تخلف ما وجدته من مجلات عالمية تصدر في إسرائيل في أحدث فروع المعرفة، ومنها النقد الأدبي، فضلا عن ما تقوم به إسرائيل،ولا تزال، من عمليات ترجمة معارف العالم وإبداعاته، وذلك بما يتفوق على ما يترجمه العالم العربي بكل أقطاره وهيئاته ومؤسساته الثقافية، بل كل تراثه المعادي للعلم.

وقد حاولت، جاهدا، أن أبعد الهموم السياسية الموجعة عن ذهني، وأفرغ لما اعتبرته مهمتي العلمية الأولى، ولا أظنني نجحت في ذلك، ولكنني -على الأقل- مضيت فيما أنا فيه من عمل ومن مداومة على زيارة مكتبة الجامعة. وهي الزيارات التي أتاحت لي اكتشاف العالم بالغ الثراء للدوريات العلمية التي تدخل على نحو مباشر، أو حتى غير مباشر، في مجالات تخصصي. وقد

تعلمت الاهتمام قديما بالدوريات الأجنبية منذ عملي في أطروحتي الماچستير والدكتوراه، خاصة بعد أن أهدتني أستاذتي سهير القلماوي بعض الأعداد القديمة التي استغنت عنها من المجلات الأجنبية التي كانت تريد التخلص منها، فقادت خطاي إلى عالم الدوريات الأجنبية الذي ازددت وعيا بأهميته وقيمته بعد سفري. وكان لمكتبة الجامعة، في ماديسون، فضل تعريفي بأكثر من مجلة لا أزال حريصا على متابعة أعدادها، وكانت مجلة «التاريخ الأدبي الجديد: دورية النظرية والتفسير» أولى المجلات التي حرصت على اقتناء أعدادها المتاحة.

وأظنها لا تزال تصدر عن جامعة فرچينيا، وتضم بين هيئتها الاستشارية كبار الدارسين من الجامعات الأمريكية المختلفة، ومعهم هيلين سيكسوس من جامعة باريس 8- ڤانسان، وكذلك بعض الأساتذة من أوروبا وأستراليا. ولا أزال أحتفظ بعدد نوفمبر (المجلد التاسع خريف 1977 الذي كان عن السيرة الذاتية بعنوان: «مواجهة الذات والرؤية الاجتماعية»، وهو عدد يضم مجموعة من الدراسات المهمة. وكان للعدد فضل فتح أفق جديد من الاهتمام الذي ظل يتزايد بالسيرة الذاتية.

وكان دافعي -في ذلك الوقت- إلى شراء كتاب جيفري ميلمان الذي كان بعنوان: «دراسة بنيوية عن السيرة

الذاتية». وقد صدرت طبعته الأولى سنة 1971 وطبعته الثانية (التي لا أزال أمتلكها) سنة 1974. وقد أغراني الكتاب بشرائه، لأنه كان دراسة بنيوية أولا، ولم يكن كل من كانوا حولي يتوقفون عن الحديث والنقاش حول البنيوية، وكان كتاب ميلمان دراسة عن أعمال مارسيل بروست (1871 - 1922) وچان پول سارتر (1905 - 1980) صاحب «الكلمات»، وعن كتاب ليڤي شتراوس الشهير «المدارات الحزينة» الذي استهل الحركة البنيوية الفرنسية عند صدوره سنة 1955.

وقد ظللت على قربي الوجداني من موضوع «السيرة الذاتية» الذي دفعني -بعد ذلك بسنوات- إلى كتابة عدد من المقالات في التنظير لها وتأصيل دوافعها، بوصفها فن «الاعتراف»، بامتياز، حيث تلعب الذاكرة الدور الأول فيها.

ويشبه ذلك العدد الخاص بالسيرة الذاتية الأعداد التي ضاعت مني، والتي كانت تدور عن البنيوية الشكلية والبنيوية التوليدية،وغيرها من الموضوعات التي كانت المجلة تفرد لكل منها عددا خاصا. وهي الفكرة التي سعيت إلى تطبيقها في مجلة «فصول» بعد ذلك، فكنا نخصص كل عدد لموضوع بعينه، وذلك اتباعا للطريق الذي سبقتنا إليه «مجلة التاريخ الأدبي الجديد».

ولا أنسى أن أهم الدراسات التي قرأتها عن لوسيان جولدمان وكتابه الشهير «الإله الخفي» كانت في هذه المجلة. وتوازيها «مجلسة اليسار الجديد»، ذلك على الرغم من أنني قرأت بحث لوسيان جولدمان التأسيسي عن البنيوية التوليدية تحت عنوان: «علم اجتماع الأدب: الوضع ومشكلات المنهج» الذي نشرته المجلة الدولية لعلم الاجتماع في عددها الرابع من مجلدها التاسع عشر الصادر عن اليونسكو، قبل وفاة جولدمان بثلاث سنوات فحسب. وكان العدد كله مخصصا لعلم اجتماع الأدب الذي تناوله دارسون متباينو المناهج والجنسيات بمجموعة من الدراسات أبرزها دراسة جولدمان التي سيطرت على تفكيري، ودفعتني إلى الإقبال على قراءة جولدمان واستكمال معرفته في ذلك الزمان البعيد.

وكانت معرفة جولدمان بداية غير مباشرة لمعرفتي «بمجلة اليسار الجديد» التي لا تزال تضم الكتابات المعاصرة في الاتجاه الماركسي. وقد قرأت فيها تيري إيجلتون للمرة الأولى في عدد مخصص عن النزعة العرقية في مواجهة الماركسية. وكذلك عددها الخاص «ما بين الرأسمالية والاشتراكية» الذي قرأت فيه ما كتبه أندريه جوندر فراك عن اتجاهات المركزية الأوروبية. وهي الاتجاهات التي كانت مصدرا لهجوم أغلب من عرفتهم من زملاء الجامعة وباحثيها. ومن

حسن الحظ، علميا، أنني وجدت نفسي في سياق النقض لمبادئ المركزية الأوروبية، ولوازمها الأيديولوچية التي امتدت لتشمل اللوازم السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية لهذه المبادئ، خصوصا في تأكيدها ثنائية المركز والهوامش، وعلاقات التابع بالمتبوع على كل المستويات.

وهي نزعة لم تخلُ من نوازع استعلائية، ذات ملامح استعمارية، تجعل المركز الأوربي -الأمريكي هو الأصل الأنقى والجوهر الأصفى الذي ينبغي أن تتطلع إليه الهوامش كما تتطلع المعلولات إلى علّتها الأولى، وذلك بحيث لا يتحول المركز إلى الإطار الأمثل للقيم فحسب، بل يغدو الإطار المرجعي المطلق الذي ينبغي القياس عليه ومحاكاته في كل مجال، وذلك ابتداء من المجال الأدبي الذي يجعل «العالمية» قرينة الصفات المقترنة بإبداع هذا المركز وملازمة له، مرورا بالمجال الفكري الذي يكون فيه الاتباع الثقافي هو الوجه الآخر من التبعية الفكرية. ويعني ذلك تدمير كل إمكانات التنوع الثقافي الخلاق، والقضاء على الخصوصيات الحضارية والهويات الثقافية بما لا يبقي إلا على المركز الأوحد الذي ينعكس على كل شيء سواه، ولا يكتسب غيره المعنى والأهمية إلا منه.

وقد ظللت -منذ ذلك الوقت، وإلى اليوم- حريصا على متابعة الدوريات والمجلات، أولا: لأنها تقدم الجديد في

مجالها، فلا تجعل المتخصص في عزلة عن ما يجري حوله في العالم الذي كان قد أخذ في التحول إلى قرية كونية صغيرة، دون أن ينتظر الباحث صدور الكتب التي تتأخر عن مواكبة المتغيرات الآنية. وثانيا: لأنها تتيح للمتخصص أن يتتبع الحوارات الدائرة بين التيارات المختلفة، خصوصا في حركة تجددها الحيوي، أو حركة صراعاتها المتعددة الأوجه. وثالثا: لأنها تتيح للباحث أن يكون في بؤرة تحولات المشهد والمتجسد في مجاله المعرفي الذي يتفاعل وغيره من المجالات المتحوّلة المتجددة بدورها، فلا يتقوقع في مرحلة زمنية لا يعدوها إلى غيرها، وذلك كما يفعل العديدون من أساتذة الجامعات العربية الذين يكتفون بما حصلوا من معارف في الغرب، ويتوقفون عندها ولا يتابعون ما بعدها.

ولذلك تجد بعض هؤلاء متوقفا عند مرحلة الثلاثينيات وبعضهم الآخر عند مرحلة الأربعينيات وبعضهم الأخير عند الخمسينيات، أو الستينيات، غير واعٍ أن عجلة المعرفة تتقدم إلى الأمام على نحو دائم، وأن أمثال هذه المجلات تتيح له المتابعة المستمرة والمواكبة الفورية.ولا عذر لأحد بصعوبات السفر في هذا الزمن، فقد أصبح الكثير من هذه المجلات on Line على شبكة الإنترنت، شأنها شأن الموسوعات الأدبية أو موسوعات العلوم الإنسانية والاجتماعية التي لا نهاية

لها أو حصر، ولا صعوبة في الاطلاع عليها لمن يريد، خصوصا بعد أن أتاح الإنترنت معارف الدنيا كلها على شاشة الكمبيوتر الذي لم يعد لأي باحث أو مثقف غنى عن الإبحار اليومي فيه، ما ظل حريصا على الحياة في العالم الذي نعيشه.

وتدفعني هذه الملاحظة إلى ذكر مصادفة طريفة، انطوت على معنى الصدمة البهيجة التي جعلتني أكتشف كذب بعض الأساتذة الذين لا يتابعون حقا ما يحدث في تخصصهم الذي يمكن أن يتحدثوا فيه، للأسف، عن كتب لم يقرأوها. وقد كان لي زميل في كلية الآداب سبقني بسنوات في التخرج والعمل الجامعي وآفاق القراءة اليسارية، فأنزل نفسه -عن رضا منا- منزلة الأستاذ لأمثالي من المعيدين المبتدئين. وظل هذا الزميل الأكبر سنا يحدثنا عن نقاد عالميين من أمثال چورچ لوكاش ولوسيان جولدمان وأمثالهما من أعلام النقد الأدبي الماركسي الذي كان مدّعيا التبحر فيه. وكانت أحاديثه تهبط على ذهني الراغب في المعرفة كما يهبط المطر على الأرض المتعطشة إلى الماء، ولذلك كنت أستوعب ملاحظاته، ولا تفلتها ذاكرتي التي أحسنت به الظن كما فعل أمثالي. ومرّت الأشهر إلى أن ذهبت إلى مدينة ماديسون. وحدث أنني كنت أتجول في شوارعها دون هدف محدد إلا معرفة تضاريس المدينة التي أعيش فيها، ولفت انتباهي، في

شارع فرعي، غير بعيد عن الجامعة مكتبة كبيرة (Bookstore) دخلت إليها، بعد أن جذبتني الكتب المعروضة في فتارين العرض.

وفوجئت بأن المكتبة بأكملها متخصصة في الكتابات الماركسية وفي الفروع والمجالات المتصلة بها، ومنها النقد الأدبي بالطبع، وذلك بلغات العالم الأوروبي، مع تركيز خاص على الإنجليزية، ووجدت الكتب التي كنت أحلم بالاطلاع عليها مترجمة إلى اللغة الإنجليزية، وظلت عيناي تتنقل -فيما يشبه ذهول الذي عثر على كنز- ما بين كتب ڤالتر بنيامين وأدورنو وهورخيمر ولوكاش المترجمة عن الألمانية وماشيري وألتوسير المترجمة عن الفرنسية وغيرهم من نقاد العالم الأنجلو فوني أمثال فردريك جيمسون الأمريكي، وتيري إيجلتون البريطاني، وغيرهما من الذين تبنّوا النظريات الماركسية (بالجمع وليس الإفراد كما نتوهم عادة) في دراسة الأدب ونقده، وذلك فضلا عن أهم الدوريات والمختارات التي لا تكاد تترك أحدا.

ولا أزال أذكر دهشتي الفرحة، وأنا أرى كل ما كنت أحلم باقتنائه، أو الاطلاع عليه، متاحا، ميسورا. ودفعت كل ما كان معي من دولارات لم تكن قليلة، متحمسا للعودة مرة أخرى، وقد فعلت ذلك، بعد أن حصلت على زاد مالي كاف من البنك الذي كان مرتبي يحال إليه. ولم أتوقف عن الذهاب إلى هذه المكتبة التي حسبتني فيها

علي بابا الذي دخل المغارة المحظورة، وأخذت أصيح بيني وبين نفسي: هذا ما كنت أريده، هذا ما كان يحدثنا عنه فلان!!

ولفت انتباهي كتاب صغير الحجم كتبه تيري إيجلتون. وكان بعنوان: «الماركسية والنقد الأدبي» فبدأت بقراءته، ولم أنم إلى أن أتممت قراءته. وكان الكتاب خير مدخل إلى النقد الأدبي الماركسي المعاصر بتياراته وتحولاته. واكتملت في ذهني، بعد قراءته، خارطة هذا النقد، وعرفت موضع كل مؤلف في التيار الذي ينتسب إليه، أو الذي يختلف معه. وأضيف إلى ذلك كتابات وأسماء كنت أقرأ عنها للمرة الأولى. وبدأت على الفور في ترجمة الكتاب الذي لم يستغرق أياما معدودة بسبب حماستي المتأججة، وجعلته دليلي في شراء كتب من لم أكن أعرفهم ابتداء من نقاد مدرسة فرانكفورت، وليس انتهاء بأتباع ألتوسير وأشباهه، مميزا للمرة الأولى بين التيار العلمي والتيار المثالي في الفكر والنقد الأدبي الماركسي. وكانت المفارقة الصادمة أني اكتشفت أن زميلي الذي سبقني إلى معرفة هذه الأشياء، فيما توهمت، كان يحدثنا عن أفكاره وخواطره هو، وليس عن محتوى الكتب التي لم أجد فيها شيئا من كلامه الذي حفظته في ذاكرتي. وكانت صدمة موجعة ودرسا تعلمت منه أن لا أثق بكلام أحد عن

كتاب أو مفكر إلا بعد أن أتأكد بنفسي، فالمرء لا يلدغ من مدَّعٍ مرتين!

وقد حرصت على أن أتيح ترجمة كتاب إيجلتون لطلابي في جامعة القاهرة بعد عودتي إلى مصر. وظللت أنتظر الوقت المناسب لنشر الكتاب إلى أن أصدرت مجلة «فصول» -عندما كنت نائبا لرئيس تحريرها- عددا خاصا عن «الأدب والأيديولوچيا» فدفعت بترجمة الكتاب الذي نشر في هذا العدد، وسرعان ما تلقف الترجمة بعض الأصدقاء في المغرب، ونشروها أكثر من مرة لأهمية الكتاب.

وأعتقد أن هذا التدليس العلمي الذي تعوده زميلي الماركسي كان جزءا من مناخ شبه عام، إن لم يتسم بالتدليس، فقد كان يتسم بعدم متابعة الجيد في العالم، والجمود في الوضع الذي فارقته حركة الفكر إلى الأمام، قاطعة من المراحل ما جعل المشهد مختلفا اختلافا جذريا، ولا تنتظر هذه الحركة المتسارعة، متباطئا كي يلحق بركبها، أو تتسامح مع من ثبت على ما هو عليه، فعاقبته بالانطلاق بعيدا عنه، وكلما ازدادت بعدا ازداد هو وأمثاله تقهقرا إلى الوراء. ولذلك كنت أندهش، ولعلي لا أزال، من أن كتاب «في الثقافة المصرية» الذي اشترك في كتابته محمود أمين العالم وعبد العظيم أنيس صدر في السنة نفسها التي صدر فيها كتاب «المدارات الحزينة» الذي نشره كلود ليفي شتراوس

سنة 1955، فكان إعلانا ليس عن الموجة البنيوية فحسب، وإنما عن الابتداء من وجودية چان بول سارتر، وماركسية هنري لوفيڤر وأتوسير ولوسيان جولدمان، وهرمنيوطيقا بول ركور، فضلا عن الاستجابات الإيجابية والسلبية لتجمعات فكرية كثيرة داخل فرنسا وخارجها.

وكان كتاب «المدارات الحزينة» يخلط الذكرى بالتجارب الشخصية والملاحظات الفكرية. ولذلك توقف عنده جيفري ميلمان في دراسته البنيوية الذي سبق أن أشرت إليها في موضع الحديث عن «السيرة الذاتية»، كما كان الكتاب يُجسّد وضعا فكريا وعلاقات إنتاج فكرية لا تقل تقدما عن أدوات إنتاجها، في أفق حواري مفتوح، لا حجر فيه على اجتهاد أو اختلاف، أو حتى خروج على الراسخ، وفي المقابل، كان كتاب «في الثقافة المصرية» يعكس نوعا من «الدوجما» العدائية والجمود الذي لم يخلُ من أصولية قمعية، وذلك بدليل ما كتبه العالم عن الوجودية وعن توفيق الحكيم، أو ما كتبه عبد العظيم أنيس عن نجيب محفوظ الذي حاول اختزاله، استهانة بقيمته، في صفة «كاتب البرجوازية الصغيرة»، المنظور إليها بوصفها عيبا وموقفا رجعيا، كما لو كان نجيب محفوظ الروائي مدانا بالانحياز إلى طبقة غير تقدمية، انتهازية، ممزقة بين رغبتها في صعود السلم الطبقي و خوفها من الانحدار إلى أدناه.

وربما كانت هذه النظرة الضيقة راجعة إلى دوران التيار الحزبي الذي انتسب إليه محمود العالم وعبد العظيم أنيس، خلال تلك المرحلة، في مدار الاتحاد السوفييتي المغلق الذي ظل يتميز بضيق أفقه الثقافي في إزاء قضايا الحداثة والتجريب، وتيارات الاغتراب والعبث التي اقترنت بها أسماء تبدأ من الكاتب التشيكي فرانز كافكا (1883 - 1924) ولا تنتهي بالكاتب ذي الأصل الإيرلندي صامويل بيكيت (1906 - 1989). وظني أن هذا هو السبب في عدم اطلاع كل من العالم وأنيس، فيما تؤكد صفحات كتابهما بأفكاره وأحكامه، على التطورات والتجديدات التي حدثت في مجال النقد الأدبي الماركسي الذي يعتمدان عليه من ناحية، وعدم تفاعلهما مع التيار الماركسي المنفتح الذي تمثل في كتابات ليون تروتسكي (1879 - 1940) من ناحية موازية. ويبدو أن كلا المؤلفين آثر السير في التقاليد الستالينية التي ظلت معادية للتروتسكية وصاحبها، حتى بعد أن اغتاله عملاء ستالين في المكسيك التي وجد فيها ملاذه الأخير، سنة 1940. ولكن بعد أن ترك كتابه «الأدب والثورة» الذي كان معروفا حتى قبل ترجمته إلى الإنجليزية سنة 1960، وقبل أن يترجم بول. ن. سيجل بعض مقالاته التي جمعها وحررها، ونشرها بعنوان: «في الأدب والفن» بالإنجليزية سنة 1970.

والمفارقة الدالة أن كتاب العالم وعبد العظيم أنيس نشر بعد عام واحد من التمرد على الستالينية والجدانوفية معا، وذلك منذ أن كتب إيليا إهرنبورج (1891 - 1967) روايته الشهيرة «ذوبان الثلوج» التي نشرها سنة 1954، بعد عام واحد من وفاة ستالين سنة 1953، وقبل عام واحد من صدور كتاب «في الثقافة المصرية» سنة 1955. ويعني ذلك أن التيار الستاليني لم ينته بموته، وإنما ظل مستمرا بقوة الدفع الذاتي، على الأقل في الفصائل الماركسية التي ظلت دائرة في مداره المغلق. ولم ينتبه العالم وأنيس إلى هذه المفارقة في منتصف الخمسينيات التي ظهر فيهما كتابهما، في سياق عالمي أخذ في التحول عن الستالينية والجدانوفية، فكريا وإبداعيا، والتحرر من واقعيتها الاشتراكية، شيئا فشيئا، إلى أن وصل إلى بديل لها فيما أطلق عليه روجيه چارودي: «واقعية بلا ضفاف». وهو عنوان الكتاب الذي أصدره -بالفرنسية- بعد ست سنوات فحسب من كتاب العالم وأنيس، أي سنة 1961، وألحقه بكتابه «ماركسية القرن العشرين» سنة 1966، متأثرا -بلا شك- بالحيوية التي أثارتها المجادلات البنيوية والوجودية، جنبا إلى جنب متغيرات الفكر الماركسي المتجدد.

ولذلك لم يكن من الغريب أن يهاجم منقف ماركسي كبير، منفتح الوعي، عارف بما يحدث في مجاله من

تجدد وما جرى فيه من تنوع، وهو أبو سيف يوسف، كتاب «في الثقافة المصرية». وكان ذلك في مقال نقضي، هو وثيقة مضيئة في ذاته، بعنوان: «نقادنا الواقعيون غير واقعيين» بعد عاصفة الاحتجاج التي أثارها كتاب «في الثقافة المصرية» فور صدوره. وقد نشر أبوسيف يوسف مقاله في مجلة «الثقافة الجديدة» تحت اسم مستعار، وهو أمر طبيعي في تلك السنوات.

وكان يمكن أن نلتمس لخطاب «في الثقافة المصرية» -في أصوليته الماركسية- بعض العذر الذي يرجع إلى تصاعد غياب الديمقراطية، في السياق الفكري السياسي الذي صدر فيه الكتاب، بعد أقل من عام على أزمة مارس 1954 الشهيرة التي انتهكت فيها الديموقراطية، وديست بأقدام العسكر الذين جعلوا كل من ليس معهم، أو اختلف عنهم، عدوا يستحق الاستئصال، مصادرين بذلك إمكانات الحوار في المجتمع، وإمكانات تطوير علاقات المعرفة وأدوات إنتاجها على السواء. ومع ذلك فقد ظل النقد الأدبي اليساري، خصوصا في تيار العالم وأنيس، وحتى بعد كتاب «في الثقافة المصرية»، متخلفا عن متابعة ما يحدث في مداره العالمي المتسارع في إيقاع متغيراته، خصوصا خارج الستار الحديدي الذي تهاوى، على نحو ما وصفه إيليا إهرنبورج باستعارة «ذوبان الثلوج» في الرواية التي لم يجرؤ على نشرها إلا بعد وفاة ستالين.

وظني أن هذا هو السبب في المفارقة الثانية، وهي أنه في الوقت الذي كان الحوار دائرا بين أنصار البنيوية الشكلية والبنيوية التوليدية، أو بين الأولى والتيار العلمي أو المثالي في الماركسية، كانت أغلب التيارات اليسارية العربية لم تفارق، بعد، المدار المغلق لمفاهيم «الواقعية الاشتراكية»، ولذلك كانت الكتب الأسبق إلى الترجمة كتب النقد الأدبي الماركسي التقليدي لمؤلفين من طراز أندريه چدانوف (1896 - 1948) وجيورجي بليخانوف (1818 - 1917) الذي اختزل كتابه الأساسي حامد أحمد حمداي في ترجمة شائهة بعنوان: «الأدب بين المادية والمثالية» طبعتها مكتبة المعارف في بيروت سنة 1956، ومكسيم جوركي الذي ترجم فؤاد دواره مختارات من كتاباته بعنوان: «الأدب والحياة»، وراجعها علي الراعي، ونشرتها الدار المصرية للتأليف والترجمة سنة 1965.

وهما كتابان يدلان على غيرهما في مدى النقد الأدبي التقليدي للماركسية، في ممارساته الأدبية التي اقترنت بقرارات فوقية، تفرض التحزُّب على الأدباء، وذلك منذ أن تبنَّى مؤتمر الكُتَّاب السوفييت نظرية «الواقعية الاشتراكية» التي صاغها جوزيف ستالين (1879 - 1953) ومكسيم جوركي (1868 - 1936)، وأعلنها أندريه چدانوف (1896 - 1948) الذي تولى تنفيذ سياسة ستالين الثقافية التي تفرض على الكُتَّاب الالتزام

بتعاليم الحزب، والابتعاد عن حرية الكتابة بمعناها البرجوازي، خصوصا بعد انتهاء دور البرجوازية التقدمي في أدب العالم فيما قيل، وانحطاط الثقافة العالمية منذ عصر النهضة، ومن ثمّ العداء لكل التيارات الخارجة على معايير الواقعية الاشتراكية، ابتداء من أعمال جويس، مرورا بأعمال المستقبليين والشكليين، وليس انتهاء بأعمال كافكا.

وكان ذلك يعني اشتداد رقابة الحزب على الأدباء والمعاقبة القاسية للخارجين على القواعد، وقد تولى رئيف خوري تعريب التقرير الذي قدّمه چدانوف إلى الحزب الشيوعي سنة 1934 ونشر التعريب في كتاب بعنوان: «إن الأدب كان مسؤولا»، ونشرته دار عويدات في لبنان سنة 1948، العام نفسه الذي توفي فيه چدانوف. ومضى رءوف خوري في الاتجاه نفسه فأعاد صياغة المبادئ الأساسية في التقرير ونشرها في كتاب ثان بعنوان: «الأدب المسؤول» الذي طبع في بيروت سنة 1968، بعد عشرين عاما من تعريب تقرير چدانوف، وذلك في المسار نفسه الذي مشى فيه جلال فاروق الشريف، مطوّرا مبادئ الالتزام في عنوان يستعيد عنوان تعريب رءوف خوري، وهو: «إن الأدب كان مسؤولا» المنشور سنة 1978 بعد عشر سنوات من صدور «الأدب المسؤول».

وذلك في تتابع بدا كما لو كان يسترجع السياق الذي انتحر فيه مایاكوفسكي عام 1930، وأدين فسيفولد بييرهولد المنتج المسرحي التجريبي الذي ترك عمله الرائد أثرا عميقا في أعمال بريخت، فاتُهم بالانحطاط لأنه أعلن جهارا «أن هذا الشيء التافه العقيم المسمّى بالواقعية الاشتراكية لا علاقة له بالفن». وكانت نتيجة هذا التصريح اعتقاله في اليوم التالي لإعلانه. وسرعان ما مات واغتيلت زوجه، وذلك في تصاعد السطوة الچدانوفية (نسبة إلى چدانوف) وانغلاق مدار «الواقعية الاشتراكية» التي شاعت بقوة القمع، وتوثّنت بالجمود.

ويبدو أن التبرير الخاص بانتساب «في الثقافة المصرية» للتيار الستاليني له وجاهته، خصوصا أن الكتاب خلا من رحابة أفق تروتسكي في نقاشه العميق مع خصومه الفكريين، من أمثال الشكليين والمستقبليين، حيث تجلت محاجته العميقة ورحابة صدره في قبول المختلف، وذلك على النقيض من التيار الستاليني الچدانوفي الذي كان يستبعد ولا يناقش، ويستبدل الاستئصال المادي والمعنوي بالحوار العقلاني الذي يخلو من القمع أو التسلط.

وكان علينا -نحن القراء- أن ننتظر إلى عام 1966 بعد عودة محمود أمين العالم من فرنسا التي كانت متوهجة بالجدال البنيوي، خصوصا خارج الستار الحديدي الذي

تهاوى، فيترجم سعد زهران رواية «ذوبان الثلوج» التي نشرتها دار المعارف بالقاهرة سنة 1966، ويكتب العالم سلسلة من المقالات عن صعود التيار البنيوي الذي أطلق عليه «الهيكلية»، وتعرّض -على عجالة- لأفكاره وأفكار خصومه، خلال شهر أكتوبر سنة 1966 في مجلة «المصوّر» القاهرية.

وكانت مقالة محمود العالم عن «الأدب وقوانين السوق» التي نشرها في هذه السلسلة في أوائل نوفمبر سنة 1966، تقديما للمدرسة الاجتماعية الجديدة لدراسة الأدب في فرنسا، ممثلة في إنجاز لوسيان جولدمان الذي عرضت المقالة بعض أفكاره عن رؤية العالم، ولكن على نحو متحيز للوكاش القديم، ومتعجل بما لا يتناسب ومكانة كتابي جولدمان الأساسيين عن «الإله الخفي» أو «نحو علم اجتماع الرواية»، وزاد من هشاشة الموقف المعرفي للعالم عدم تمثله، أو اطلاعه على النقد العميق الذي وضع البنيوية الشكلية موضع المساءلة، خصوصا من نقاد اليسار الأمريكي أمثال فردريك جيمسون، أو غيره من نقاد البنيوية التي ظلت شكلية، معزولة عن التاريخ، في تصور ممثلي أطياف اليسار المختلفة، في أوروبا والولايات المتحدة.

ولكي ندرك الفارق ، على نحو حاسم. يمكن أن نضع ما كتبه أمثال العالم عن الأدب بوجه خاص، والفن بوجه عام، وما كتبه أمثال لويي ألتوسير، وماشيري في

فرنسا، أو ما كتبه تيري إيجلتون في إنجلترا، وفردريك چيمسون في الولايات المتحدة.

وكان ذلك بداية سياق مصري -عربي متغير، تصاعد مع انفتاح ومراجعة ما بعد كارثة 1967 من ناحية، وتسارع إيقاع ذوبان الجليد السوفيتي من ناحية موازية، الأمر الذي أدى إلى ترجمة كتابات النقد الأدبي الماركسي، البعيدة عن التصلب والتعصب الچدانوفي، فترجم حليم طوسون -وفؤاد حداد- كتاب جارودي «واقعية بلا ضفاف» سنة 1968. وترجم أسعد نديم كتاب إرنست فيشر (1899 - 1972) «ضرورة الفن» سنة 1970، وكان كلا الكتابين انقطاعا عن «الواقعية الاشتراكية» بنزعتها القمعية المصاحبة، وذلك في موازاة ما حدث في بيروت من ترجمة كتاب روچيه جارودي المتمرد على جمود الماركسية التقليدي التي استبدل بها ما جعله عنوانا لكتابه: «ماركسية القرن العشرين» الذي ترجمه نزيه الحكيم، ونشرته دار الآداب البيروتية سنة 1972.

وكان من الطبيعي -والأمر كذلك- أن يتغير منظور محمود أمين العالم النقدي، وأن يفارق الرؤية المنغلقة إلى رؤية رحبة، تجلّت في كتابه عن نجيب محفوظ سنة 1970. وهو الكتاب الذي صدر في العام نفسه الذي صدر فيه كتاب هنري أرڤون عن چورچ لوكاش (1885 - 1971) الذي ترجمه عادل العوا، ونشر في دمشق 1970،

قبل عامين فحسب من ترجمة نايف بلوز لكتاب چورچ لوكاش «دراسات في الواقعية» سنة 1968، وترجمة أمير إسكندر لكتاب لوكاش الآخر «دراسات في الواقعية الأوروبية» (1972) الذي قدم فيه لوكاش نفسه -وكان لا يزال حيا- للترجمة العربية لكتابه الذي راجعه وترجم مقدمة لوكاش عن الألمانية عبد الغفار مكاوي، وذلك في السياق الذي تصاعد فيه الإقبال على كتابات لوكاش، وتزايدت دوائر استقباله بوصفه أكثر انفتاحا بالقياس إلى الحراس الأصوليين، ووصل الإقبال على ترجمة كتاباته درجة بالغة الدلالة في مدى تصاعد رغبة الانفلات من المدار الستاليني المغلق.

وكانت النتيجة أن تُرجم خلال السبعينيات بالدرجة الأولى (فيما عدا كتاب «الماركسية الصحيحة» بيروت 1964) عددا غير قليل من كتبه الدالة، منها: كتاب أرثون عنه في دمشق (1970) وكتابه «معنى الواقعية المعاصرة» بترجمة أمين العيوطي في القاهرة (71) وكتابا «دراسات في الواقعية» (1968) و «دراسات في الواقعية الأوروبية» في القاهرة سنة 1972 بعد وفاته بعام واحد. واستمرت معدلات الترجمة صاعدة، فصدرت ترجمة «الرواية التاريخية» في بغداد (1978) و «التاريخ والوعي الطبقي» بيروت 1979 و«الأدب والفلسفة الوعي الطبقي» في بيروت (1980) و «جوته وعصره» في بيروت (1984) و«البديل الحقيقي:

ستالينية أم ديمقراطية اشتراكية» (1990) و «توماس مان» في بيروت 2000.

وكان تصاعد معدلات ترجمة لوكاش علامة دالة على الانتقال، من نظرية «الواقعية الاشتراكية» إلى نظرية «الانعكاس» في مفهومها الأرحب نسبيا، على الأقل من منظور المتعاطفين معها، أو الذين لا يزالون يتمسكون بها. وفي الوقت نفسه، تأصيل مرن لمعنى «الواقعية» التي لا تنغلق في عصر أو تيار، أو حتى أسلوب فني واحد، خصوصا بعد أن أعلن لوكاش -في ختام تقديمه للترجمة المصرية لكتابه «دراسات في الواقعية الأوروبية» (الذي نقله عن الألمانية عبد الغفار مكاوي) مؤكدا أن «الواقعية ليست أسلوبا، فضلا عن أنها ليست تكنيكا للتعبير الأدبي. إن الواقعية في الحقيقة نزوع إلى تصوير المشكلات الرئيسية للوجود الاجتماعي والبشري.. وهي منهج التشكيل الفني.. للواجبات الملقاة على عاتق الأديب منذ عهد هوميروس إلى اليوم. ولهذا نجد أن الواقعية تجدد نفسها في أعمال كل فنان عظيم».

ويعني ذلك -في التحليل الأخير- أن ليس على أديب اليوم أن يكتب كما كتب بلزاك أو تولستوي، بل إن من واجبه، على العكس من ذلك، أن يعبر عن مشكلاته الخاصة بأسلوبه الخاص وبطريقة توائم مشكلاته النوعية. والمسافة بين هذا المنظور في السنة الأخيرة

من حياة لوكاش والمنظور الذي قدّمه كتاب «في الثقافة المصرية» سنة 1955، هي المسافة بين الانغلاق والانفتاح، «الواقعية الاشتراكية» المحصورة في زمن ومكان وفكر بعينه و«الواقعية» المجاوزة للأزمان والمناهج والأماكن، والتي تتجدد مع كل كتابة إبداعية أصيلة.

وكان ذلك يعني مجاوزة التعارضات التي أدت إلى المعارك التي كانت جعجعة بلا طحن بين أنصار الأدب للأدب والأدب في خدمة الشعب، فقد كان كلا الطرفين، منذ أوائل الخمسينيات إلى منتصف الستينيات على الأقل، بعيدين عن الدنيا الحية في العالم الذي اندفعت قاطرته الفكرية، ومضت تاركة هؤلاء وهؤلاء، محلك سر، في مواقعهم التي سرعان ما أدركوا تخلفها وجمود منظورها، لكن بعد فوات الأوان فيما يبدو.

تباين معرفي حاد

كانت المسافة كبيرة بين ما تعلمته في القاهرة وما أخذت أتعلمه بفضل إقامتي في جامعة وسكنسن -ماديسون، طوال العام الدراسي 1977 - 1978 الذي انفتحت لي فيه آفاق من المعرفة التي لم أكن أعرف عنها شيئا معمقا من قبل، فأدركت هوة المسافة بين التخلف والتقدم، ومعنى أن يكون المرء حبيس مدار منغلق معرفيا، مقابل فضاء مفتوح من المعرفة التي لا تكف أدوات إنتاجها وعلاقاتها عن التجدد والتحول. ولذلك لم تتوقف صدمتي بالجديد الذي حرصت على تعلمه، مقابل سخطي الذي تزايد على جمود أوضاعنا الثقافية بوجه عام، والمستوى الأكاديمي المتدني لجامعاتنا بوجه خاص. ولم أكف عن طرح السؤال المضمر عن الهوة الفاصلة بين العالمين، العالم الذي أصبحت أعيش تقدمه، ولو لفترة محدودة من الزمن، والعالم الذي تركته ورائي بأوضاعه الثقافية التي ظلت خانقة من الحركة الصاعدة الحرة في مستويات التقدم المعرفي.

وبالطبع، كانت المقارنة المضمرة والمعلنة تلح على الوعي في مدى أفق الحياة الجديدة، ابتداء من مظاهر الديمقراطية السياسية، مرورا بالحريات الأكاديمية التي لا حدود لها، في موازاة الحريات الاعتقادية. وفي الوقت الذي كانت فصائل اليمين واليسار المعارضة، في

عالمنا العربي السعيد، تخرج من السجن لتعود إليه، في دورات القمع والنفي والتشريد التي كانت، ولا تزال، جزءا من الحياة العربية . كانت الحرية، في الولايات المتحدة، متاحة للجميع، خصوصا قبل ظهور الرجعية الريجانية (نسبة إلى الرئيس ريجان الذي كان بداية التراجع الفكري الأمريكي، لكن ظل عاجزا عن تحطيم استمرار مقاومة التقاليد الليبرالية القوية)، وذلك على الرغم من كل ممارسات القوى الضاغطة على الحرية المقترنة بهذه التقاليد، أو قيامها على الازدواج أو التحيز في عديد من القضايا، فالمهم أننا لا نزال نحتاج إلى عشر مساحة هذه الحرية في أوطاننا السعيدة، على كل المستويات، وفي كل المجالات.

ولم تكن الشجون المعرفية أقل أو أكثر إيلاما من الشجون المتصلة بالوعي السياسي الاجتماعي، فالكل سواء في الأفق الذي يفرض عتمته عند المقارنة بين المتقابلات، فالضد يظهر حسن الضد كما يظهر قبحه على السواء. ولأني كنت أرى التقابل من منظور العلوم الإنسانية التي أنتسب إليها بالعمل في مجال النقد الأدبي، فلم أستطع سوى أن ألاحظ أوجه السلب ما بين تيارات اليسار وتيارات اليمين في مجالات الدرس الأدبية. وكان وضع النقد الأدبي اليساري لا يختلف، كيفيا، عن وضع النقد الأدبي اليميني، وذلك في مدى الصراع الذي تركته ورائي ما بين دعاة الالتزام في الأدب، وأصحاب نظرية الانعكاس، وحارسي الواقعية

الاشتراكية من ناحية، ودعاة إسقاط الالتزام، وأصحاب نظرية الخلق، وحارسي ما نقلوه وتوقفوا عنده من أفكار ومبادئ «النقد الجديد» في العالم الأنجلو أمريكي من ناحية مقابلة. وكانت كفة التقابل بين القطبين المتضادين تميل إلى هذا الجانب أو ذاك، حسب مدى التعاطف أو النفور الذي يمكن أن يبديه النظام السياسي، في تقلبه ما بين القمع المباشر أو غض الطرف في مواقف مشروطة بتوجهاته، وبين الاستحسان أو التشجيع في مواقف مقابلة.

وكانت أسئلتي لا تنقطع، في داخلي، عندما أقارن بين ما تركت عليه أوضاع نقاد الالتزام ونظرية الانعكاس، نظرية وممارسة، وما أراه حولي من إنجازات لم أكن أعرفها، وأسماء نقاد ماركسيين جدد، صرت أعرفهم للمرة الأولى، ولم يكن لهم حضور مؤثر أو غير مؤثر على المثقفين العرب الذين انتسبوا، في النقد الأدبي، إلى اليسار. وكنت أتذكر فرحتي بصدور ترجمة كتاب إرنست فيشر (1899 - 1972) «ضرورة الفن» سنة 1970، وأستغرب عدم ترجمة كتابه الأهم «الفن ضد الأيديولوجيا» الذي كان ينطوي على فضح الأفكار الماركسية التقليدية، خصوصا في مدى الخلط بين التحزب والالتزام، وتضييق مفهوم الثاني بما يدني به إلى حال من الاتحاد مع الأول.

وكنت أقارن بين ما سبق أن قرأته وتعاطفت معه -في تحيزاتي اليسارية- فيما كتبه محمود أمين العالم

في نقده «البنيوية» الشكلية أو اللغوية بعنوان: «نقد جديد أم خدعة جديدة؟» في مقالة له، نشرتها مجلة «المصور» القاهرية، سنة 1966، وكتاب ريمون بيكار الذي اكتشفت أن العالم استعار عنوانه: «نقد جديد أم دجل جديد؟». وكان ريمون بيكار يعبر عن رفض النزعة اللانسونية، نسبة إلى الناقد الفرنسي «جوستاف لانسون» (1857 - 1934) التقليدية المتوارثة في السوربون، للهرطقة النقدية التي مارسها رولان بارت - من وجهة نظر ممثلي هذه النزعة- في كتابه «عن راسين» (1956) وذلك في سياق الهجوم الذي ردّ عليه رولان بارت بدراسته «النقد والحقيقة» سنة 1966، أي السنة نفسها التي نشر فيها محمود أمين العالم مقالاته عن اتجاهات الحركة الهيكلية (البنيوية) في فرنسا، ضمن السلسلة التي أطلق عليها عنوان: «البحث عن أوروبا».

ولذلك لم نسمع أحدا من نقاد هذا الاتجاه -فيما أعرف- يتحدث عن أفكار مدرسة فرانكفورت وتجديداتها الفكرية سواء عند ڤالتر بنيامين (1885 - 1971)، أو تيودور أدورنو (1900 - 1969)، أو هربرت ماركيوز (1898 - 1972)، أو ماكس هورخيمر (1895 - 1973) أو غيرهم، أو عند باختين (1895 -1975) وكشوفه، فضلا عن التيار الماركسي العلمي الذي قاده ألتوسير، ومضى فيه ماشيري في فرنسا وتيري إيجلتون في إنجلترا، مقابل التيار المثالي الذي يبدأ من

لوكاش، ولم يتوقف عند لوسيان جولدمان في فرنسا، واتخذ مجرى مغايرا مع فردريك جيمسون في أمريكا. باختصار، كان تيار النقد الأدبي العربي، في توجهه الماركسي بوجه عام، متخلفا عن المتابعة العميقة أو المضيفة لما يحدث في العالم حوله، شأنه في ذلك شأن التيارات المعادية له.

ولا أدل على ذلك -في التمثيل بالجزء عن الكل- من مقارنة حركة ترجمة كتابات لوسيان جولدمان من الفرنسية إلى الإنجليزية بحركة ترجمتها إلى اللغة العربية، حيث نجد أن الترجمات الإنجليزية أتاحت لقراء العالم الأنجلو أمريكي ما يلي من كتابات جولدمان:

1- «العلوم الإنسانية والفلسفة» ترجمة: هايدن وايت وروبرت أنكور، ونشر في لندن 1964.

2- «الإله الخفي» ترجمة: فيليب ثودي، ونشر في لندن 1964.

3- ما كتبه جولدمان «عن راسين»، تقديم: ريموند وليامز، وترجمة: ألاستير هاميلتون، دار ريفرز - كمبردج- إنجلترا سنة 1969.

4- «إيمانويل كانط» ترجمة: روبرت بلاك، المنشور في لندن 1971.

5- «الفلسفة والاستنارة» نشر في إنجلترا والولايات المتحدة 1973.

6- «من أجل علم اجتماع الرواية» ترجمة: آلان شريدان، لندن 1975.

7- «الإبداع الثقافي في المجتمع الحديث» سنة 1976.

8- «لوكاش وهايدجر: نحو فلسفة جديدة» ترجمة: وليام بولهور، لندن 1977.

9- «المنهج في علم اجتماع الأدب» ترجمة واختيار: وليام بولهور سنة 1980.

وكان ارتفاع معدلات ترجمة جولدمان، في السبعينيات، بمثابة استجابة إلى الحماسة الثقافية للبنيوية عموما، والتوليدية خصوصا، الأمر الذي جعل لمنهج جولدمان حضورا مؤثرا في العالم الأنجلو أمريكي، وأشاع كتاباته بين المهتمين بأبنية الإبداع الثقافي من حيث علاقات تولّدها عن الأبنية الاجتماعية.

أما عن ما يوازي هذه الحركة النشطة، في اللغة العربية، فلا سبيل إلى مقارنتها بما حدث في اللغة الإنجليزية. لقد ظل الأمر قاصرا على ترجمة مجموعة من المقالات القليلة جدا لجولدمان، ولم يجاوز ذلك إلى كتبه الأساسية، أو كتب البنيوية التوليدية بوجه عام. وإذا أضفنا تأخر التعرف العربي على أفكار جولدمان، إلى جانب ضآلة ما تُرجم له إلى اليوم، وجدنا خير دليل على عدم متابعة أغلب المثقفين اليساريين لجديد

جولدمان أو غيره. ودليل ذلك أنه في مقابل ترجمة ثمانية كتب من أعمال جولدمان إلى اللغة الإنجليزية، ما بين الستينيات والسبعينيات، لم يترجم إلى اللغة العربية كتاب واحد في هذه الفترة. وظل جولدمان مجهولا من القارئ العربي.

والكتاب الوحيد الذي أعرف ترجمته هو الكتاب الذي ترجمه بدر الدين عرودكي عن «علم اجتماع الرواية» سنة 1992 بعد عقد كامل على وجه التقريب من تحول الأضواء عن جو لدمان وتوجهه البنيوي. أما الكتب المؤلفة بالعربية، فلا أعرف منها سوى الكتاب الرائد الذي أصدره جمال شحيد عن بنيوية جولدمان بعنوان: «في البنيوية التركيبية: دراسة في منهج لوسيان جولدمان» الذي صدر عن دار ابن رشد في بيروت سنة 1982، وفي مقدمته إشارة إلى تأثر الجيل الجديد من نقاد اليسار (محمد برادة، وبطرس الحلاق وعبد النبي حجازي وطراد الكبيسي وجمال شحيد نفسه) بكتابات لوسيان جولدمان. وظل كتاب جمال شحيد الكتاب الوحيد الرصين عن جولدمان لم يلحق به كتاب آخر إلا سنة 1997، عندما نشر مركز الإنماء الحضاري كتاب محمد نديم خشفة، بعد تسعة عشر عاما، بعنوان: «تأصيل النص: المنهج البنيوي لدى لوسيان جولدمان»، وكان أقل في القيمة من كتاب شحيد.

ولا تختلف الصورة، جذريا، مع ترجمات ميخائيل باختين (1895 - 1975) إلى العربية رغم ما فيها من

بعض الإضافات أو الإيجابيات، فقد اكتشفت فرنسا باختين في الستينيات بعد أن أعادت قراءته جوليا كرستيفا وتزيفتان تودورف. وقد عرفت -شخصيا- اسم باختين للمرة الأولى من دراسة لوسيان جولدمان «علم اجتماع الأدب: الوضع ومشكلات المنهج» سنة 1967، قبل ثلاث سنوات من وفاته. وكان جولدمان يناقش تأويل كستيفا لباختين، واعيا بأهميته، وتتابعت الكتابات عنه وترجماته بعد ذلك، وانتقلت من فرنسا إلى إنجلترا، متأخرة نوعا، فترجم «رابليه وعصره» (968) و «الخيال الحواري» (1981) و«مشكلات شعرية دستويفسكي» (1984) و «أنواع الكلام ومقالات أخرى متأخرة» (1986) و «الفن وقابلية الإجابة، مقالات فلسفية مبكرة» (1990). يضاف إلى ذلك كتاب أو أكثر تنسب إلى باختين الذي قيل إنه استخدم أسماء مستعارة لإخفاء هويته، بسبب الاضطهاد الذي عاناه في روسيا السوفيتية، وأثناء منعه من العمل، ونفيه إلى كازاخستان.

ويوازي الترجمات الإنجليزية السابقة الترجمات العربية التي تشمل «الملحمة والرواية» ترجمة جمال شحيد، بيروت (1982) و «مشكلات شعرية دستويفسكي» ترجمة جميل نصيف التكريتي، بغداد (1986)، وذلك في العام نفسه الذي ترجمت فيه يمنى العيد ومحمد البكري «الماركسية وفلسفة اللغة». و جاء بعد ذلك «الخطاب الروائي» ترجمة وتقديم محمد برادة

(1987) و «الكلمة في الرواية» ليوسف الحلاق، دمشق (1988) و«أشكال الزمان والمكان في الرواية» ليوسف الحلّاق نفسه (1990)، وأخيرا «المبدأ الحواري» الذي ترجمه فخري خليل، بغداد (1992).

وتطرح المقارنة بين الترجمات الإنجليزية والترجمات العربية أربع ملاحظات، أولاها: أن أول كتاب تُرجم لباختين صدر بالإنجليزية بعد وفاته بإحدى عشرة سنة، بينما صدرت الترجمة العربية الأولى بعد ثمانية عشر عاما من الترجمة الإنجليزية الأولى. وثانيتها: أن الترجمات العربية جاءت بعد انفتاح اليسار العربي على الجدال الدائر بين البنيوية في حسن استقبال باختين الذي ما كان يمكن استقباله، أو حتى معرفته في الخمسينيات والستينيات، أو حتى السبعينيات التي ظلت فيها البنيوية- بنقيضها الشكلي والتوليدي- تشغل الدنيا والناس. وثالثتها أن الذين قدّموا باختين كانوا، ولا يزالون، ينتسبون إلى «الأجيال المحدثة أو الحداثية المغايرة للحرس القديم، سواء من حماة «الواقعية الاشتراكية» أو حماية نظرية «الانعكاس» أو حتى من أتباع لوكاش الذي اتّهمه برخت بتوثين الواقعية ومطالبة الأدباء -ضمنا على الأقل- أن يكتبوا على شاكلة الكُتّاب العظام للقرن التاسع عشر الذين ظل لوكاش يرى في إبداعاتهم المثل الأعلى للنموذج الواقعي الذي حلم به.

أما الملاحظة الأخيرة، فهي ندرة الترجمة الروسية، إلى درجة الاستثناء الذي يشبه الانعدام، ففيما عدا يوسف الحلاق فيما أظن، فترجمات باختين إما عن الفرنسية أو الإنجليزية، الأمر الذي يضع الدور الذي يقوم به المختصون في اللغة الروسية أكثرهم على امتداد الأقطار العربية، موضع المساءلة.

لكن تبقى النتيجة الأخيرة دالة على عدم المتابعة الحية، الآنية لتيارات النقد العالمي، حتى تلك التي تترك أصداءها في نظائرها العربية، فالفارق لا يزال كبيرا، يدل على تأخر المتابعة، وعدم ملاحقتها متغيرات العصر الذي تتزايد سرعة إيقاعه عاما بعد عام. وظني أن هذا هو السبب في أنه لم ينشأ إلى الآن، حوار أو تفاعل ما بين شمال البحر الأبيض وجنوبه في المجالات التي لا تزال بعيدة عن الإسهام العربي، إلا في حالتي إدوارد سعيد وأمين المعلوف اللتين لا يُقاس عليهما، فكلاهما يعمل في الولايات المتحدة (حالة الأول) أو فرنسا (حالة الثاني)، وكلاهما يعرف ازدواج الهوية الذي يمزق صاحبه بين عالمين، يجذبه -في النهاية- أكثرهما تقدما.

ومن باختين، الذي تحتفي به طوائف اليسار، إلى البينيويتين المتضادتين، الشكلية والتوليدية، وجدنا النتيجة واحدة دالة على بطء إيقاع استقبال التيارات الموازية الجديدة في العالم، ومن ثم تخلف حركة الترجمة التي تؤدي إلى تعميق المفاهيم والممارسات،

وتسهم في إمكانات الإضافة الموازية. ويكفي أن نأخذ من كتب كلود ليفي شتراوس عينة عشوائية تتمثل في كتابه التأسيسي «الأنثروبولوچيا البنيوية» الذي نشر بالفرنسية سنة 1958 وصدرت ترجمته الإنجليزية سنة 1963، أي بعد حوالي خمس سنوات، بينما صدرت الترجمة العربية التي نهض بها مصطفى صالح في دمشق سنة 1977، أي بعد تسعة عشر عاما من الأصل الفرنسي، وأربع عشرة سنة من الترجمة الإنجليزية. وقس على ذلك كتابه «المدارات الحزينة» الذي ترجمه إلى العربية محمد صبح، وقدم له فيصل دراج، سنة 2000/2003، أي بعد ما يقرب من نصف قرن على صدور الطبعة الفرنسية الأولى. وينطبق الأمر نفسه على كتاب «العقل الوحشي» الذي صدرت طبعته الفرنسية الأولى سنة 1962 وترجمته الإنجليزية 1966. أما الترجمة العربية قام بها نظير جاهل فصدرت 1984 بعنوان: «الفكر البري».

وما يقال عن ليفي شتراوس مثال على غيره، وذلك في السياق الذي يبدأ من الشكلية الروسية ولا ينتهي بالبنيوية. ولا أدل على ذلك من كتاب ڤلاديمير بروب (1895 - 1970) الشهير عن «مورفولوچيا الحكاية الخرافية» الذي صدر بالروسية سنة 1928، وصدرت ترجمته الإنجليزية سنة 1958، بينما ظهرت ترجمته العربية الأولى لإبراهيم الخطيب في الدار البيضاء، سنة 1988 وترجمته الثانية لأبي بكر أحمد باقادر وأحمد عبد

الرحيم نصر في جدة -السعودية 1989، وترجمته الثالثة لعبد الكريم حسن وسميرة بن عمو بعنوان: «مورفولوچيا القصة» في دمشق سنة 1996. وهو تكرار يمكن أن نحمد فيه تعدد محاولات الترجمة من حيث هي تأويل للنص المترجم، وإعادة إنتاج له بلغة غير لغته الأصلية، ولكن بما يفصل بين الترجمة الإنجليزية والترجمة العربية الثانية (فقد كانت الأولى عن الفرنسية) بأكثر من ثلاثين عاما، وبين الترجمة الفرنسية والترجمة الثالثة بأكثر من ذلك. وهو دليل فاقع على تخلف الوضع المعرفي الذي يزيد المتخلف تخلفا والمتقدم تقدما!

وما ينطبق على كتاب ڤيلاديمير بروب ينطبق على البنيويين الذي أعادوا تعريف العالم بالشكلية الروسية، وذلك من أمثال رولان بارت وتزيفتان تودوروڤ، فالأول صدر كتابه «درجة صفر الكتابة» بالفرنسية سنة 1953، وظهرت ترجمته العربية سنة 1970، وكتابه «أسطوريات» صدر بالفرنسية سنة 1957، وصدرت ترجمته العربية سنة 1988، وظهرت «مقدمة لتحليل القص» سنة 1966 بالفرنسية بينما ظهرت ترجمتها العربية سنة 1988، وظهر «النقد والحقيقة» بالفرنسية 1966 وبالعربية سنة 1985. وقس على ذلك «لذة النص» الذي صدر بالفرنسية سنة 1973 وبالعربية في العام نفسه، وهو وضع استثنائي. لكن تعود الأحوال إلى ما هي عليه في درس السميولوچيا الذي نشر بالفرنسية

1978، وبالعربية 1986. والمدى الزمني الكبير الذي يفصل الترجمة العربية عن أصلها يشمل تزيفتان تودوروف بالقدر نفسه، ابتداء من «الشعرية» الذي ظهر أصله الفرنسي سنة 1968 وترجمته 1987، و «الأدب العجائبي» الذي ظهر أصله الفرنسي 1970 وترجمته العربية 1994.

وتكفي الأمثلة السابق بوصفها علامة على حدة التباين المعرفي بين الثقافة العربية والثقافة الأوروبية من ناحية، وتخلف المتابعة من ناحية ثانية، وعدم ترجمة الأصول كاملة من ناحية أخيرة.ودليل ذلك أن كتب بارت المهمة (نسق الموضة، S/z، وغيرهما) لم تترجم بعد، وقس على ذلك كلود ليفي شتراوس التي لا تزال كتبه المهمة (مثل «المطهو والنيء» وما يشبهه) بعيدة عن دائرة الترجمة. وهو الأمر الذي يترتب عليه المعرفة الناقصة على الأقل لمن لا يعرف اللغة الأصلية. وإذا أضفنا إلى ذلك رداءة الترجمة، وعجمتها في حالات كثيرة، فالنتيجة هي ازدياد تشويه الوعي المستقبل لما يسعى إلى أن يدركه ويتلقاه. ولذلك لا نستطيع، إلى اليوم، أن نتحدث عن حركة نقدية عربية، قادرة على الإبداع الذاتي أو الحوار المتكافئ مع ما تتلقاه من نظريات نقدية غربية، فالإبداع يأتي بعد الحوار الخلّاق، أو في موازاته، والحوار -بهذا المعنى- تفاعل بين أكفاء، وليس بين أضعف وأقوى، أو متخلف ومتقدم.

والواقع أن ما ينطبق على نقاد البنيوية بجناحيها، في مدى تخلف المتابعة التي تأتي -غالبا- بعد فوات الأوان، ينطبق بالقدر نفسه على من سبقوهم من «نقاد نظرية الخلق» الذين تعلموا في الجامعات البريطانية والأمريكية، فما كتبه رشاد رشدي وحواريوه ظل أسير مرحلة بعينها من نقد ت. إس. إليوت (1888 - 1965)، وإذا حدث تجاوز لها، فإلى بعض أفكار آي. إيه. ريتشاردز في إنجلترا، أو بعض أفكار «النقد الجديد» في الولايات المتحدة، لكن دون عمق أو أصالة أو إضافة، والنتيجة هي عدم ظهور تحليلات نصية في و زن ما كتبه وليام إمبسون (1906 - 1984) في كتابه الشهير «سبعة أنماط من الغموض» (1930) أو ما كتبه كلينث بروكس (1906 - 1994) في كتابه «إناء محكم الصنع» (1947).

وأضيف إليهما أعلام «النقد الجديد» من أمثال: بلاكمور وآلان تيت، وروبرت بن وارن، وومزات ورينيه ويليك، وغيرهم من الذين أكدوا استقلال الأدب، بوصفه خلقا مكتفيا بنفسه، ولا يدرس إلا في ذاته، كما أسسوا لما أصبح يطلق عليه «القراءة الفاحصة»، أو ما أصلّوه عن الخيال من منظور جديد، وعن المفارقة،وغيرها من المفاهيم التي لم يسهم فيها الذين ملأوا الدنيا ضجيجا عن المعادل الموضوعي، والعمل الأدبي المستقل بنفسه، والذي لا غرض له إلا أن يوجد في حال وجود من

المتعة التي لا علاقة لها بالمنفعة العملية، أو الوظيفة الاجتماعية المباشرة أو غير المباشرة.

ولذلك لم يكن رشاد رشدي وأتباعه يتحدثون إلا عن مرحلة واحدة فحسب من مراحل إليوت الذي أحالوه إلى وثن، متجاهلين مراحله اللاحقة التي انقلب فيها على نفسه، مؤكدا الوظيفة الاجتماعية للأدب والنقد على السواء، مفارقا المعنى الضيق لشعار «المعادل الموضوعي» أو شعارات «العمل الأدبي المكتفي بنفسه» و «المستقل عن كل ما عداه».

والأطرف أن رشاد رشدي وحوارييه من الذين توقفوا عند المبادئ القديمة لحركة «النقد الجديد» لم يسعوا إلى الاهتمام، لا بإنجازات الشكلية الروسية التي لم يكن لها من هَمّ سوى تأكيد أدبية الأدب، ولا بالإنجازات البنيوية اللاحقة، وهي التطور الأحدث للنقد الجديد والثورة عليه في آن، خصوصا عند رولان بارت وتلميذه تودوروف في مرحلة البنيوية الشكلية، وهي الإنجازات التي أكدت أن الكتابة «فعل لازم» بالمعنى النحوي الذي لا يتعدى فيه الفعل إلى مفعول خارجه، وأن الأدب لا يمكن أن ندرسه إلا من حيث هو بنية مستقلة بنفسها، منعزلة بقوانينها وعناصرها التكوينية التي تصوغ خصائصها النوعية المحايثة من حيث هي أدب.

والمفارقة التي تدعو إلى التساؤل أن الذين أشاعوا أفكار «النقد الجديد» وسعوا إلى تطبيقها على الأدب العربي لم يكونوا من أقسام اللغة الإنجليزية، وإنما من

أقسام اللغة العربية، حيث انطلقت كتابات سهير القلماوي عن استقلال العمل الأدبي الذي ينبغي أن يدرس لذاته، ومن منطلق الكشف عن خصائصه الأدبية التي تجعل منه أدبا. وكانت مقالات سهير القلماوي عن جماليات التكرار في الشعر القديم، خصوصا الجاهلي، في موازاة كتابتها عن الأدب المعاصر، وذلك في السياق الذي كتب فيه شكري عياد عن البطل في الأدب والأساطير، والأدب في عالم متغير، مؤسسا منهجه الحضاري في النقد.

وهو السياق نفسه الذي سجل ريادة مصطفى ناصف الذي كان أول من كتب عن «الصورة الأدبية» - الموضوع الأثير عند النقاد الجدد- سنة 1958، وعن مشكلة المعنى في النقد العربي سنة 1965 الذي كان قراءة في التراث النقدي من منطلقات «النقد الجديد» الذي تجلى تأثيره في كتابه اللاحق «مشكلة المعنى في النقد الحديث» سنة 1970. وكانت هذه الكتب بمثابة الإطار المرجعي النظري والتطبيقي الذي انطلقت منه كتب مصطفى ناصف اللاحقة عن «دراسة الأدب العربي» و «قراءة ثانية لشعرنا القديم» تبعتها قراءة ثالثة ورابعة، وذلك في جهد استثنائي لم ينهض به أحد من أنصار «النقد الجديد» في أقسام اللغة الإنجليزية.

والطريف أن الأمر نفسه ينطبق على دراسة الأدب العربي من منظور الأسطورة، حيث تتابعت كتابات أحمد كمال زكي وإبراهيم عبد الرحمن، في المدى

الرمزي لدراسة الأسطورة في الشعر القديم. وكان ذلك في سياق التعاون بين إحسان عباس ومحمد يوسف نجم اللذين أسديا خدمة جليلة للوعي النقدي العربي، عندما ترجم الثاني كتاب ديفيد ديتش «مناهج النقد بين النظرية والتطبيق» بمراجعة إحسان عباس. وصدرت الترجمة في بيروت 1967، وكتاب ستانلي هايمان «النقد الأدبي ومدارسه الحديثة» الذي اشترك الاثنان في ترجمته، قبل سنوات من صدور الطبعة الثانية سنة 1981. وقل الأمر نفسه على ترجمة كتاب ماثيسون عن «إليوت الشاعر الناقد» في الفترة نفسها، وقبل ذلك ترجمة محمد إبراهيم الشوش لكتاب إليزابث درو «الشعر كيف نفهمه ونتذوقه» في بيروت 1961، وترجمة سلمى الخضراء الجيوسي لكتاب أرشيبالد مكليش «الشعر والتجربة» في بيروت 1963، وكذلك ترجمة جميل الحسني لكتاب م. ك. روزنتال عن «شعراء المدرسة الحديثة: ييتس وباوند وإليوت» سنة 1963.

وكان ذلك في السياق الذي ترجم فيه محمد مصطفى بدوي كتاب ريتشاردز «مبادئ النقد الأدبي» في القاهرة (1963) و «الشعر والعلم» (1960) وكتاب هاملتون «الشعر والتأمل» سنة 1960، وذلك قبل عام واحد من ترجمة عبدالرحمن ياغي لكتاب ألن تيت «دراسات في النقد» (1966)، وكلها إسهامات لم يكن لرشاد رشدي وأتباعه -من أنصار المعادل الموضوعي- أي وزن حقيقي فيها، فقد شغلهم جميعا عن العلم أمور من خارج العلم،

وليست من جنسه، فقصّروا تقصيرا ملحوظا في أداء دورهم الذي نهض بأغلبه النقاد المنتسبون إلى أقسام اللغة العربية بأكثر من معنى.

وكانت النتيجة أنني ذهبت إلى الولايات المتحدة دون أن يكون عندي فكرة معمقة عن التيارات المعاصرة، أو الحداثية، ودع ما بعد الحداثية، فكل الاتجاهات النقدية التي تركتها ورائي في مصر ما كانت تتيح لي إلا معرفة «النقد الجديد» في ترجماته العربية، أو ترجمة الكتب التي توضحه. ولذلك كان لابد أن أبدأ من حيث انتهيت في معرفة «النقد الجديد»، وأن أعيد تعليم نفسي حتى فيما كنت أحسبني على علم به من النقد الجديد الذي استكملت مصادره وتعمقت في مبادئه. ولم أجد من الغريب بعد ذلك بسنوات، حين عدت إلى القاهرة، واشتركت في تأسيس «فصول: مجلة النقد الأدبي» التي صدر عددها الأول سنة 1980، أن ألاحظ حدة الهجوم عليها من الذين بقوا على ثقافتهم التي لم يعملوا على تطويرها، ابتداء من حواريي رشاد رشدي إلى التيارات المناقضة، فأطلقوا على نقاد المجلة «نقاد الهرمنيوطيقا والسيميوطيقا» على سبيل الاستهزاء والاستنكار. وكان ذلك قبل أن تكرّ الأعوام، ويتعلق بعض هؤلاء بأذيال الهرمنيوطيقا والسيميوطيقا والبنيوية، عندما أصبحت تجارة رابحة، ولكن بعد أن تغير المشهد النقدي العالمي ودخل في

مدار غير المدار، فكانوا أشبه بالذي ذهب إلى الحج بعد عودة الحجيج!

ولا أكاد أستثني سوى شخصية أدين لها بتعريفي بالمبادئ الأولى للبنيوية، قبل أن أعرفها عن قرب، ومن خلال نصوصها الأساسية، أعني شخصية المرحوم زكريا إبراهيم -أستاذ الفلسفة- الذي لم ينل حقه من التكريم والعرفان. وكان قد أصدر سلسلة مهمة بعنوان: «مشكلات فلسفية»، فرغ فيها من كتاب «مشكلة البنية» سنة 1975، ونشره في العام اللاحق مباشرة. وكان الكتاب أول مدخل عربي جاد إلى هذا الأفق الجديد. قد يقال إنه اعتمد على مداخل فرنسية معروفة، تولى تلخيصها، لكن يبقى له شرف المحاولة والاجتهاد في متابعة المعرفة الحيوية المتجددة في مجاله المعرفي في إصرار جاد على متابعة الجديد، وعرضه بأمانة لم يعرفها زميلي الماركسي الذي تحدث كثيرا عن كتب لم يقرأها، ولعله لا يزال يمارس هوايته القديمة إلى اليوم!

وكانت مشكلتي الأولى مع طوفان المعارف الذي وجدت نفسي غارقا في دواماتها -المتاحة في مكتبات ماديسون- أن أقيم توازنا في عقلي بين الاتجاهات الشكلانية وما ماثلها في التوجه والاتجاهات المهتمة بالدور الاجتماعي الحيوي للإبداع بوجه عام، والأدبي بوجه خاص. وكان ذلك، ولا يزال، نتيجة إيماني -الحماسي في ذلك الوقت- بأن العمل الأدبي يوجد في

العالم، وينطوي على استجابة له في المدى الذي يسعى إلى استبدال آفاق الحرية بشروط الضرورة، وأن هذا العمل الذي وجد في العالم يعاد إنتاجه بفعل القراءة في عالم القراء أو النقاد الذي يعيشون، بدورهم، في عالم يتأثرون به، ويقرأون حسب أفق توقعاته، شاءوا أو ابوا. ويعني ذلك أن فعل القراءة هو نوع من التفاعل بين العمل والقارئ، ومن ثم فعل تفاعل بين زمن إنتاج العمل وزمن استقباله في إطار مجتمع ينطوي على أدوات إنتاج معرفته وعلاقاتها المؤثرة، في كل فعل من أفعال القراءة. والناتج هو عملية التفسير التي يعيد بها كل قارئ إنتاج العمل الأدبي الذي يقرأه، في شروط زمن إنتاجه أو شروط أي زمن لاحق.

وقد دفعني الحرص على هذا التوازن بالإعجاب بالناقد الشهير الفرنسي لوسيان جولدمان (1913-1970) الذي كان بمثابة الصورة المتقدمة من أفكار جورج لوكاش (1885 - 1971). وقد أعجبتني أفكار جولدمان في ذلك الزمان فانجذبت إلى كتابه الأشهر «الإله الخفي» الذي سعى فيه إلى إقامة تماثل بنيوي بين مسرحيات راسين وفلسفة باسكال والمجموعة الدينية «الچانسينست» في موازاة ما أطلق عليه «نبالة البلاط» في العلاقة بنبالة الرداء. وكان ذلك كله بحثا عن مكونات رؤية عالم يقف فيه البطل عاجزا وحيدا، معتقدا أن الله تخلى عنه وهجره، بعد أن وهبه ما هو فيه. وكان الكتاب أهم مؤلفات جولدمان التي سار في

فلكها كتابه عن «نحو علم اجتماع للرواية» الذي صدر بالفرنسية سنة 1964. ولكن لم ينطوِ على ثراء «الإله الخفي» الذي أرجو أن أراه مترجما إلى اللغة العربية، وأن يتحمس صديقي جمال شحيد لإكمال الترجمة عنه الأصل الفرنسي.

ولا أزال أومن بتمييز جولدمان الفارق بين العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية والاجتماعية، ومنها النقد الأدبي، بأن الأخيرة يقوم اختلافها على أساس أن ذات الباحث، ببعض الاحتراس، هي جزء من موضوع البحث. وهو الأمر الذي يعني أن تحقيق الحياد المطلق في هذه العلوم أمر مستحيل، وينبئ عن نزعة تجريبية (إمبريقية) غير عملية أو علمية. وكان لابد أن أنحاز إلى ما دعا إليه من بنيوية توليدية، مقابل البنيوية الشكلية التي تنغلق بالبنية عن التواريخ القائمة على النموذج اللغوي الذي صاغه العالم السويسري فردناند دي سوسير (1857 - 1913).

ولكن من الذي كان يمكن أن يقاوم البنيوية الشكلية أو اللغوية في ذلك الوقت الذي وصلت فيه إلى ذروة شيوعها في الولايات المتحدة، ذلك على الرغم من انحدارها في موطنها -فرنسا- بعد مظاهرات الطلاب الشهيرة سنة 1968 ورفعهم شعار: «فلتسقط البنيوية» ضمن اللافتات التي رفعوها، وكان ذلك في ثورتهم العارمة على قيود النسق والنظام التي تهوّست بها البنيوية. لكن رفض البنيوية (الفرنسية؟!) لم يكن قد

وصل إلى ذروة صعوده في الولايات المتحدة بعد ذلك، على الرغم من الجدال الحاد الذي دار حولها بين خصومها وأنصارها. ولكن هذا الجدال لم يمنع من تحولها إلى موضة بالغة الذيوع في الجامعات الأمريكية التي استجابت إلى غواية البنيوية الفرنسية ووعودها.

وقد عرفت ذلك منذ الأسبوع الأول في الجامعة، فقد ترك لي الصديق داستن كاول الذي حللت محله حجرة مكتبه التي كانت تضم مكتبة تتزاحم على أرففها الكتب التي كانت محل اهتمام الحياة الأكاديمية الأمريكية في ذلك الوقت. ولم تكن هذه الكتب تتصل بدراسة الأدب العربي إلا في جانب منها، فأغلبها ترجمات إنجليزية لما كان قد صدر إلى عام 1977 لكتب كلود ليڤي شتراوس (1908 - 2009) ورولان بارت (1915 - 1980)، وتودورڤ (المولود سنة 1939)، وجيرار جينيت (الذي اهتم بتحليل السرد)، وميشيل فوكو (1926 - 1984) الذي كان ينفي عن نفسه صفة البنيوية على طريقة: «شرف لا أدّعيه، وتهمة لا أدفعها»، وچان بياجيه صاحب أول كتاب تنظيري عن البنيوية (1896 - 1980)، وچاك لاكان (1901 - 1981) الذي فتح أفق التحليل النفسي للبنيوية، وكذلك غيرهم من أعلام البنيوية الفرنسية وفرسانها، جنبا إلى جنب الكتابات الأمريكية عنها، أو المختارات التي تقدم عددا من النصوص الممثلة للبنيوية وتوجهاتها أو سياقاتها، وذلك مثل الكتاب الذي حرره ريتشارد وفردنان دي جورج بعنوان

«البنيوية: من ماركس إلى ليفي شتراوس»، وصدر سنة 1972، والكتاب الذي حرره وقدم له چاك إهرمان بعنوان: «البنيوية»، وصدر سنة 1970، وكان في الأصل عددا خاصا أصدرته مجلة «دراسات فرنسية» في جامعة ييل سنة 1966.

وكانت هذه الكتب مصدر جذب لعيني ويدي، فظللت أتصفحها، وأتعرف عليها، وأبحث عنها في مكتبة بيع الكتب المواجهة لمبنى المكتبة، وكانت تضم إلى جوار هذه الكتب عشرات غيرها من الدراسات التي كتبها بنيويون فرنسيون وترجمت إلى الإنجليزية، أو دراسات عن البنيوية بأقلام إنجليزية ابتداء. وكانت كتب داستن كاول التي اشتريت مثلها، وبالإضافة إليها، بداية مكتبة الدراسات البنيوية التي اقتنيتها، ولا تزال تحتل الأرفف المكتظة بها في مكتبتي الخاصة.

ولا يمكن أن أنسى -في هذا السياق- معرفتي بدور رومان ياكوبسون (1896 - 1982) الروسي الأصل الذي يعد الأب الروحي للبنيوية والطاقة المحركة لها لعقود من الزمان. وقد دخل جامعة موسكو سنة 1914 وحصل منها على درجته العلمية الأولى. وترك موسكو مع الثورة الشيوعية، قاصدا تشيكوسلوفاكيا سنة 1920، حيث أكمل دراسته في جامعة براغ التي حصل منها على درجة الدكتوراه، وظل يقوم بالتدريس في جامعة «مساريك» ما بين 1935 إلى 1939 -زمن الاحتلال النازي الذي دفعه إلى الفرار إلى إسكندنافيا. وهاجر إلى

الولايات المتحدة سنة 1941، وقام بعد ذلك بالتدريس في الجامعة الحرة للدراسات العليا في نيويورك (42-46) ثم جامعة كولومبيا (1946) وهارفارد (1949) ومعهد ماساشوستس للتكنولوچيا -إم. آي. تي- (1957)، وقد انطلق عمله من مبادئ علم اللغة عند دي سوسير (1857 - 1913) الذي نشر تلامذته -بعد وفاته- دروسه في الكتاب الشهير الذي صدر سنة 1915، فقلب موازين البحث اللغوي والأدبي، وتأثر به ياكوبسون الذي تأثر بفلسفة الظواهر عند رومان إنجاردن (1893 - 1970) وإدموند هوسرل (1859 - 1938) خلال امتدادها في سميوطيقا شارلز بيرس (1914 - 1939).

وأشهر إنجازات ياكوبسون في اللغويات وثيق الصلة بعمله الطويل في الدرس الأدبي، حيث بدأ حياته العملية بدرس العلاقة بين الأدب واللغة، مؤسسا لنفسه مسارا منهجيا مغايرا. وأصبح صديقا لعدد من شعراء الطليعة ورسّاميها، أمثال مايكوفسكي وخليبنيكوف من الذين أقر بتأثيرهم الشكلي عليه. واستمر يقدم العديد من الأطروحات المتعاقبة، في المجال الذي يصل بين اللغة والأدب، ابتداء من سنة 1919 التي طرح فيها مبدأ «الأدبية» الشهير، وبعده «العنصر المهيمن» مع «إطراح الألفة» و «نسقية العمل الأدبي». وكان ذلك في سياق تحوله من النزعة الشكلية إلى النزعة البنيوية التي أسهم في أنشطتها خلال مدرسة براغ اللغوية.

وظل عمله يتطور في الخمسينيات التي انتقل فيها من تحليل الملامح الصوتية المائزة إلى وصف المكونات الصغرى للبنية وأنساقها الصوتية، مؤكدا مبدأ الثنائية الضدية، وضرورة النظر الشامل إلى الأدب بما يؤسس «شعريته» التي أصبحت بشارة البنيوية اللغوية الصاعدة ووعدها. وظل وراء المد البنيوي الصاعد منذ أواخر الخمسينيات في الولايات المتحدة، ومن قبلها، حين هدى تلميذه كلود ليفي شتراوس، عالم الأنثروبولوجيا، إلى منهج التحليل البنيوي القائم على أساس لغويات دي سوسير بوجه عام، وبنية التحليل الصوتي بوجه خاص. وكان طبيعيا أن يدخل في حوارات سجالية وتفاعلات فكرية مع أعلام اللغة والفكر، وذلك في السياق الذي نشر فيه- بالاشتراك مع تلميذه السابق ليفي شتراوس -تحليلا بنيويا لقصيدة «القطط» لبودلير بوصفه -أي التحليل- نموذجا للدرس البنيوي الواعد.

ولم يتوقف ياكوبسون عن دفع البنيوية التي وصلت معه إلى ذروتها الأولى، في مؤتمر «الأسلوب في اللغة» الذي انعقد برعاية مجلس البحث للعلوم الاجتماعية، في جامعة إنديانا، في ربيع 1958. وتحول إلى نجم هذا المؤتمر بالورقة التي قدمها بعنوان: «بيان ختامي: الشعرية وعلم اللغة»، وهو البيان الذي أصبح به «عالم اللغة» بطل الزمن الصاعد للبنيوية في كل المجالات البحثية التي ارتبطت بها، وحامل بشارة الزمن القادم

الواعد بتحقيق الأحلام المنهجية البرّاقة للبنيوية. وكان بيان ياكوبسون بداية الصعود في موازاة انحسار أنصار النقد الجديد، وبقايا المدارس السابقة التي وجدت في رينيه ويليك (1903 - 1995) خير من يمثلها، حتى في تقهقرها أمام الموجة المندفعة من البنيوية التي أصبحت -بعد مؤتمر 1958 -محور اهتمام مجالات الأدب والاجتماع والنفس والتاريخ والدراسات الشعبية... إلخ.

وكان طبيعيا أن أحرص على اقتناء بحوث هذا المؤتمر التي حررها توماس سيبيوك وأصدرها في كتاب سنة 1960، وصدرت طبعاته المتلاحقة سنة 1966، ثم 1967، 1971، وذلك في تسارع إيقاع الإقبال عليه بوصفه تمثيلا لنقطة تحول منهجي بالغ الأهمية في مجال الدراسات الإنسانية والاجتماعية. ولا أزال أمتلك الطبعة الثانية التي اشتريتها من مكتبة بيع كتب الجامعة، في مدينة ماديسون، وظللت أياما طويلة، أتفهم فيها كلام ياكوبسون الذي صدمني بعبارات من قبيل «إسقاط المحور الأفقي على المحور الرأسي» وغيرها من عبارات البيان وجمله التي انفتحت مغاليقها لعقلي بعد جهد جهيد في النهاية.

وظللت أرى بصمات ياكوبسون العلمية في كل ما أقرأ من كتابات البنيوية، إلى الدرجة التي جعلتني حريصا على جمع ما وقع تحت يدي من كتبه التي كتب كثيرا منها بالإنجليزية، وأتشوق إلى لقائه، منذ أن عرفت أنه يعمل في مدينة كمبريدج في معهد M.I.T المجاور

لجامعة هارڤارد، والمنافس لها. وعندما تحققت الرغبة وذهبت إلى جامعة هارڤارد بعد ذلك بسنوات، كان الرجل قد رحل عن الدنيا، وخلفته في منصبه آخر زوجاته، كرستيانا بومورسكا التي أصدرت كتابا عن ذكرياتها معه بعنوان: «حوارات»، (نشر بالفرنسية أولا سنة 1980، ثم ترجم إلى الإنجليزية -بتقديم موريس هيل- سنة 1983)، ويحمل غلافه صورة ياكوبسون في مواجهة كرستيانا بومورسكا في وضع حواري.

تيارات نقدية متصارعة

لا أظن أنه يمكنني التشكيك في أن «البنيوية» كانت النجم الصاعد في جامعة وسكنسن، ومكتباتها، طوال إقامتي في مدينة ماديسون الهادئة الآمنة التي كانت مستقري لعام كامل. ولكن هذا النجم الصاعد ظل يتحرك في فضاء لا يخلو من منافسين أقوياء، ومن ثمّ كان يثير جدالات ومناظرات لها أثرها في التحولات البنيوية نفسها، وانقلاب أبرز ممثليها عليها، على امتداد النصف الثاني من الستينيات. يشهد على ذلك كتاب «جدال بنيوي» الذي ضم بحوث الدورة الدراسية التي رعاها مركز جونز هوبكنز للإنسانيات، وأقيمت على امتداد أربعة أيام (18-21 أكتوبر 1966) وجمع أوراقها وحررها ريتشارد ماكسي ويوجينو دوناتو في كتاب نشرته مطبعة جامعة جونز هوبكنز 1970 -1972، وكانت الدورة تقوم على بحوث يلقيها كبار المختصين، بعد أن يكون قد قرأها المشاركون الذين يعقبون على كل شيء بما لديهم من أفكار موازية، أو معارضة، أو مناقضة.

ونظرة واحدة إلى المشاركين وأوراقهم تؤكد دخول البنيوية في زمن مغاير لزمن مؤتمر إنديانا سنة 1958، فقد تحدث ممثل البنيوية رولان بارت عن الكتابة بوصفها فعلا لازما، وقبله تحدث تودوروف عن اللغة والأدب، وقبلهما تحدث لوسيان جولدمان عن «البنية: الواقع الإنساني والمفهوم المنهجي»، وجاء بعدهم جان

إيبوليت مترجم «ظاهريات الروح» كتاب هيجل الشهير، ثم چاك لاكان وجاي روزلاتو ونيفل هادسون، وجاءت بعد ذلك ورقة چاك دريدا التي تولّت نقض الأساس اللغوي للبنيوية، فاتحة البنية على مراح الدوال ولعبها، ثم جاءت ورقتا جان بيير فيرنان ونوكاس روير، واختتمت الأوراق والمناقشات «ملاحظات ختامية»، طرحها جان إيبوليت الذي ينتسب إلى الفلسفة لا إلى علم اللغة أو النقد الأدبي، كما كان عليه الحال في مؤتمر إنديانا الذي قال كلمته الأخيرة، عالم اللغة رومان ياكوبسون.

وكان واضحا من تصفح الأوراق وتوجهات ممثليها أن المرحلة الحماسية للفواية البنيوية انتهت، وأنها أصبحت موضوعة موضع المساءلة من خصوم أقوياء، وأن الكلمة الأخيرة لم تعد لعالم اللغة وإنما لدارس الفلسفة، الأمر الذي بدل في ذاته على بداية التحول من مركزية النموذج اللغوي في البنيوية إلى مركزية النموذج الفلسفي الذي أخذ في الإعلان عن نفسه، مع نزعة التفكيك التي ظهرت في بحث دريدا الذي سرعان ما أصبح له معجبون والمتأثرون بمنهجه في الولايات المتحدة، خصوصا في جامعة ييل.

ولم يكن التيار اليساري بأجنحته المختلفة، في النقد الأدبي، بعيدا عن هذا التضاد الذي تحول إلى صراع. فمن ناحية، كان هناك لوسيان جولدمان بأطروحاته عن البنيوية التوليدية التي ساءلها في عمق يوجينو دوناتو

على وجه الخصوص فيما يشبه المناظرة مع جولدمان، وفي سياق غير بعيد عن ذلك، من ناحية أخرى، وخارج بحوث مؤتمر جونز هوبكنز، كانت هناك ظاهرة لاحقة بالغة الدلالة، وهي صدور كتابين كان لهما تأثير لا يختلف عمقه عن اتساع مجاله. أولهما كتاب جوناثان كلر عن «الشعرية البنيوية» وثانيهما كتاب إدوارد سعيد (1935 - 2003) «بدايات: المقصد والمنهج». وقد صدر كلا الكتابين في السنة نفسها، 1975، لكن في اتجاهين مختلفين، أو متضادين، إذا شئنا الدقة.

ولا أنسى أن مدخلي الأهم إلى البنيوية كان دراسة جوناثان كلر عن «الشعرية البنيوية: البنيوية واللغويات ودراسة الأدب»، وقد صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب عن مطبعة جامعة كورنيل سنة 1975. ونال الكتاب استحسانا عاما، أهله لأن يحصل على جائزة جيمس رسل لويل من جمعية اللغة الحديثة سنة 1976، أي بعد عام واحد من صدور الكتاب الذي لم يكتب مؤلفه، بعده، ما يوازيه في الشهرة أو المكانة، ذلك على الرغم من أنه كتب، بعد ذلك، كتبه الأقل شهرة وتأثيرا من مثل: «عن التفكيك» سنة 1972. و«سوسير» سنة 1976، و «تأطير العلامة: النقد ومؤسساته» سنة 1988.

وقد قرأت فصول الكتاب الذي سرعان ما أصبح المرجع المعتمد والمدخل الأوثق إلى البنيوية، متنقلا ما بين الجزء الأول عن الأساس اللغوي وتطور المنهج من خلال دراسات ياكوبسون ورولان بارت وجريماس،

والجزء الثاني الخاص بالشعرية التي كانت تعنى بالخصائص أو العناصر التكوينية والمجالات التطبيقية للبنيوية في آن، وذلك ابتداء من المقدرة الأدبية والعرف والتطبيع، مرورا بشعرية القصيدة وانتهاء بشعرية الرواية، وذلك كله مع تسليم بفكرة البنية الكامنة وراء التجليات المتغايرة، شأنها في ذلك شأن «اللغة» القارة وراء تجليات «الكلام»، وهو الأمر الذي كان يعني وضع «المقدرة الأدبية» موضع الصدارة بوصفها بنية ينطوي عليها القارئ، وتتحكم في عملية القراءة التي تعود إلى هذه المقدرة، كما تعود التجليات المتغيرة إلى أصلها الثابت.

وكان ذلك يعني التسليم بأن جميع الأعمال الأدبية تجليات بنية كبرى، كامنة، هي الأدبية في حالة الأدب، والشعرية في حال الشعر، والقصّية في حال القص... إلخ. ويختتم الكتاب بالجزء الثالث الذي كان عن جماعة «تل كل» Tel Quel وما بعد البنيوية، ويلفت الانتباه -في هذا القسم- النظرة السلبية التي نظر بها كلر إلى هذه الجماعة الطليعية المنفلتة من المدار المغلق للأنساق البنيوية، خصوصا چاك دريدا وجوليا كرستيفا اللذين يتشابهان في رفض النسق المقفل للبنية التي تشبه السجن، وتجيء خاتمة الكتاب، في النهاية، مركزة على البنيوية والخصائص النوعية للأدب.

وقد كان كتاب كلر، في ذاته، نموذجا بنيويا لتطبيق المنهج البنيوي على الدراسات المنتسبة إلى الحركة

البنيوية التي أقامت الدنيا ولم تقعدها منذ منتصف الخمسينيات التي صدر فيها كتاب كلود ليڤي شتراوس «المدارات الحزينة» الذي كان بداية الموجة التي اكتسحت كل ما قبلها، وفرضت نفسها لعقدين من الزمان على الأقل. وترجع بنيوية كتاب كلر إلى أنه نظر إلى الكتابات البنيوية بوصفها بنية دالة، قام بتفكيكها إلى عناصرها التكوينية، وأعاد بناءها بما يؤكد دلالة مقصودة، تنبني على التعاطف، حتى لو كان مضمرا، لا على الحياد.

ولذلك لم يكن من الغريب أن يهاجم الدعاة الحماسيون للتفكيك -من مثل كرستوفر نوريس- كتاب كلر مع غروب شمس البنيوية، وأن يجعلوا من الكتاب بناء لنسق، يعزل بنية الحركة- موضوعه الذي أصبح انعكاسا له، وشبيها به- عن التاريخ الذي أدى إلى صعودها كما أدى إلى هبوطها، وذلك حينما تغيرت شروطه وأوضاع علاقاته. وقد أدركت لاحقا على الأقل، أن كتاب كلر كان على النقيض، موقفا ومنهجا، من كتاب إدوارد سعيد (1935 - 2003) «بدايات: المقصد والمنهج»، فقد كان سعيد يؤكد ارتباط الكتابة بزمان ومكان متعينين، فالبداية التي قصد إليها كتاب «بدايات» هي اختيار الكتابة في زمن بعينه بعلاقات مكانية بعينها، وهدف لا ينفصل في تعيُّنه، وذلك من منظور يرى أن الكتابة فعل حر، يحدد الكثير مما يأتي بعده، أو تفضي البداية إليه.

ويعني ذلك أن الابتداء -فضلا عن كونه فعلا حرا في العالم وموقفا منه -هو إطار للعقل ونوع من العمل والاتجاه والوعي، فهو كيفية جذرية تصل ما بين الممارسة والتطبيق، أو بين القصد والمنهج، لكن من حيث كون لحظة الابتداء، مشروطة بنسبيتها المناقضة للإطلاق أو الإحاطة أو النهايات المسبقة، ويلزم عن ذلك أن الابتداء، منهجيا، هو إعادة بناء المعرفة وتنشيطها في وعي الناقد، ليس بوصفها نتيجة منجزة سلفا، أو دائرة مغلقة على بنية قائمة في فراغ، وإنما بوصفها فعلا يظل في حاجة إلى الكشف، لابد من القيام به مهمة أو بحثا.

أما كتاب جوناثان كلر الذي كان بنيويا على طريقته، فقد قصد إلى الكشف عن علاقات العناصر التكوينية للبنيوية، وذلك من حيث هي بنية في ذاتها، فكان باحثا عن النسق وعلاقاته ومكوناته التي أطلق عليها مصطلح الشعرية. وكانت النتيجة أنه جعل البنيوية نظاما، معزولا عن التاريخ، وعن معنى الفعل في العالم التاريخي الذي تولّدت فيه، وفي مواجهته، من حيث منظور المهتمين بأنها إعلان عن «موت الإنسان».

ومع الأسف لم أكن قد قرأت كتاب إدوارد سعيد في ذلك الوقت، فلم ألتفت إليه -مثل كثيرين غيري- إلا بعد الهزة المعرفية التي أحدثها كتاب «الاستشراق»، ولما كنت لم أرَ هذه الهزة بعد، أو أتأثر بها، فقد أغواني كتاب كلر، كما أغوتني البنيوية نفسها. ولم أكتف بقراءته

واستيعابه، بل ترجمت الكثير من فصوله، وظللت محتفظًا بالترجمة التي شغلتني مشاغل الحياة القاهرية عن إكمالها، إلى أن سبقني السيد إمام إلى ترجمة الكتاب كاملا وإخراجه إلى العربية من خلال دار «شرقيات» القاهرية سنة 2000، ولكني، وهذا هو المهم، طالعت العدد الثالث (المجلد السادس) من مجلة «علامات فارقة» (دياكرتكس) الذي كان موضوعه الأساسي كتاب «بدايات»، وكان ذلك في سياق زيارة سعيد لجامعة وسكنسن، وحديث الجميع عنه، وتأثر بعض زملائي بآرائه.

وأظن أن زميلة عزيزة هي التي أهدتني عدد المجلة الذي صدر في خريف 1976، متضمنا حوارا كاشفا مع إدوارد سعيد، بعد دراسات عن كتابه بأقلام ج. هيلز ميلر، وهايدن وايت، وجوزيف رديل، ويوجينو دوناتو، ولم يكن هؤلاء جميعا من نجوم البنيوية أو المتعاطفين معها، وإنما كانوا من المشاركين لإدوارد سعيد في الإيمان بالتصدي للتورطات الأيديولوجية للنقد الأكاديمي، والوعي التاريخي الذي أعلى من شأنه هايدن وايت الذي أصبح -بعد سنوات- من أبرز كُتاب النزعة التاريخية الجديدة، وهي نزعة لم تختلف في توجهاتها عن الإيمان بالدور الاجتماعي للنقد، وهو الدور الذي أكده كتاب إدوارد سعيد الذي بدا لي -بعد ذلك- أن كتابه «بدايات» كان الخطوة التمهيدية، منهجيا، لكتاب

«الاستشراق»، خصوصا من حيث تحدي الأيديولوجيات السائدة وتفكيكها.

ولذلك نال كتاب «بدايات» احترام الكثيرين، وخصصت له أهم مجلة نقدية عددا خاصا، واستحق الكتاب الجائزة الأولى التي منحت باسم ليونيل تريلنج (1905 - 1975)، وهو واحد من نجوم اليسار في النقد الأدبي الأمريكي، صاحب كتاب «الخيال الحر» (1950) و «الذات المعارضة» (1955).

ومن المفارقات الدالة أن ليونيل تريلنج توفي في العام الذي صدر فيه كتاب إدوارد سعيد وجوناثان كلر. وكان طبيعيا أن ينحاز الذين أرادوا تكريمه بإنشاء جائزة باسمه إلى إدوارد سعيد المنتسب إلى فصائل اليسار الأمريكي، وذلك في الاتجاه المضاد لأولئك الذين احتفلوا بكتاب كلر ومنحوه التقدير الذي يتكافأ والمكانة التي احتلها في سياقات المد الذين تعودوا على النظر إلى الأعمال الأدبية بوصفها «كيانات» مستقلة في ذاتها، تنطوي على «حال وجود» مكتف بنفسه، وكان هؤلاء من بقايا أو أتباع أو طلاب «النقد الجديد» الذي ازدهر طوال الثلاثينيات والأربعينيات، بعد جهود رواد العشرينيات من أمثال ت. إس. إليوت (1888 - 1965) وآي. إيه. ريتشاردز (1839 - 1979).

وكانت نتيجة ذلك التشابه الذي يمكن ملاحظته ما بين عدد من المنطلقات البنيوية وبعض منطلقات «النقد الجديد» الذي ظل مؤكدا ضرورة الدراسة الأدبية

المحايثة، أو الداخلية، للعمل الأدبي الذي لا يتميز إلا بأدبيته التي ينبغي أن تكون الشغل الشاغل للناقد. ولم يكن «النقد الجديد» بعيدا عن فكرة البنية التي كانت متضمنة فيه بمعنى أو غيره، ولذلك لم يكن من الغريب، في مدى هذا التشابه، أن يرد بعض النقاد الأمريكيون الإنجاز البنيوي الفرنسي إلى السياق الأنجلو أمريكي، على طريقة هذه «بضاعتنا ردّت إلينا»، ومثال ذلك ما كتبه جيفري هارتمان تحت عنوان: «البنيوية: المغامرة الأنجلو أمريكية»، وذلك في العدد الخاص الذي أصدرته مجلة جامعة ييل «دراسات فرنسية» عن البينوية سنة 1966، وكانت خلاصة مقال هارتمان أن العالم الأنجلو أمريكي ما كان يمكن أن ينتظر الفرنسيين ليكتشفوا له البنيوية التي هي جهد عالمي، أسهمت فيه العواصم المختلفة التي تجمع ما بين جنيف -سويسرا التي ينتسب إليها دي سوسير،ونيويورك وكمبريدج -ماساشوستش اللتين عمل فيهما ياكوبسون. ومضى هارتمان في تعداد ما رآه أصولا للبنيوية في التقاليد الأنجلو أمريكية بوجه خاص، ساعيا إلى ما يمكن أن نطلق عليه نزعة «أمركة» البنيوية.

ولم تكن دلالة مثل هذه الدراسة بعيدة عن التأثير الطاغي للبنيوية التي توقع لها هارتمان أنها ستصبح حركة الزمن الآتي في الدراسات النقدية، وأنها سوف تخلف تأثيرا أصيلا ودائما، وسواء قبلنا أطروحة هارتمان أو لم نقبلها، في سياقاتها الدالة التي كانت لها

امتداداتها، فإن البنيوية الفرنسية تحولت إلى حضور طاغ في الحياة الثقافية الأمريكية، ووصلت إلى ذروة صعودها الذي لا يمكن أن يتبعه سوى انحدارها، مع سنة 1977 على طريقة: «لكل شيء إذا ما تم نقصان».

وأنا أستخدم صفة الذروة عامدا، في هذا السياق، ذلك لأنه منذ أوائل السبعينيات، كانت الحركة الفرنسية المضادة للبنيوية في رأي البعض، أو المتطورة عنها في رأي البعض الآخر، أخذت في التشكل، وتظهر آثارها مع تحول كتابات رولان بارت نفسه، وتخليه عن فكرة النسق التي فرضت نفسها عليه إلى سنة 1967، حين أصدر: «نسق الموضة» فبدأ انجذابه إلى مراح الدوال المتمردة على الأنساق المغلقة، ابتداء من سنة 1970 التي أصدر فيها «إمبراطورية العلامات» و «صاد وفرييه ولوبولا» و «S/Z» ومنها إلى «لذة النص» سنة 1973 و «بارت عن بارت» سنة 1975، وهي كتب يتدرج فيها منظور التفكيك الذي كان چاك دريدا (1930 - 2004) قطب فلسفته الأكبر.

وكان دريدا قد أصدر بالفرنسية إلى ذلك الوقت، سنة 1977، أهم كتبه المتلاحقة: «إدموند هوسرل وأصل الهندسة» (1967) و «عن الكتابة» (1967) و «الكتابة والاختلاف» (1967) و «أساليب نيشته» (1972) و «انتثار» (1972) و «أوضاع» (1972) و «هوامش الفلسفة» (1972) و «جلاس» (1974). وكان حضوره الأول اللافت، في الولايات المتحدة، في المؤتمر الذي

أقامته جامعة جونز هوبكنز سنة 1966، حيث تحول، بعد انتهاء المؤتمر، إلى أهم شخصية مؤثرة، في اتجاه التمرد على النموذج البنيوي الذي بدأ أنصاره يتخلون عنه، وقد حدث ذلك في المسار الصاعد الذي أحدثت فيه الترجمات الإنجليزية لكتب دريدا تأثيرها، ابتداء من «علم الكتابة» (جراماتولوجي) الذي ترجمته جاياتري سبيفاك إلى الإنجليزية، وقد ترجمته إلى العربية منى طلبة وأنور مغيث، ونشره المشروع القومي للترجمة عام 2006. وأضف إلى ذلك كتابه «الكتابة والاختلاف» الذي ترجمه آلان باس إلى الإنجليزية في عام 1976.

وكانت ترجمة سبيفاك كتاب «الجراماتولوجي» مع تقديمه بدراسة مسهبة سنة 1974، وصدور طبعته الثانية سنة 1976، بشارة مختلفة، تنقض البنيوية من منظور فلسفة التفكيك أو النقض بلا فارق كبير، ولم أكن أعرف -في ذلك الوقت- أن چاك دريدا أخذ يحل ضيفا على جامعة ييل، وأن عددا من النقاد الأمريكيين تحلقوا حوله، وتشكلت منهم «جماعة ييل» التي تحمست للتفكيك وتبنته في دراساتها التطبيقية. وكان أبرزهم بول دي مان (1919 - 1983) الذي أصدر «العمى والبصيرة» سنة 1971، وهارولد بلوم الذي أصدر كتابه عن توماس هاردي سنة 1970، وجيفري هارتمان الذي كان من أوائل الذين وضعوا «البنيوية الفرنسية» موضع المساءلة في الولايات المتحدة، خصوصا في مقاله الذي

ردها إلى تقاليد أنجلو أمريكية سابقة، وقد ظهرت تحيزاته التفكيكية في كتابه «ما وراء الشكلية» (1970) و «قدر القراءة» (1975). وأضيف إلى هؤلاء ج. هيللز ميللر الذي أكمل «جماعة ييل» الذين حاولوا الاندفاع مع موجة التفكيك الأمريكية التي أسهموا في صنعها، وذلك في سياق تسويق دريدا الذي تحول إلى صناعة أمريكية بفضلهم، بمعنى أن شهرته الأمريكية أسهمت في تقديمه إلى العالم الأنجلو أمريكي أولا، والعالم كله ثانيا، وجعلت له أتباعا وحواريين في كل مكان.

ولم أكتشف إلا فيما بعد أن سنة 1966 كانت بداية الانتقال من البنيوية إلى التفكيك، وفي الوقت نفسه إفساح الطريق لتيارات موازية أو معارضة لتأخذ موضعها الذي تستحقه في تحولات مشهد النقد الأدبي الأمريكي. وأن المسافة الفاصلة بين ربيع 1958 مؤتمر جامعة إنديانا الذي كان ياكوبسون نجمه بلا منازع وأكتوبر 1966 مؤتمر جامعة جونز هوبكنز الذي كان دريدا نجمه المقابل هي المسافة الزمنية التي استمر بعدها صعود المد البنيوي الأمريكي بقوة الدفع الذاتي التي أوصلته إلى ما رأيته عليه سنة 1977، والفارق بين التاريخين الأول والثاني، كما قلت منذ قليل، هو الفارق بين هيمنة النموذج اللغوي على النقد الأدبي وهيمنة النموذج الفلسفي، في المدى الذي شهد تعددا نقديا لافتا بين اتجاهات لم تخلُ علاقاتها من الصراع.

هكذا، وجدت نفسي في مواجهة البنيوية اللغوية الشكلية من ناحية، والبنيوية التوليدية من ناحية مقابلة، وبين بقايا «النقد الجديد» الآفل، مقابل التفكيك الصاعد، وبين ذلك كله ونقاد اليسار الأمريكي الليبرالي الذين تأثر بهم إدوارد سعيد، واحتفوا به، وبالطبع، كان تركيزي في القراءة على البنيويتين المتصارعتين اللتين ظلتا في صدارة الاهتمام في حوارات الزملاء وقراءات الطلاب في جامعة وسكنسن، وذلك في الوقت الذي باعدت عمليات الاستقبال التي أصبحت طرفا فيها ما بيني والكتب المغايرة إلى خارج المركز، وذلك بما لم يلفت انتباهي الكافي إليها في فعل الإدراك.

ولذلك، لم أتعمق بالقدر الكافي فيما ظل خارج الجدال البنيوي، وإن كنت أتابع وأحاول الإفادة والتعلم -في حرصي على استكمال تفاصيل المشهد- من التيارات والمجالات المعرفية اللازمة التي شعرت بحاجتي إليها في استكمال ما فاتني في القاهرة، أما داخل الدائرة المركزية التي يتنازعها القطبان المتعارضان من البنيوية اللغوية الشكلية والبنيوية التوليدية، فقد حاولت التوسط، أو الجمع على الأقل، بين كتابات تودورف ورولان بارت من ناحية وكتابات لوسيان جولدمان ونظرائه، أو أقرانه، في النقد الأدبي الماركسي من ناحية مقابلة، ولكن المشهد لم يكن مقصورا على هذه التعارضات التي لم يكتمل إدراكي لتناقضها إلا في مرحلة لاحقة.

منظور مغاير للأدب العربي

وسط المناخ المشحون بالتوهج الأخير للبنيوية، بعد اندفاعها العاصف، وسيطرتها على الدرس الأدبي،وغيره من مجالات الدرس في العلوم الإنسانية والاجتماعية، قرابة عقدين من الزمان، كان لابد أن تتأثر دراسة الأدب العربي في الولايات المتحدة، وتنتقل دراساته من الفيلولوچيا التاريخية التي غلبت على روافد المدرسة الألمانية، والنزعات الاستشراقية التي لا ترى القيمة إلا في إبداع المركز الأوروبي الذي يرتفع قدره، بالقياس إلى الشرق الذي يظل أدبه شبيها به في صفة الدونية أو الصفات التي تختزل النظر إلى إبداعه في كونه وثيقة لغوية تاريخية، وذلك من حيث هو مرايا لحيوات بدوية متخلّفة، أو حتى بربرية، لا تنطوي على قيمة الأدب الأوروبي بالقطع.

وسواء كنا في اتجاه القطب الأول، الفيلولوچي التاريخي، أو القطب الثاني، الاستشراقي المتعالي، فإن النتيجة واحدة، تظل مقترنة بعجز الدراسات الواقعة في المتصل الواصل ما بين القطبين عن الارتقاء إلى مستوى دراسات الآداب المحيطة بها، أو المجاورة لها، في الجامعات الأوروبية- الأمريكية، والإفادة من المناهج النقدية الحداثية التي شغلت أقسام الأدب المقارن بالدرجة الأولى، قبل أن تنتقل إلى أقسام اللغات الأوروبية، ومنها إلى أقسام اللغات غير الأوروبية.

ومن المؤكد أنه قد تم إعادة الاعتبار إلى ما أطلق عليه -طويلا- اسم «العقل البدائي» على أيدي بنيويين من أمثال كلود ليفي شتراوس الذي لم يرَ فارقا جذريا بين ما أطلق عليه أسلافه «العقل البدائي» مقابل «العقل المتحضر» الأوروبي طبعا. وكان ذلك في سياق نزعته الإنسانية التي افترضت وجود أبنية عقلية كلية قارة وراء الظواهر المتغيرة، أو التجليات المختلفة. وهي نزعة فتحت الطريق إلى فهم جديد للثقافات البعيدة عن المركز، ومحاولة البحث عن بنياتها التي لا يمكن وصفها بالدونية، وإنما بالاختلاف الذي يضعها في دائرة متكافئة العناصر من تنوع العقل الكلي، في تجليات تباينه التي سعت الأنثروبولوچيا البنيوية إلى الكشف عن كيفية «الموالفة» التي تنبني بها، والتي تدل على قيمتها الذاتية التي تستحق الكشف عن أنساقها، كما تستحق التقدير لا الازدراء.

وكان يوازي هذا التغير الأيديولوچي، في التمسك بثنائية التراتب القمعي بين العقل البدائي والعقل المتحضر، رغم أنه تغيير لم يخل هو نفسه من عناصر أيديولوجية، ظلت منطوية على معنى المركزية- أقول كان يوازي هذا التغيير تحول مواز في النظر إلى الشرق، العجيب، الغريب، السحري الذي لا يفارق دلالات التخلف والخرافة، مقابل الغرب المتعقل،العلمي، المتحضر،حيث يقع المركز الذي يحتكر القيمة في الوقت الذي يحجبها عن الهوامش والأطراف على

حسب قربها منه أو بعدها عنه. وهو نظر اقترن بأيديولوچيا الهيمنة الاستعمارية التي قصد بها إبقاء العلاقة بين طرفي الثنائية القمعية بين التابع والمتبوع على ما هي عليه. وتأكيد استمرارها بما يبقي التابع في موضعه الأدنى، والمتبوع في موقعه الأعلى. والسبيل إلى ذلك، فكريا، هو ترسيخ وعي التبعية عند التابع، وتبرير الوعي نفسه عند المتبوع الذي يبدو منقذا للتابع، راعيا له، حريصا على الارتقاء به، والانتقال به من مستويات البربرية والحيوانية والشهوانية، إلى مستويات التحضر والإنسانية، وضبط الغرائز بواسطة العقل الذي لا يصل إلى أقصى اكتماله إلا في المركز، ولا يرتقي إلا منه وبه وإليه.

وقد تولى إدوارد سعيد، في كتابه الجذري عن «الاستشراق» الصادر سنة 1978، تعرية هذه الأيديولوجية القمعية، والكشف عنها في تجلياتها المتباينة، في الخطاب الذي تخلل كتابات الاستشراق، خصوصا تلك التي انطوت على نزعات التمييز والهيمنة، وذلك مع التركيز على إنطاق المضمر والمسكوت عن التصريح به في هذه الكتابات، حيث التحيز المسبق الذي يمايز بين ثقافة المركز الراقية، بالمعنى المنحاز عرقيا وجغرافيا، وثقافة الهوامش، حيث التابعون، المتوحشون، منفلتو العواطف والمشاعر والانفعالات الذين يصل بهم الانفلات إلى درجات من الهمجية التي أصبحت سمة «العقل البدائي» الذي يقع -ضمن ما يقع-

في «الشرق» العجيب الغريب المفرط في تخلفه. وقد بدأ إدوارد سعيد الثورة على هذه النظرة الاستعمارية، من حيث انتهى ميشيل فوكو (1926 - 1984) في تحليله قوانين السلطة وآليات القمع والعلاقة بين المعرفة والقوة، وما يقترن بها من أشكال المراقبة والعقاب.

وقد أحدث كتاب إدوارد سعيد عن «الاستشراق» هزة هائلة فور صدوره سنة 1978، كما سبق أن قلت. وظلت هذه الهزة متواصلة في اتساع أصداء الكتاب وتراكم آثاره التي أسهمت -مع أشباهها- بشكل مباشر وغير مباشر، في تحويل مجرى دراسات الشرق، وذلك ابتداء من وضع الوعي الذي انطوت عليه أجيال الدارسين الغربيين الأحدث موضع المساءلة، وفي مواجهة التقاليد الاستشراقية التي ورثوها، وظلوا -بمعنى من المعاني- متأثرين بها، ماضين في خطاها، على الأقل على مستوى اللاوعي، فرأت عقول هذه الأجيال سلبيات الصورة التي ورثتها، كما لو كانت مجلى آخر لصورة دوريان جراي الذي اجتلى حقيقته، مؤخرا، في الصورة التي كشفت له عن نفسه، لكنها الصورة التي رسمها له غيره، ليريه حقيقة ما هو عليه، أو ما هو ماض فيه، واعيا أو غير واع.

وأعتقد أن أولى العلامات الجذرية الدالة على تأثير كتاب إدوارد سعيد أن عددا غير قليل من الدارسين الغربيين وجدوا حرجا في الإبقاء على تسمية

«الاستشراق» أو «المستشرقين» التي أحاطها كتاب إدوارد سعيد بالريب والشكوك وسوء الطوية والاتهام، فاستبدلوا بها تسمية «المستعربين». وفي الوقت نفسه، استبدلوا بالنزعة الاستعمارية المتعالية، نزعة إنسانية تسعى إلى الفهم، ولا ترى فارقا جذريا ما بين الشرق والغرب إلا في وحدة التنوع البشري الخلّاق.

وقد زاد من مضاعفة تأثير كتاب إدوارد سعيد توافقه -حتى لو اختلف في المنحى- مع التيارات النقدية الموازية له، أعني التيارات التي ظلت تبحث عن البنى المستقلة للأعمال الأدبية التي تتميز باستقلالها واكتفائها بنفسها، حيث الأدبية -في صفائها الإبداعي الفريد- هي الهدف الأول من البحث في حال وجود الأعمال الأدبية، شرقية أو غربية، وليس غيرها من الأهداف العملية أو النفعية. وقد تأسس بهذه التيارات وعي جيل جديد من المستعربين الذين لم ينطووا على سوء الطوية نفسه في درسهم الأدب العربي، فمضوا في موازيات التيار الذي فتح سعيد أبوابه المغلقة، وذلك بما أدى إلى تأسيس خطاب ما بعد الاستعمار الذي تمرد به التابع على أيديولوجيا التبعية، ووضع أيديولوجيا الهيمنة الاستيطانية والاستعمارية (بكل أنواعها) موضع المساءلة، وكان ذلك في الفعل الجذري الذي وصفه بيل أشكروفت وجارث جريفث وهيلين تيفين وصفا أوجزه عنوان كتابهم: «الإمبراطورية ترد بالكتابة» الذي ترجمته شهرت العالم، ونشرته «المنظمة العربية

للترجمة» في بيروت سنة 2006. ويقصد الكتاب بعنوان: «الرد بالكتابة» إلى تمرّد مثقفي الأقطار التي حطمت سلاسل الاستعمار وثأرهم من قمعه الطويل بالكتابة عن هذا القمع، وتحليل تجلياته المعاصرة، سواء في أشكاله المعلنة أو المضمرة المراوغة.

وبالطبع، لم ينفصل ذلك كله عن اتساع دوائر الاهتمام باللغة العربية وآدابها القديمة والحديثة، سواء في الأقسام الخاصة باللغات والثقافات الإفريقية، مثل قسم الدراسات العربية في جامعة ماديسون، أو في أقسام الدراسات الآسيوية التي تنتسب إليها الأقطار العربية الواقعة في قارة آسيا، أو أقسام دراسات الشرق الأدنى أو الشرق الأوسط ومراكزه البحثية على امتداد الجامعات الأمريكية.

وكان هذا التعدد -في اقترانه بالتحول- يدل على تزايد الرغبة في معرفة المزيد عن العالم العربي وثقافاته وآدابه، خصوصا بعد المتغيرات العالمية لصراع المصالح الجديد، والحروب الإقليمية التي لعبت فيها أصابع الولايات المتحدة دورا فاعلا بشكل أو آخر، وذلك في مدى الحرص على مصالحها وحضورها المتزايد في عدد من الأقطار العربية، خصوصا تلك التي توافقت مع الولايات المتحدة في عدائها للامتداد القومي واليساري، فكريا، وحرصها على تقليص نفوذ الاتحاد السوفييتي، ثقافيا، واستئصال جذوره من المنطقة قبل اتساع مدى تأثيره.

وكان صدور دورية «الأدب العربي» التي صدرت عن دار بريل لايدن، علامة على تزايد الإقبال على معرفة الأدب العربي، وتزايد الحاجة إلى قراءته من منظور جديد. وقد نشرت المجلة عددا من الترجمات المتميزة لإبداعات الأدب العربي الحديث، خصوصا في مجال القصة القصيرة، كما نشرت دراسات أجيال أكثر انفتاحا من المستعربين الذين اهتموا بالأدب العربي القديم، وتطبيق المناهج النقدية المعاصرة -في ذلك الوقت- على دراسته.

وأذكر أنني قرأت مقالات مهمة عن يحيى حقي ونجيب محفوظ ويوسف إدريس وغيرهم في هذه المجلة، كما قرأت عن الأدباء العرب الحداثيين الموزعين على الأقطار العربية. وقد نجحت المجلة (التي كان محمد مصطفى بدوي من أبرز محرريها) في جذب الباحثين العرب الذين يكتبون باللغة الإنجليزية، أو يترجمون إليها، على امتداد الجامعات الأوروبية والأمريكية، كما جذبت إليها المستعربين الجدد الذين دخلوا أفقا مغايرا من النظر إلى الأدب العربي قديمه وحديثه ومعاصره.

وأذكر أنني -بعد أن وجدت أعدادا من هذه المجلة- في مكتب داستن كاول، وكان ذلك في المكان المخصص لدراسات الأدب العربي القديم والدوريات الأنجلوأمريكية المهتمة به، صرت أتابع هذه الدورية في مكتبة الجامعة، وأتابع دراسات أعدادها التي عرفت

فيها للمرة الأولى تحليلات ريناتا ياكوبي، وكان واحد من هذه التحليلات مخصصا لإحدى قصائد ابن المعتز، إن لم تخني الذاكرة، وذلك في سياق كتابات «الاستعراب» التي غيرت المنهج والمقصد، وتميزت بنظرتها الجديدة التي لم تدخل من نزعة محدثة، تأثرت بالتيارات النقدية الموازية في دراسة الآداب الأوروبية.

أقصد إلى كتاب ماري كاترين بيتسون عن «الاستمرار في الشعر الجاهلي» الذي صدر سنة 1970، وذلك قبل عامين فحسب من دراسة جيمس مونرو التأسيسية في دورية «الأدب العربي» سنة 1972، عن «النظم الشفاهي في الشعر ما قبل الإسلام: مشكلة الأصالة». وكانت دراسة مونرو (الذي كان متخصصا في الدراسات الأندلسية أصلا، وترجم وقدم لرسالة ابن شهيد «التوابع والزوابع» فضلا عن كتاب متميز في المقامات، ترجم إلى اللغة العربية مؤخرا) فاتحة تيار جديد في النظر إلى الشعر الجاهلي الذي لم يفقد سحره وبريقه الجاذب للدراسات الحديثة.

وكان مونرو يستهل في هذا البحث الرائد، في مجال الأدب الجاهلي، ما لم يسبقه إليه غيره، منظورا ومنهجا، مفيدا من إنجازات ما عرف باسم «نظرية التقاليد الشفاهية». وهي النظرية التي رادها ميلمان باري (1902 - 1935) وألبرت لورد (1912 - 1991). وقد اقترن اسم الأول بالثورة التي أحدثها في الدراسات الهومرية (نسبة إلى الشاعرر هوميروس) الذي لا يزال

وجوده محاطا بالشكوك، مثل كيفية صياغة ملحمتي الإلياذة أو الأوديسا، وقد ذهب باري في أطروحته المنشورة بالفرنسية، في العشرينيات، إلى أن أسلوب هوميروس يتميز بالاستخدام الواسع لعبارات وتراكيب ثابتة، أو صيغ، تتكيف مع التعبير عن فكرة تقترن بأوضاع عروضية ثابتة.

وقد أكمل ألبرت لورد -أستاذ الدراسات السلافية والأدب المقارن في جامعة هارفارد -عمل أستاذه الذي قام بزيارتين ميدانيتين إلى الجنوب السلافي، وسجل آلاف الأغنيات الشعبية التي تحولت إلى مادة، انطلق منها لورد في كتابه «مغنّي الحكايات» (1960) الذي أكد طبيعة الأداء الشفاهي الذي يصل ما بين الارتجال والذاكرة الجمعية التي ينطوي عليها المنشد، من حيث هما وجهان لعملية واحدة في فعل الأداء الذي يعيد به المنشد ترتيب علاقات الصيغ المحفوظة في الذاكرة الجمعية التي ينطوي عليها، وذلك بما يجعل النص المؤدّى يختلف من منشد إلى آخر، بل عند المنشد نفسه من وقت إلى غيره، فلا نص ثابتا في هذا النوع من الأداء الذي لا نهاية لمتغيراته وتحويراته، ما ظل على شفاهيته.

وقد تتابعت الجهود لتطوير نظرية «النظم الشفاهي» عبر باحثين من أمثال والتر أونج (1912 - 2003) صاحب كتاب «الشفاهية والكتابية» الذي ترجمه -وقدّم له بدراسة كاشفة - حسن البنا وراجعه محمد عصفور

(سلسلة عالم المعرفة الكويتية، فبراير 1994) وكذلك چون ميلز فولي و أمثاله من الذين مضوا بالنظرية إلى آفاق أوسع، في السياق الذي لا يزال متواصلا، مقترنا بحرص أنصار النظرية على استكمالها وتطوير عناصرها وتوسيع سياقاتها.

وظل ذلك كله في سياق أوسع، يشمل الاهتمام بالتقاليد والثقافة الشفاهية، من حيث هي طريقة في تناقل التاريخ والآداب والأعراف من جيل إلى جيل، خصوصا في المجتمعات أو الحقب أو الثقافات التي لم تصل إلى المرحلة الكتابية بعد، ولا يزال كتاب صديقي يان فانسينا -أستاذ التاريخ الإفريقي في جامعة وسكنسون -ماديسون- عمدة في هذا المجال الذي أسهم فيه بكتابه التأسيسي «التقاليد الشفاهية». (الذي ترجمه زميلي الدكتور أحمد مرسي بعنوان: «المأثورات الشفاهية» ونشره في القاهرة سنة 1981).

وقد بدأ جيمس مونرو من حيث انتهى السابقون عليه في هذا المجال، وبخاصة باري ولورد، وحاول تطبيق نظرية النظم الشفاهي على الشعر الجاهلي لينقل النقاش الطويل حول قضية الانتحال نقلة جذرية إلى الأمام، فقد كان القصد الأساسي من بحثه هو حسم النقاش حول نظرية الانتحال التي انبنى عليها كتاب طه حسين الشهير «الشعر الجاهلي» الذي أقام الدنيا ولم يقعدها عند صدوره سنة 1926، وظل مثارا لجدل علمي لم ينقطع. وكان موقف مونرو سلبيا من التسليم

بنظرية الانتحال على علاتها، ولم يرد أن يردد ما سبق أن قيل فيها وعنها، فآثر أن ينظر إليها في ضوء جديد.

وكان هذا الضوء قرين نظرية باري ولورد عن النظم الشفاهي الذي قرناه بجماعية الإنشاء في الملحمة الهوميرية، مؤكدين أن كلا من الإلياذة والأوديسا نظم شعبي شفاهي، تراكم عبر الزمن إلى أن اكتمل، ونسب إلى شخص هوميروس المشكوك في وجوده، وذلك في تقاليد لا تعرف مفاهيم الانتحال أو السرقة، أو متى ينبغي الوعي بوجودها، وإنما تعرف الناظم الذي يمتح من مخزونه الذي ينطوي على ذاكرة جمعية، يعيد تركيب ما تحتويه في صيغ هي نوع من الإنتاج وإعادة الإنتاج الذي لا يفارق الحدود التي استقرت عليها الروايات المتتابعة للملحمة عبر العصور.

وكان ذلك يعني النظر إلى «الصيغة» بوصفها وحدة البناء التي يبني بها الفرد الناظم -من المخزون الشعبي- ما ينتسب إليه على سبيل المجاز لا الحقيقة، أي بمعنى الموالفة لا التأليف.

وقد قصد جيمس مونرو من تبنيه مدخل باري ولورد -بعد تعديله بما يتناسب وطبيعة المادة التي يدرسها- أن يفض إشكال قضية الانتحال على أساس من مفهوم «الصيغة» Formula التي جعلها عنصرا تكوينيا في نظم الشعر الجاهلي، ورأى علاماتها في تكرار التراكيب والجمل الموزونة، فضلا عن صيغ النعوت المتجاوبة تركيبيا، مفترضا أن ناظم هذا الشعر كان يأخذ من

المخزون الجمعي مادته التي يبني بها قصائده، وذلك بما يصل بين الارتجال الشفاهي والذاكرة وصلا يجعل من كليهما وجهي عملة واحدة. وكانت النتيجة اقتران حال حضور الشعر الجاهلي بالنظم الشفاهي الذي تعددت شواهده في هذا الشعر الذي ظل ينتقل من جيل إلى جيل بواسطة وعي جمعي، انطوى عليه رواة ومؤلفون شعبيون، لم يكفوا عن عملية التوليف بين صيغ متماثلة المبنى، متوازية الإيقاع، يحفظونها ليعيدوا تركيبها في كل فعل من أفعال الإنشاء الذي هو فعل من أفعال الأداء.

وأذكر أنني أعددت حديثا -بعد عودتي إلى القاهرة- عن بحث مونرو، في القسم العربي من الإذاعة البريطانية، وبدأت في ترجمته، لكن شغلتني مشاكل الحياة، إلى أن قرأت ترجمة عربية جيدة للبحث، قام بها الصديق يوسف أبو العدوس في الجامعة الأردنية، فأراحني من أرق الانتهاء من الترجمة التي لم أكن قطعت فيها شوطا كبيرا على أي حال.

ومهما يكن من أمر، فقد لفت بحث مونرو الأنظار إليه، وجذب انتباه عدد من المستعربين الجدد إلى متابعته، فنشرت دورية «الأدب العربي» دراسة سمحا ألوايا (Semha Alwaya) عن «الصيغ والتيمات في الشعر الشفاهي للبدو» سنة 1977. وكان ذلك بعد عام واحد من نشر المجلة نفسها بحث م. ف ماكدونالد عن «الشعر المتناقل شفاهة» سنة 1978. وفي السنة نفسها

التي أصدرت فيها مطبعة جامعة أوهايو كتاب مايكل زفتلر «التقاليد الشفاهية للشعر العربي القديم» الذي يبدأ من حيث انتهى مونرو، ويمضي في الأفق نفسه، مع بعض التعديلات التي لا تخلو من موافقة أو اختلاف أو إضافة، ليست مفصولة عن السياق العام الذي استولت فيه البنيوية على قلوب الكثيرين.

وقد أسعدني أنني وجدت في مكتب داستن كاول من دوريات الأدب العربي الجديدة ما دفعني إلى استكمالها ومعرفة آفاقها الواعدة في المكتبة، وعرفت أن بداية التيار الجديد في دراسة الأدب العربي بدأت مع ماري كاثرين بيتسون التي نشرت كتابها الذي أشرت إليه سنة 1970، وتواصلت مع جيمس مونرو (1972) ومن مضوا في الطريق نفسه، أو مضوا في طريق مواز كما فعل أندراش حاموري الذي نشرت جامعة برنستون كتابه عن «فن الأدب العربي في العصر الوسيط» سنة 1974.

وهو طريق يختلف عن الطريق الذي جذب إليه المتأثرين بالأفق الذي فتحه مونرو سنة 1972. وذلك في سياق الإيقاع المتغير لدراسة الأدب العربي في الولايات المتحدة، خصوصا في الجامعات التي لم تكن أسيرة تقاليد قديمة يهيمن عليها النزوع الفيلولوچي أو الاتجاه اللغوي التاريخي، مثل جامعة هارڤارد وما ماثلها من الجامعات التي ظلت محافظة على التقاليد التاريخية أو اللغوية نفسها.

أما جامعة و سكنسن- ماديسون التي لم يكن لديها تاريخ طويل من تقاليد الدراسات الاستشراقية، وظلت تنطوي بحكم وقوعها في ولاية راديكالية، لم تخل من التأثير اليساري، على دوافع التجدد والتجديد، على الأقل في اهتمامها بالتوجهات الصاعدة للدراسات الأفروأمريكية، ثم دراسات ما بعد الاستعمار، وهي توجهات يمكن أن تتقبل نقديا البنيوية وموازياتها، وما ترتّب عليها، أو اقترن بها من تيارات النقض أو التفكيك، وتضعها جميعا موضع المساءلة.

وكانت أولى محاولات تطبيق المنهج البنيوي على الأدب العربي القديم بوجه عام، والجاهلي على وجه الخصوص، هي محاولة الصديق كمال أبو ديب الرائدة التي نشر أول إنجازاتها سنة 1975 عن معلقة لبيد، وذلك في الدورية العالمية لدراسات الشرق الأوسط وكانت بعنوان: «نحو تحليل بنيوي للشعر الجاهلي». وقد فتنتني هذه الدراسة في ذلك الوقت، ووجدت فيها مدخلا مغايرا، يمكن أن يثري بجذريته دراسة الشعر الجاهلي الذي لا أزال أنطوي له على محبة خاصة لما يمثله من معنى البدايات وغموضها الساحر الآسر.

وقد أتبع كمال أبو ديب دراسته عن لبيد بدراسة ثانية سنة 1976 عن معلقة امرئ القيس التي جعل عنوانها: «الرؤية الشهوية» ونشرها في دورية «أدبيات». وكان ذلك في السياق الذي أخذت فيه عدوى البنيوية تنتقل إلى دراسة الشعر العربي القديم

الذي كانت الدوريات المختصة بالأدب العربي تهتم به، وعلى رأسها مجلة «الأدب العربي» التي قرأت فيها أكثر من تحليل بنيوي للشعر القديم.

وأغلب الظن أن داستن كاول الذي حللت ضيفا على مكتبه ومكتبته -في جامعة وسكنسن، ماديسون- كان قد أخذ يتأثر بالتيار البنيوي الصاعد، ويعيد النظر في أطروحته لدرجة الدكتوراه التي كتبها عن ابن عبد ربه الأندلسي، إن لم تخني الذاكرة، تحت إشراف جيمس مونرو الذي كان، بدراساته، عاملا مهما في تحديث دراسة الأدب العربي في الولايات المتحدة، والخروج على الأعراف الأكاديمية التقليدية التي أرساها چيب، أو التقاليد المختلفة -في الدرجة لا النوع- التي استهلها جرونباوم. ولذلك لم أندهش عندما قرأت دراسة عدنان حيدر المطولة في دورية «أدبيات» عن معلقة امرئ القيس بنيتها ومعناها، وهي الدراسة التي يركز فيها على الجانب الصرفي من المعلقة، وذلك من غير إغفال الإشارة إلى النظرية الشفاهية من ناحية، والنظم الشفاهي من ناحية أخرى.

ولم يكن ذلك كله بعيدا عن السياق الذي كتب فيه صديقي -فيما بعد- ياروسلاف ستيتكيفتش دراسته عن «ظاهرة القصيدة الغنائية العربية» في دورية الأدب العربي سنة 1975.

وقد حاول زميلنا حسن البنا عز الدين أن يقدم -بعد ذلك بثلاثة وعشرين عاما -دراسة عن الشعر الجاهلي

والبحث الأدبي المعاصر، في مدخل كتاب «سياسة الأدب وأدب السياسة» الذي ترجمه بالاشتراك مع المؤلفة سوزان ستيتكيڤتش، الصادر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب في القاهرة سنة 1997.

وكانت الدراسة بمثابة «تمهيد لرؤية الدور النقدي لمدرسة شيكاغو مع إشارة خاصة إلى سوزان ستيتكيڤتش والقصيدة العربية الكلاسيكية». وهي دراسة مليئة بالتعاطف، وربما العرفان المضمر، لكنها مجافية لسياق الإنجازات التاريخية التي لم يبرز فيها اسم ياروسلاڤ ستيتكيڤتش أو زوجه سوزان إلا بعد أن قطع التجديد شوطا كبيرا في دراسة الأدب العربي في الجامعات الأمريكية، وأصبح الطريق ممهدا أمام سوزان لتنقد دراسات كمال أبي ديب وعدنان حيدر وغيرها من الدراسات السابقة التي فتحت أفقا مغايرا لدراسة الأدب العربي القديم بوجه خاص.

وقد درست سوزان ستيتكيڤتش «التفسيرات البنيوية للشعر الجاهلي:نقد واتجاهات جديدة» -بعد إلقاء صورته الأولى في حلقة بحثية سنة 1980- واستكملته بما جعلها تنشره في دورية دراسات الشرق الأدنى بعد ذلك. وهو الأمر الذي حدث بعد عودتي من القاهرة أولا، ولم ينطوِ على مساءلة نقدية عميقة ثانيا. قد يكون ياروسلاڤ- وقد عرفته في زياراته المتعددة إلى القاهرة، واقتربت منه ولا أزال معجبا بمنظوره النقدي الأصيل في حداثته -سبق زوجته (التي كانت

تلميذته) زمنيا في الإسهام في مسار دراسات «الاستعراب» الجديد للأدب القديم، ولكن أن نتحدث عن مدرسة شيكاغو في دراسة الأدب العربي، على وزن مدرسة شيكاغو أو النزعة الأرسطية المحدثة في دراسة الأدب الأوروبي، فذلك إسراف يخلو من الدقة، ويجافي مجرى المتغيرات المنهجية التي وجدت نفسي طرفا فيها، وشاهدا عليها ما بين 1977 - 1978.

وفي تقديري أن التأثير الأقوى صدى كان لدراسة كمال أبو ديب البنيوية عن معلقة لبيد التي كانت تأسيسا لمنظور جديد بالفعل في دراسة الشعر العربي بعامة، والشعر الجاهلي بخاصة. ولم يكن من المصادفة أن تصدر دراسة كمال في السنة نفسها التي صدر فيها كتاب إدوارد سعيد «بدايات» الذي كان ابتداء جذريا في أفق جديد واعد، من منظور المقصد والمنهج، وفي السنة نفسها التي صدر فيها كتاب جوناثان كلر عن «الشعرية البنيوية» الذي كان تأصيلا للبنيوية الأدبية، وترسيخا لمنهجها في دراسة الأدب، وكشفا عن إمكاناتها وتقنياتها، الأمر الذي أدى إلى الاتساع بمفاهيمها في دوائر الاستقبال المختلفة، والإسهام في إغواء الدارسين بها، خصوصا بعد أن أزال الكتاب غموضها، وأبان عن عناصرها التكوينية والعلاقة بين هذه العناصر بما جعل الكتاب نفسه نموذجا بنيويا في النقد الشارح، أو ما بعد النقد.

وأعترف أنني انبهرت بدراسة كمال أبي ديب، عندما قرأتها للمرة الأولى، فقرأتها للمرة الثانية والثالثة في ذلك الزمان البعيد، معجبا كل الإعجاب بجدة المنهج وطزاجة التناول وتجلّي قصيدة لبيد نفسها في ضوء جديد، لم يكن مسلطا عليها من قبل. ودفعتني دراسة لبيد -وكانت الحلقة الأولى من مشروعه- إلى قراءة التحليل البنيوي الثاني لمعلقة امرئ القيس الذي نشر في مجلة «دراسات آداب الشرق الأوسط»، فيلادفيا سنة 1976. وربما نشر في «أدبيات» في الوقت نفسه، فلم أعد أذكر على وجه اليقين.

المهم أن إعجابي بتحليل كمال أبي ديب ظل مستمرا، لكن مع خفوت درجة الانبهار في البحث الثاني، فالحلقة الثانية من مشروع كمال البنيوي لم تكن في مستوى الحلقة الأولى، وربما كانت ألفتي بالمنهج أطاحت بدرجة من السحر التي تحيط بالقراءة الأولى الصادمة بالجدة والأصالة والأفق المغوي.

وكان سهلا أن ألاحظ دين تحليل كمال لمنهج التحليل البنيوي للأسطورة عند كلود ليفي شتراوس على وجه الخصوص، صحيح كانت هناك بصمات خفيفة للتحليل الشكلي للحكاية عند بروب، ومحاولة للاقتراب من رؤية العالم بمعنى من المعاني التي يمكن أن تنطوي عليها بنيوية جولدمان، ولكن العلاقة بليفي شتراوس ظلت هي الأقوى، في مدى استجابتي القرائية لدراسة كمال، وذلك ابتداء من «التشابه المثير الذي يمكن

رصده بين بنية الأسطورة، خصوصا كما يحللها ليفي شتراوس، وبنية القصيدة الجاهلية». ويوازي ذلك تصريح كمال -فيما بعد- بأن «عمل ليفي شتراوس هو الألصق بالمشروع الذي أنهيه»، وأن «مصطلحاته قد لعبت دورا تأسيسيا في تطويري للمنهج البنيوي».

ومصداق ذلك مصطلحات ليفي شتراوس الأثيرة، أو مفاهيمه الإجرائية، التي تحولت إلى عناصر تكوينية منهجية في تحليل كمال كله، ونرى علامات حضورها في تكرار مصطلحات دالة من مثل «حزم العلاقات» و«القيمة الدلالية» و «الثنائيات الضدية» (الأثيرة عند شتراوس) والتحولات، و«الوحدات التكوينية» و«الوحدات الأولية» (أو الوحدات الصغرى التي هي «الميثيمات» جمع «ميثيم» أصغر وحدات الأسطورة عند ليفي شتراوس).

وكان ما يجمع بين كمال وليفي شتراوس -في النهاية- هو وحدة الهدف التي تجعل من الأسطورة، في حالة كلود ليفي شتراوس، بنية دالة من خلال العلاقات التي تبنى بين عناصرها التكوينية، رأسيا وأفقيا، أو تجعل القصيدة، في حالة كمال أبي ديب، بنية دالة موازية، لكن من خلال وجودها التشكيلي النوعي والعلاقات العميقة التي تسود بين مكوناتها البنيوية.

ولا أزال أعتقد أن تأثير تحليل كمال أبي ديب لمعلقة لبيد كان يوازي تأثير كتاب جوناثان كلر على أكثر من مستوى. فكلا العملين فتح أفقا واعدا لمن جاء بعده من

الدارسين، وأصبح إنجازا لا يمكن تجاهله في تاريخ القراءات الجديدة للشعر الجاهلي. صحيح أن نزعة نرجسية، عالية النبرة، كانت تتخلل عمل كمال، في إشارته إلى جدة إنجازه، أو وعيه بخطورة عمله، خصوصا حين يؤكد أن دراسته «لا تتشكل في إطار المعطيات التقليدية التي طفت على كلا الدراسات العربية وتناول الاستشراق الغربي للتراث الشعري العربي».

وهي عبارات لا تذكر سوى الدراسات السابقة المتصفة بالتقليدية، وذلك على مستوى الحضور، لكن ماذا عن مستوى الغياب في الجدلية التي ظل كمال مغرما بها وجعلها عنوانا واحدا من أهم كتبه، «جدلية الخفاء والتجلي». أعني قراءات أدونيس الحداثية للشعر الجاهلي التي افتتح بها الجزء الأول من مختاراته «ديوان الشعر العربي» وأعاد نشرها -بعد تعديلات طفيفة- في كتابه «مقدمة الشعر العربي» (1970).

وأضيف إلى ذلك محاولات لطفي عبد البديع في كتابيه «الشعر واللغة» (1969) و «التركيب اللغوي للأدب» (1970). وكانت موازية لمحاولات مصطفى ناصف التجديدية في قراءته «الصورة الأدبية» (1958) و«نظرية المعنى في النقد العربي» (1964) و«مشكلة المعنى في النقد» (1970) و«دراسة الأدب العربي» (1965). ولا أنسى جهد محمد النويهي في كتابه

«الشعر الجاهلي: منهج في دراسته وتقويمه» (1966). وقد مضى مصطفى ناصف -على وجه الخصوص- في تعميق مجرى قراءته الجديدة للتراث الأدبي والنقدي ابتداء من «قراءة ثانية لشعرنا القديم» (1970) و «صوت الشاعر القديم» (1992) وليس انتهاء بـ «الوجه الغائب» (1993).

وفي مقابل ذلك، هناك على مستوى الاستعراب جهود ماري كاترين بيتسون بكتابها عن الشعر الجاهلي (1970) وبعدها ريناتا ياكوبي (1971)، ثم أندراش حاموري بكتابه عن «فن الأدب العربي في العصر الوسيط» (1974). وكلها كتابات سبقت دراسة كمال أبو ديب، ومهدت له الطريق، ولم تكن تقليدية بحال، ولولاها ما مضت دراسته عميقا في الأفق الذي فتحته هذه الدراسات المحدثة بكل معنى الكلمة.

الطريف أن كمال أبو ديب بدأ -في أطروحته للدكتوراه عن «مفهوم الصورة الشعرية عند الجرجاني» -متأثرا بأفكار «النقد الجديد» الذي سهّل عليه التحول إلى البنيوية، فالمسافة ما بين الاثنين ليست بعيدة، وإنما قريبة بما يتيح الانتقال اليسير بينهما، في اتجاه صاعد ينبني على الاتصال وليس القطيعة. ولذلك ظل كمال في منحاه البنيوي بعيدا عن منحى إدوارد سعيد الذي أصبح صديقا له، فيما بعد، وترجم له «الاستشراق» و «الثقافة والإمبريالية». وكان البعد عن منحى إدوارد سعيد، في ذلك الوقت، يعني البعد عن

مدار ميشيل فوكو الذي اهتم كل الاهتمام بالكتابة عن القوة، وفضح أيديولوجيات القمع.

ولذلك كانت دراسة كمال أبو ديب، عند صدورها سنة 1975، قريبة -في مجالها المعرفي- من كتاب جوناثان كلر عن «الشعرية البنيوية» بعيدة عن مدار إدوارد سعيد، سواء في «بدايات» أو الكتاب الذي صدر بعده بثلاثة أعوام: «الاستشراق». وقد انتبه كمال إلى هذا البعد، فيما بعد، فحاول اختزاله بإدخال عناصر من «البنيوية التوليدية» عند لوسيان جولدمان (1913 - 1970) الذي توفي قبل صدور دراسة كمال بخمس سنوات.

ولا أقصد إلى التقليل من شأن إنجاز كمال أبو ديب الرائد في التحليل البنيوي للشعر الجاهلي، سواء في دراستيه الأوليين أو دراساته اللاحقة التي ضمها كتابه «الرؤى المقنعة» الذي صدر -بعد ذلك بسنوات عديدة- عن الهيئة المصرية العامة للكتاب، في القاهرة سنة 1986. وإنما أريد أن أضع هذا الإنجاز في سياقه فحسب، غير منكر أنه أسهم مع غيره السابق عليه، والموازي له، ثم اللاحق عليه، في تأسيس منظور مغاير لدراسات الأدب العربي في الولايات المتحدة. وهو المنظور الذي لا يزال يواصل مساره التراكمي، مفيدا من المتغيرات التي اقترنت بتحولات البنيوية نفسها، وما جاء بعدها من اتجاهات لاحقة.

ثانيًا: السفر إلى السويد

صديق محترم جدا

عطية عامر واحد من الرجال القلائل الذين أحبهم وأحترمهم في آن. أغلب الظن أنني سمعت اسمه للمرة الأولى سنة 1978 إن لم تخني الذاكرة. كان ذلك من خلال ما أسرّته الدكتورة سهير القلماوي، وكانت رئيسة قسم اللغة العربية الذي كنت أعمل فيه أستاذا مساعدا في ذلك الزمان البعيد. وأخبرتني أنها كانت في زيارة رئيس جامعة القاهرة الذي رجاها في أن تقبل انضمام الدكتور عطية عامر أستاذا للأدب المقارن في قسم اللغة العربية. وألح عليها في الرجاء، خصوصا بعد أن رفض قبوله أساتذة كلية دار العلوم التي تخرج فيها، وتولت إرساله إلى فرنسا للحصول على دكتوراه الدولة من السوربون، لكي يكون خليفة لمحمد غنيمي هلال الذي وضع مهاد دراسات الأدب المقارن في الجامعات العربية كلها.

وبالفعل ذهب عطية عامر إلى السوربون، وحصل على دكتوراه الدولة في موضوع النقد الأدبي الانطباعي أو التأثري بلا فارق. وفي السوربون وقع عطية عامر في غرام شابة سويدية كانت تدرس في الجامعة نفسها، لكي تحصل على دبلوم في العلوم السياسية. ونشأت علاقة حب بين الشاب المصري، مبعوث دار العلوم، والشابة السويدية، واكتملت العلاقة بالزواج، وأكمل عطية عامر أطروحته للدكتوراه التي نالت كل

الاستحسان من أساتذته في السوربون. وتوّج الزواج الفرحة بين الشاب المصري والشابة السويدية التي كانت منتسبة إلى الحزب الديمقراطي الاشتراكي برئاسة أولف بالمه الذي ظل رئيسا للحكومة إلى أن اغتاله أحد المعادين للحزب.

المهم عاد الدكتور عطية عامر إلى مصر من فرنسا مصطحبا زوجه الشابة، واستقر بهما المقام إلى أن توترت العلاقة بين عبد الناصر والشيوعيين المصريين، وعرف عطية عامر عن طريق قريب له في جهاز أمن الدولة أن عبد الناصر أمر بالقبض على التجمعات الشيوعية في مصر، وأن اسمه -أي عطية عامر- موجود في قوائم المطلوبين للقبض عليهم. وأخبر عطية عامر زوجه التي كانت قد حصلت على إجازة مفتوحة من وزارة الخارجية التي تعمل فيها ابتداء، وسافرت للدراسة في السوربون على نفقتها. وساعدت زوجة عطية عامر زوجها على الهروب إلى السويد، حتى لا يقع فريسة البطش الوحشي الذي عانى منه الشيوعيون المصريون من ديسمبر 1959 إلى سنة 1964.

وبالفعل اتفقت مع سفير السويد على أن يحصل زوجها على جواز سفر سويدي، يجعل من عطية عامر تاجر أخشاب سويدي الجنسية. وخرج عطية عامر وزوجه من القاهرة ليلا إلى الإسكندرية، وركبا منها باخرة تقودهما إلى فرنسا، كي يرتحلا من فرنسا إلى السويد. وقد أخبرني عطية عامر، في إحدى جلساتنا

الحميمة، أنه ظل خائفا إلى أن تجاوزت السفينة، وكانت أجنبية الجنسية، حدود المياه الإقليمية لمصر، وأصبحت خارج الحدود المصرية، وأنه بمجرد أن شعر بالأمان، كتب برقية طويلة جدا إلى عبد الناصر، يصارحه برأيه فيما فعل بالشيوعيين من أصدقائه وبالإخوان المسلمين على السواء، وكان في كل ما كتبه ممتلئا بثقافة الديموقراطية السياسية التي تشربها في سنواته الباريسية. وبالطبع، وصلت البرقية إلى رئاسة الجمهورية، فما كان من كبار العاملين فيها إلى أن أسقطوا الجنسية عن أخينا عطية الذي ما إن استقر في استكهولم -عاصمة السويد- حتى حصل على الجنسية السويدية. وما كان أسهل هذا الأمر بعد أن عادت زوجه إلى وزارة الخارجية.

والتحق عطية عامر بجامعة استكهولم التي ترقى فيها، وعمل على إنشاء قسم اللغة العربية فيها إلى أن أصبح رئيسا للقسم، ومرت سنوات طويلة، مات فيها عبد الناصر في سبتمبر 1970، وتولى محمد أنور السادات الذي عاهد الناس على أن يسير على طريق عبد الناصر، لكن ما إن تمكن من الحكم حتى أخذ يمضي في طريق مناقض، وسرعان ما أطاح بزملاء العهد الناصري فيما أسماه ثورة التصحيح. وكان ذلك في مايو 1971، وهو الشهر الذي حصلت فيه دول الخليج على استقلالها (قطر والبحرين والإمارات العربية المتحدة) ضمن سياسة بريطانيا في شرق

السويس. وكان ذلك بعد عشر سنوات من استقلال الكويت 1961.

وقد أعلن السادات ثورة التصحيح بعد توقيع معاهدة الصداقة المصرية - السوفيتية، وذلك تمهيدا لإلغائها بطرد المستشارين والخبراء السوفيت في يوليو 1972، وأخيرا الإعلان عن إلغائها فعليا.

في مارس 1976، حين بدأت القطيعة النهائية مع الاشتراكية الناصرية التي أخذ السادات في محوها بسياسات الانفتاح التي أعقبت حرب أكتوبر التي استثمر السادات نتائجها في التقارب مع الأمريكان الذين أصبحوا الراعي الرسمي لعملية السلام مع إسرائيل، وذلك رغم أنف الملايين الذين صاحوا مع أمل دنقل، قائلين: لا تصالح.

وفي هذه السنوات، أعلن السادات أن حق العودة إلى مصر مفتوح أمام كل الذين اضطروا إلى تركها كرها خلال العهد الناصري الذي ظلت معتقلاته وصمة عار في تاريخه، رغم كل إنجازاته القومية التي لا ينكرها منصف. وبناء على قرار السادات، أعيدت الجنسية المصرية للذين أسقط النظام الناصري الجنسية عنهم، ومنهم عطية عامر الذي وجد نفسه مرحبا به للعودة إلى جامعة القاهرة.

وبالفعل عاد الرجل، لكن أساتذة كلية دار العلوم (التي هو أصلا منتسب إلى أعضاء هيئة التدريس بها) رفضوا

عودته بحجة أن لديهم من يشغل كرسي الأدب المقارن بالفعل. ولما لم يكن هناك من يشغل هذا المنصب في قسم اللغة العربية بآداب القاهرة، لم يكن هناك مفر أمام رئيس جامعة القاهرة سوى الإلحاح على الدكتورة سهير القلماوي أن تقبل الرجل في قسمها. وقد قبلت.

هكذا أصبح الدكتور عطية عامر أستاذا للأدب المقارن بقسم اللغة العربية الذي استقبله أساتذته بنفور. وكنت ألاحظ أن أساتذتي في القسم لم يبدوا ترحيبا به، فظل الرجل أشبه بالغريب، وقضى عاما دراسيا يقوم بتدريس مادة الأدب المقارن لطلاب الفرقة الرابعة في قسم اللغة العربية، وكذلك الأدب العربي لطلاب قسم اللغة الفرنسية. والحق أنني أحسست بوحدة الرجل، فكنت أجالسه بين المحاضرات، أو نذهب سويا إلى نادي الجامعة القريب في حي الدقي. وشهرا فشهرا، صرنا صديقين حميمين رغم فارق السن والدرجة العلمية.

وأذكر يوما أني وجدته وحيدا في النادي، فدعوته إلى الذهاب معي إلى مسكني، وكانت زوجتي تستعد لإقامة احتفال بعيد ميلاد ابنتي سهى (سهير) عليها رحمة الله، وحضر عطية عامر الاحتفال بعيد ميلاد ابنتي، وشعر بأنه في أسرة حميمة تعده واحدا منها. وقد رأيت التأثر في عينيه، خصوصا حين أخبرني أنه لم يحضر معه أحدا من أسرته التي تضم ابنا اسمه أحمس وابنة اسمها إيزيس. وكلاهما لا يعرف اللغة

العربية مثل زوجه التي وعدها بأن تلحق به مع الولد والفتاة عندما يستقر في القاهرة. كان لا يزال يحتفظ بسكنه القديم قبل أن ينفي نفسه، مكرها، من مصر.

ولكن ما لاحظته بعد ذلك أن عطية عامر لم يستقر، خصوصا بعد كل هذه السنوات الطويلة التي قضاها في مجتمع الرفاهية والديموقراطية، أقصد السويد التي لم يكن فيها فساد، ولا وسائط. وما كان أكثر ما يشكو إلي من الارتفاع غير الإنساني لأسعار الشقق المناسبة التي لا يمكن أن تتناسب مع مرتبه في جامعة القاهرة، ولا مع مدخراته في السويد. وظل عطية عامر دائم الشكوى، وظل يعاني من الوحدة وافتقاد الحياة الرخية التي اعتادها في السويد، ومرت أشهر العام الدراسي الذي ما إن انتهى من تصحيح أوراق الامتحان حتى عاد إلى السويد.

وهناك استقر به الأمر، بعد التشاور مع أسرته، على أن يعود أستاذا في جامعة استكهولم التي أصبح فيها رئيسا لقسم اللغة العربية. وكان القسم قد أخذ في الازدهار، خصوصا بعد أن أصبحت رغبة العمل في الأقطار النفطية مغوية للشباب السويدي. وأرسل عطية عامر إلى جامعة القاهرة معتذرا عن العودة، ومستقيلا من عمله فيها. ولم ينس أن يرسل لي رسالة حميمة بعد أن استقر به الأمر في السويد مع بداية العام الدراسي 1978 - 1979. وظل الرجل حريصا على مراسلتي، وأنا أتجاوب معه في المراسلة إلى أن جاء صيف 1980-،

وأخبرني عن رحلته في أقطار إفريقية عديدة مع زوجه التي أصبحت تشغل منصبا رفيعا في وزارة الخارجية السويدية. ودعاني إلى أن أذهب إلى جامعة استكهولم وأعمل معه أستاذا زائرا في القسم الذي يرأسه.

وبالفعل وصلتني دعوة رسمية منه خلال العام 1981. والحق أني فرحت بدعوته للعمل أستاذا زائرا، فقد كنت أتطلع إلى زيارة السويد التي لم أكن أعرف عنها سوى أنها البلد التي تمنح جائزة نوبل الشهيرة، وأنها وطن مخرج السينما العالمي إنجمار برجمان، و المؤلف المسرحي الشهير سترندبرج، وقمت بعرض خطاب الدعوة على قسم اللغة العربية ولكن أستاذي الدكتور عبد المحسن بدر -رحمه الله- رفض بشدة، مذكرا إياي بأنه ليس هناك من يقوم بتدريس النقد الأدبي سواي، بعد سفر زميلي عبد المنعم تليمة إلى جامعة أوساكا في اليابان، أستاذا زائرا لأربع سنوات. وترددت لبعض الوقت، ولم أبد اعتراضا على رأي أستاذي عبد المحسن بدر، فقد كان اعتراضه منطقيا. ولكني -بدافع أجهله- طلبت من القسم عدم اتخاذ قرار، وترك الأمر لي، كي أرد على دعوة عطية عامر بخطاب رقيق يحمل معاني العرفان والاعتذار معا.

ولم أكن أنا ولا عبد المحسن بدر يعلم ما سوف يفعله بنا السادات بعد وقت قصير. فقد كانت الأحداث تتسارع في مصر، والمشاعر المتوترة تتجمع ضد السادات، والمعارضون لاتفاقيات كامب ديفيد لا تزال

أصواتهم مرتفعة، وكنت واحدا منهم، فلم أكن أرى في المعاهدة ما يحقق السلام العادل، أو يحرر الأرض العربية كلها، وكنت أشارك في التوقيع على البيانات المعادية للسياسات الساداتية التي أضاعت أحلامنا القومية في العدل الاجتماعي والوحدة، وكذلك الحرية التي تحولت إلى اضطهاد للقوميين والناصريين واليساريين، مقابل التحالف مع جماعات الإسلام السياسي التي أطلق السادات سراح قياداتها، ليتحالف معهم، ويستعين بقوتهم في القضاء على خصومه، وهو التحالف الذي أدى إلى الاحتقان الطائفي الذي ترتبت عليه أحداث الزاوية الحمراء في يونيو 1981.

ولم يكن من المستغرب أن يبطش السادات بخصومه من كل الاتجاهات، ويلقي بالكثير منهم في المعتقلات. أما الذين لم يدخلوا السجون، فسرعان ما صدر قرار السادات (التاريخي؟!) بفصل أكثر من ستين أستاذا جامعيا، منهم ستة من قسم اللغة العربية الذي كانت تدرس فيه زوجته. وكان المرحوم عبدالمحسن أولنا الذي صدر قرارا بنقله إلى وزارة التعمير، أما أنا فقد نقلت إلى هيئة التأمينات الاجتماعية، مع لطفي الخولي وخيري عزيز وزميلي عبدالمنعم تليمة، متعه الله بالصحة. (وكان لطفي الخولي في باريس فظل فيها، أما عبدالمنعم تليمة فكان في جامعة أوساكا في اليابان). أما بقية الزملاء، وكان منهم نصر حامد أبو زيد، رحمه

الله، وسيد البحراوي وصبري المتولي فقد ذهبوا إلى وزارة الشؤون الاجتماعية، على اختلاف مؤسساتها.

الطريف أنني كنت وعز الدين إسماعيل، رحمه الله، في منزل المرحوم صلاح عبد الصبور لمراجعة الأوراق التي تركها في مكتبه بعد وفاته في الثالث عشر من أغسطس سنة 1981، و كنا في أواخر أغسطس تقريبا، ودار حديث عن نية السادات في فصل معارضيه من الجامعة، وإبعادهم عنها، وتكرر الحديث نفسه في اليوم الثاني في مكتب عميد الكلية حسين نصار، وكان معنا محمد الجوهري وكيل الكلية، وتحدثنا عن صدور قرار جمهوري بإبعاد معارضي السادات عن الجامعة، وظللنا نسخر من الأمر ضاحكين. وقال حسين نصار هازلا: أظن أن جابر سيكون من هؤلاء، وضحكنا إلى أن تركت مكتب العميد، وذهبت إلى منزلي.

والغريب أن ما قاله حسين نصار على سبيل الهزل تحول إلى جد، فقد زارني أمل دنقل في مساء اليوم نفسه، وكانت معه قصيدة «الطيور» التي قرأها، وقال: إنه أهداها لي، فسألته: هل اسمى ضمن أسماء المبعدين من الجامعة؟ فأومأ بالإيجاب، وحكى لي أن قوائم أسماء الأساتذة المبعدين وصلت إلى الجرائد، ولكنها سحبت منها قبل الطبع لتراجع الحكومة في الإعلان عن أسماء الأساتذة، تخوفا من حدوث مظاهرات، فقد كان المناخ السياسي بالغ التوتر. أما أستاذي حسين نصار الذي كان عميد الكلية، فقد شعر بالحزن البالغ، كما لو

كان هو السبب في إبعادي عن الجامعة، بعد أن قال هازلا ما قال، ونحن نضحك في مكتبه!

ولم يتصور أن يصله القرار الجمهوري بأسماء المفصولين من كليته، وبينهم جابر تلميذه الذي كان يضعه في منزلة ابنه. ولذلك طلب من محمد الجوهري أن يذهب إلى منزلي، مؤكدا أن الإبعاد سيكون لفترة قصيرة، وهو أمر أثبتت الأحداث المتلاحقة عدم صحته، لقد ازداد الموقف السياسي اشتعالا، وبدا السادات، كما لو كان قد فقد اتزانه تماما.

وما إن صدر قرار إبعادنا عن الجامعة، وهدأت انفعالات الغضب الأولى، حتى تذكرت أنني لم أرسل ردا على دعوة صديقي عطية عامر، فجلست إلى مكتبي، وكتبت له ردا يخبره بما انتهى إليه مصيري، وأخبرته أنه في حل من دعوتي بعد أن انتفت عني صفة الأستاذ الجامعي بفضل قرار السادات الذي صدر في الثالث من سبتمبر 1981.

ويبدو أنني أيقظت في ذاكرة عطية عامر ما سبق أن عاناه في 1959، فاتصل برئيس جامعة استكهولم الذي أكد ترحيب الجامعة بدعوتي، أيا كان موقعي، وأرسل لي عطية عامر مجددا الدعوة بصورة رسمية.

وكنت قد ألحقت بمكتب رئيس مجلس إدارة الهيئة العامة للتأمينات والمعاشات، ولم يكن مطلوبا مني سوى أن أذهب كل يوم لأحتسي فنجان قهوة مع اللواء

المسؤول عن الأمن بالهيئة. ويبدو أن سيادة اللواء أراد الإفادة من معلومات الأستاذ الجامعي الذي يجالسه صباح كل يوم، فأخذ يطرح علي الأسئلة عن النظم والمذاهب السياسية والفكرية التي يسمع عنها، ولا يعرف معلومات محددة عن كل منها، فصار يسألني عن الوجودية، والفارق بين المذاهب المثالية والمادية، أو الفارق بين الماركسية والشيوعية، أو بينهما وباقي مذاهب الاشتراكية. وتحولت جلسة القهوة كل صباح إلى درس، أقوم فيه بدور الأستاذ، ومضى أكثر من شهر، كنت أذهب فيه إلى الهيئة العامة للتأمينات والمعاشات، إلى أن جاء يوم السادس من أكتوبر،حيث اغتيل السادات في منصة العرض العسكري.

ومضت الأيام متسارعة وقلقة. وكنت قد تقدمت بالدعوة الرسمية للعمل أستاذا زائرا بجامعة استكهولم قبل وفاة السادات، فطلب مني رئيس الهيئة الذي أخذ صورة الدعوة أن أمنحه بعض الوقت للحصول على موافقة الجهة الأعلى. وكانت الجهة الأعلى هي المرحوم مصطفى كمال حلمي الذي كان وزيرا للتعليم العالي، وقد رفض الاعتراف بالدعوة التي كانت موجهة لي بوصفي أستاذا جامعيا قبل الإبعاد عن الجامعة. وجاءت تأشيرة الوزير بأنه لا مبرر للموافقة لأن المذكور الذي هو أنا، قد انتفت عنه صفة الأستاذ الجامعي بعد خروجه من الجامعة. وقد أطلعني رئيس هيئة التأمينات والمعاشات على الرفض وهو حزين حزنا

صادقا، فقد نشأت بيننا علاقة احترام ومودة في الفترة القصيرة التي عملت خلالها بالهيئة ملحقا بمكتبه. وقال لي في أسى: لا تحزن. سوف يدبر الله لنا حلا. وعندما تتابعت الأيام، وحدث اغتيال السادات بالطريقة التي جعلتني أشعر بالحزن عليه، وتدمع عيني وأنا أرى جنازته، وأقارن بينها وجنازة عبد الناصر، فلم يكن الرجل يستحق ما جرى له رغم كل ما فعله فينا، فقد كان صاحب رؤية، نختلف معها ونعارضها. لكن اغتياله بالطريقة التي حدثت، كان جريمة بشعة في آخر الأمر.

ولن أنسى ذلك اليوم الذي استدعاني فيه رئيس مجلس إدارة الهيئة وهو حزين الوجه، ودعاني إلى الجلوس أمامه، وكنا في أوائل شهر نوفمبر، ومد لي يده بملف طالبا مني تصفحه، ففعلت ما طلب مني، وأصابني الخرس وغامت عيني بالدمع، فقد كان الملف عن معاش الشهيد محمد أنور السادات الذي أعتبر موته استشهادا لأنه كان بين جنده الذين خاضوا بأوامر منه حرب أكتوبر، وكل صفحة من الملف عن أحد المستحقين لمعاش الشهيد، ابتداء من الزوجة جيهان والابن والبنات من أولادها، ولم أر صفحة لمعاش كاميليا التي هي ابنته من زوجه الأولى. وبعد أن صمت طويلا، قال لي رئيس مجلس الإدارة الذي يحزنني أنني نسيت اسمه: تأمل فيما يفعله الله في خلقه، وصمت، فصمت بدوري، وخرجت من مكتبه، وأنا أتمتم قائلا: لا حول ولا قوة إلا بالله!

وكنت قد هاتفت عطية عامر، كي أبلغه بمبررات رفض الدعوة، فأمهلني يوما للتصرف في الأمر، قائلا في النهاية بحسم: لا تهتم، سوف تكون معنا قريبا. وبعد يومين بالضبط، جاءني رسول من السفارة السويدية يدعوني لمقابلة السفير، فذهبت إلى مكتب السفير الذي استقبلني بحرارة، داعيا إياي إلى الجلوس، وأخرج من مكتبه مظروفا فتحه، فإذا فيه شهادة لمن يهمه الأمر بأنني مدعو أستاذا زائرا لصفتي العلمية، أيا كان المنصب الذي أشغله، أو الجهة التي أعمل بها. وفرحت بهذه الشهادة، وشكرت السفير على إعدادها، فأجابني مبتسما: لا تشكرني أنا، بل اشكر أصدقاءك في استكهولم.

وفي اليوم الثاني، وقد دخلنا في نوفمبر 1981، حملت الشهادة إلى رئيس مجلس الإدارة الذي قرأها فرحا، وقال لي من حقك أن تفخر بهذه الشهادة، وكدت أقول له: بل أفخر بصداقة الذي كان وراءها، ولكني آثرت الصمت. ولم أجد على لساني سوى كلمات تقول: أرجو أن تكون هناك موافقة، فقال لي الرجل بثقة، نلتقي غدا وتكون معي الموافقة إن شاء الله، فقلت وراءه: إن شاء الله. وقابلته في اليوم الثاني، وقال: لا داعي لموافقة وزير التعليم العالي، حسبك أن تتقدم بمذكرة لي، طالبا إجازة بدون مرتب لمدة عام للسياحة في أوربا، فقلت مندهشا: عام للسياحة في أوربا؟! فأجابني الرجل باسما: اكتب يا دكتور جابر طلب

الإجازة دون نقاش. وكتبت الطلب على ورقة بيضاء أعطاها لي، وعندما أعطيته الطلب، كتب تحته: موافق، واستدعى اللواء المسؤول عن أمن الهيئة، صديق جلسات القهوة الصباحية، وقال له: خذ صديقك الدكتور جابر واستكمل معه الإجراءات.

وبالفعل اصطحبني الرجل إلى مكتبه وأخرج كتاب تصاريح السفر للخارج، وسحب منه الورقة الصفراء التي سأقدمها للجوازات مع فيزا الدخول للسويد التي قدمها لي قنصل السويد في اليوم التالي، وودعت زوجي وابنتي سهير -رحمها الله- وابني أحمد في مطار القاهرة، مرتبكا مضطربا، وركبت الطائرة، متعجبا من سهولة الإجراءات، لكني لم أشعر بالاطمئنان الكامل إلا بعد أن هبطت الطائرة في مطار روما، حيث انتظرت ساعتين، كي أركب طائرة الخطوط الاسكندنافية.

وأخيرا هبطت الطائرة في مطار استكهولم، وخرجت من باب الجوازات. وأخذت حقيبتي التي حملتها خارجا، وكان أول وجه قابلته داخل المطار هو وجه عطية عامر، مبتسما لي، فاتحا ذراعيه فألقيت بنفسي بين ذراعيه قائلا: كيف أشكرك أيها الصديق العزيز، فنظر إلي قائلا: حمدا لله على سلامتك، ومرحبا بك في جامعة استكهولم. وكانت هذه الجملة مفتتح سنة كاملة، تكاد تكون أسعد سنوات عمري، في السويد التي لا أزال أذكرها ومعها عطية عامر بالحب والعرفان.

الاستقرار في استوكهولم

كنا في أواخر الستينيات، إن لم تخني الذاكرة في التاريخ، وكنت ومجموعة من صحبة المحلة الكبرى، أذكر منها أحمد عسر وأحمد الحوتي ونصر أبوزيد ورمضان جميل،رحمهم الله جميعا، جالسين في ظل شجرة كبيرة على الترعة التي تنتهي عندها حدود قرية كفر حجازي -قرية سعيد الكفراوي، بعد أن فرغنا من وجبة غداء عامرة بفضل سعيد الكفراوي الذي تعود استضافتنا جميعا في قريته. وأذكر أن الأحاديث شرقت بنا وغربت، وانطلق صديقنا شوكت فضل يحلم بأنه لابد أن يسافر إلى السويد، فاستغربنا، ولما سألناه عن السبب قال إن دافعه أن يرى هذه البلد التي تبدو له كالأحلام، والتي رأى نساءها في الأفلام، وأنه عاقد العزم على أن يذهب إليها، ويتمتع بفتياتها ونسائها، فقد سمع أنها بلد الحرية الجنسية والحب الحر، وأنه لابد أن يذهب إلى جنتها التي تخايله في الأحلام، ويعيش ما تبقى من حياته بين نسائها الجميلات وحياتها المرفهة.

وقد ظللنا طويلا نهزأ من صغر عقل شوكت، ونهزأ بأحلامه. وعندما جاء دوري في السخرية، قلت: ومن يدري فقد يذهب شوكت إلى السويد فعلا، ويحقق أحلامه، وعندئذ يكون أول أبناء المحلة الكبرى الذين يدخلون السويد فاتحين. وظللنا نضحك من أحلام شوكت الذي أطلقنا عليه بعد ذلك شوكت عاشق بنات

السويد. وأخذت أضحك بصوت مرتفع، لفت انتباه عطية عامر الذي كان يقود سيارته من المطار ليصحبني إلى غرفة استأجرها لي في بنسيون، كي أقضي أياما قليلة، إلى أن يتوفر السكن الدائم لي في مدينة استكهولم.

ولما حكيت لعطية عامر ما كان يضحكني، ضحك بدوره قائلا: وها أنت تحقق النبوءة التي كان يحلم بها صديقك في عاصمة السويد. ولكني قلت له: هذا حقيقي، ولكني كنت أرجو أن أجيء بإرادتي الحرة، لا منفيا من بلدي، مطرودا من جامعتي التي هي حياتي وحلمي المتجدد، قلقا على زوجتي التي ودعتني باكية، رغم قناع التماسك الذي وضعته على وجهها، كي لا يبكي ابني وأخته، وأنا أتركهم إلى مصير لا أعرف إلى أين يقودني.

وأوقف عطية عامر السيارة، وقال لي: تذكر أني كنت مثلك، وظللت سنوات بالغة الطول منفيا خارج مصر إلى أن عدت في زمن السادات. ولكني لم أحتمل الحياة في قاهرتكم، فعدت إلى السويد التي أصبحت موطني وموطن أولادي. أما أنت فقد أصبحت أستاذا في جامعة استكهولم، ولديك عقد عمل يستمر لمدة عامين، ويجدد تلقائيا ما لم ترغب في عدم التجديد، فاطمئن من هذه الناحية واعتبرني ولي أمرك الذي لن يقصر في رعايتك أبدا، ولن يتخلى عنك، فأنت أخي الصغير وأنا ولي أمرك، فحدثني عن نوادر صديقك المجنون بنساء

السويد، فربما ندعوه ليرى الحقيقة لا الأوهام، وابتسم وهو يربت على كتفي بيده.

وواصل قيادة السيارة إلى بناية قديمة، دخلناها، وصعدنا بالمصعد إلى الدور الثاني، وضغط بإصبعه على جرس الباب الذي انفتح، وبرزت لنا سيدة عجوز تصفحتني جيدا، وأشارت لنا بالدخول، ودخل قبلي عطية عامر وقادتنا العجوز إلى الغرفة التي يفترض أنها لي وكانت مضاءة، فقد كنا في أول المساء، وجلست وعطية عامر في فوتيه بركن الغرفة، وأكمل التقديم: السيدة هيلين تتحدث الإنجليزية. وبعد أن تولت السيدة هيلين الترحيب بي، قالت بلغة إنجليزية سليمة: هل تريد أن أساعدك في إفراغ الحقيبة؟ فشكرتها، فجلست أمام عطية عامر تحادثه باللغة السويدية التي كان يتقنها كأحد أبنائها، وظلا يتحدثان إلى أن فرغت، فانتبه عطية عامر، ودعاني إلى الخروج معه لتناول العشاء.

وخرجت معه، بعد أن أعطتني السيدة هيلين ثلاثة مفاتيح: الأول لبوابة المنزل، والثانية لباب الشقة، والثالث لمفتاح غرفتي التي أشارت إلى بابها، وأشارت إلى باب مجاور لباب غرفتي قائلة: هذا هو الحمام، وبه مناشف نظيفة. ونزلت مع عطية عامر الذي دعاني إلى المشي معه إلى محل بيتزا قريب، واكتشفت أنه عاشق للبيتزا عموما ولبيتزا التونة خصوصا. وقد ظلت البيتزا غذاءنا في الأسابيع اللاحقة التي كنا نلتقي فيها كل يوم

أحد في مطعم للبيتزا بالقرب من محطة المترو الرئيسية في منتصف مدينة استكهولم. وكان أغلب العاملين فيه من أصول تركية، وقد ظل هذا المطعم مكانا محببا للقائنا إلى أن غادرت السويد عائدا إلى مصر.

واتفق معي عطية عامر أن يمر علي في الصباح بعد أن أستيقظ لنشتري ملابس الشتاء الذي كان على الأبواب، ولم يكن الثلج قد تساقط بعد. وتركني -بعد العشاء- لأخلو إلى نفسي في غرفتي، بعد أن تركني وحيدا. وكان البنسيون صامتا حين عدت. وأبواب الغرف مغلقة فدخلت إلى غرفتي، وارتديت منامتي، واستلقيت في الفراش تحت غطاء سميك، ولم أنم سريعا، فقد ظللت أفكر فيما انتهت إليه الأحداث.وأسأل نفسي: ترى هل أعود إلى جامعة القاهرة التي طردت منها، أم أننا سنظل على ما نحن عليه. وكانت ذكرى الذين طردوا من جامعة القاهرة سنة 1954 تجول بخاطري. وأتذكر منهم محمود أمين العالم ولويس عوض وعبد المنعم الشرقاوي وعشرات غيرهم من الذين خرجوا من الجامعة، بعد أزمة مارس سنة 1954 ولم يعودوا إليها، وأقول لنفسي: حتى لو حدث ذلك فسأبقى في السويد ولن أعود إلى القاهرة، وأكرر ما فعله عطية عامر.

لكن ماذا عن القضية التي رفعناها ضد السادات بعدم دستورية قراره بإبعادنا عن الجامعة؟ أذكر أن عددا من

الناشطين منا جمعوا مبالغ زهيدة لتوكيل محام جامعي مثلنا يتولى رفع القضية، وتحمس أحدهم وهو الدكتور يحيى الجمل فيما قيل لنا، وجمعنا له توكيلات. ولكن سرعان ما عاد من يمثلوننا بخبر أنهم سحبوا القضية من مكتبه، بعد أن طلب أن يدفع كل واحد منا خمسمائة جنيه. وكانت ثروة هائلة بالقياس إلى ما بقي من مرتباتنا المتواضعة في جيوبنا، وذهب من يمثلوننا إلى حقوقي آخر هو نعمان جمعة الذي قبل الترافع في قضيتنا مجانا، ومن يومها، وأنا أكبر الرجل لهذا الموقف الذي عرفته من زملائنا المبعدين، قبل سفري إلى السويد.

وظللت أفكر في احتمالات أن تحكم لنا المحكمة في الزمن الجديد الذي أصبح فيه مبارك هو الرئيس، ويسعى إلى عقد مصالحة وطنية، أوصاه بها مستشاروه. ولم يكن قد غرِض عليه موضوعنا بعد، ضمن موضوع لقائه بالذين اعتقلهم السادات قبل اغتياله، وذلك فيما أعلن عنه باسم لقاء المصالحة الوطنية. وقد سألت نفسي، في تداعيات رفضي وضع المنفي الاختياري الذي وجدت نفسي فيه: وحتى لو كسبنا القضية..؟ هل أعود أم أبقى؟! لكن ماذا ستكون عليه حياتي في الجامعة التي أصبحت ضيفا فيها، ولم أرها بعد. وظللت أسأل نفسي وأجيب، وأستعرض الإمكانات إلى أن غلبني النوم بعد أن قرأت القرآن

الكريم، وهذا ما ظللت أفعله، دائما، في كل تغريبة طويلة.

وجاء عطية عامر في الصباح وصحبني لشراء ما أواجه به شتاء استكهولم الذي لم أر شتاء مثله، وبعد أن انتهينا من الشراء، ووضعنا المشتريات في حقيبة السيارة، انطلقنا إلى جامعة استكهولم، وكانت الجامعة حديثة في معمارها، ليست على الطراز المعماري القديم لجامعة أوبسالا التي انتدبت للتدريس فيها في الفصل الدراسي الثاني، وقدمني عطية عامر إلى سكرتيرتي القسم. وكانت الأولى نادية، سيدة مصرية متزوجة من سويدي، ومعها الجنسية السويدية. أما الثانية مارينا ستاج فكانت سويدية تستكمل دراستها العليا في القسم وتعد أطروحتها لدرجة الدكتوراه تحت إشراف عطية عامر. وكان معه من أعضاء هيئة التدريس تونسي شاب في مثل عمري، يعمل منذ سنوات في القسم، أظن اسمه الهادي كشريدة، وكان حاصلا على الدكتوراه من الجامعة التونسية، ويحلم بالعودة إليها.

وقد تركني عطية عامر أدخل إلى الطلاب لأتعرف عليهم، وكان عددهم يقارب العشرة. وأغلبهم يدرس اللغة العربية لأنه يريد العمل في الأقطار النفطية التي كانت تبدو كالأساطير لهم، ولم يخل الأمر من طرفة وجود طالبة، تتعلم اللغة العربية لأن حبيبها عربي يدرس في السويد للدكتوراه في الهندسة، واتفق على أن يتزوجها قبل عودته إذا أحسنت العربية. ولم أعلق

كثيرا أو قليلا على الأمر، فالأهم أنني وجدت قبولا عند الطلاب، ورأيت منهم ودا قربني منهم وقربهم مني في قاعة المحاضرات. وكان الحديث عن اللغة العربية بالحصيلة القليلة من اللغة العربية التي تعلموها، وباللغة الإنجليزية التي أتحدثها، ويجيدونها هم. ولذلك لم أجد دافعا قويا لتعلم اللغة السويدية، وقررت عدم اتخاذ هذا القرار إلا بعد أن أعرف هل ستطول إقامتي في استكهولم أو تقتصر على عامين.

وبعد أن خرجت من الدرس مع هؤلاء الطلاب، وجدت عطية عامر وسي الهادي ونادية ومارينا في انتظاري لنذهب إلى الغذاء في مطعم الجامعة، سرنا على الأقدام، ومشيت معهم وأنا أتأمل مباني الكليات التي كانت تتسم بالطابع المعماري الحديث الذي يستغل الأخشاب وألواح الزجاج العريضة المحاطة بالأبنية الخرسانية المستطيلة أو المربعة دون زخارف معمارية أو أقبية كالأبنية الكلاسيكية الأوربية، وما أكثرها في المدينة!. وفوجئت بوجود مطعمين: أحدهما للطلاب، وهو رخيص الثمن نسبيا بالقياس إلى مطعم الأساتذة الذي يتيح فرص اختيار أوسع، ويخلو من مبدأ اخدم نفسك الموجود في مطعم الطلاب، ولما كنت ضيف الشرف هذه المرة، فقد كان الغذاء على نفقتهم، وداعبت عطية عامر أنه لم يطلب البيتزا على عادته، وأكلت بشهية مع مجموعة من الأصدقاء الذين عاملوني كما لو كنت واحدا منهم، واستقبلوني بمودة ومحبة، لن أنساها

لهم جميعا، فما أسرع ما أنسوني الشعور بالغربة، وجعلوني أشعر أني واحد منهم، وعدنا بعد الغذاء إلى قسم اللغة العربية، بعد أن مررنا على المكتبة التي كانت قبلتي بعد ذلك لما وجدته فيها من كتب بالإنجليزية والعربية مع الأغلبية السويدية.

وقد انتظر عطية عامر في مكتبه بوصفه رئيس القسم إلى أن انتهى اليوم الدراسي، واصطحبني سيرا على الأقدام لنركب المترو، كي أذهب إلى البنسيون، وأعرف الطريق بنفسي، فلا أعتمد عليه وعلى سيارته، ومنذ ذلك اليوم أصبحت عارفا بخطوط المترو التي سرعان ما تعلمتها، وأنا أتجول جولات حرة وحدي أو مع طلابي وطالباتي الذين تحولوا إلى أصدقاء بعد أيام، خصوصا أن أغلبهم كان قريبا مني في السن، فقد كنت لم أكمل السابعة والثلاثين بعد. وأنا مدين لهم بتعرفي على معالم استكهولم؛ المتاحف الكثيرة، والمقاهي التاريخية، خصوصا المقهى الذي كان يجلس عليه الكاتب المسرحي السويدي الأشهر أوجست سترندبرج الحائز على جائزة نوبل في الأدب المسرحي، والذي سرعان ما عرفت أن له روايات إلى جانب مسرحياته التي حصل عدد منها على شهرة عالمية، وترجم بعضها إلى العربية التي لم أسمع إلى اليوم أن فيها رواية مترجمة من رواياته.

وقد قرأت رواية منها باللغة الإنجليزية، فهمت منها روح المجتمع السويدي الذي كان يعتمد على صيد

البحر، فالسويد محاطة بالبحار، ولهاحدود بحرية مع الدانمارك وألمانيا وبولندا إلى الجنوب، واستونيا ولاتفيا وليتوانيا وروسيا إلى الشرق. وكانت منازل السويد القديمة تجعل من الموقد الموجود في المطبخ، أهم مكان فيها، حيث يتوفر الدفء في الشتاء القارس، فلا تملك كل أسرة إلا التحلق حول الموقد الذي يُطهى عليه الطعام، ويشع الدفء لأحاديث ما بعد العشاء، حين تتجمع الأسرة حول الموقد مع كل عشاء.

ولم أنس زيارة المكتبة الملكية العامة، والأكاديمية التي تمنح جائزة نوبل. وقد عرفت من عطية عامر أن جامعة استكهولم هي إحدى الجامعات التي تطلب منها الأكاديمية الملكية التي تمنح جائزة نوبل ترشيحات للجائزة. وقد أبلغني عطية عامر أنه كتب ترشيح القسم الذي يرأسه لنجيب محفوظ أكثر من مرة، وأنه بعد أن أدرك عدم نجاح نجيب محفوظ، قام بترشيح يوسف إدريس لعل وعسى. ولم يكن هو ولا أنا نتوقع أن نجيب محفوظ سينتزع جائزة نوبل سنة 1988 بعد سنوات من عودتي إلى القاهرة.

وأذكر أن مبنى الأكاديمية كان مهيبا، ولا تزال صورته ماثلة في ذاكرتي كالمتاحف التي زرتها، والحكايات التي سمعتها عن احترام أهل السويد البالغ لأعضاء الأكاديمية الملكية الذين ينزلهم الشعب، قبل الحكومة، منزلة رفيعة، وذلك في سياقات من حكايات أخرى عن سترندبرج واستريد ليندجرين وغيرهما من الأدباء

السويديين الذين حصلوا على جائزة نوبل في الآداب مثل سلمى لاجرف وهاري مارتنسون وغيرهما، ولكن كل هذه الحكايات أخذت تبهت بفعل الزمن، فقد مضت على السنة التي قضيتها في السويد ما يزيد على ثلاثين عاما، تبدل فيها الكثير. ولكن ظلت أمور ثلاثة لن أنساها فيما يتصل بالسنة الجميلة التي عشتها في السويد.

يتعلق أول هذه الأمور برفاهية حياة المواطن السويدي الذي يعيش عالم الرفاهية والعدل بكل معنى الكلمة. أما الرفاهية فخاصة بالمواطن الذي يتمتع بكل حقوق المواطنة التي لا نزال محرومين منها في مصر. وكنا نظن أن ثورة 25 يناير 2011 سوف تحققها لنا بعد أن أجبر الشباب الثائر مبارك ومعه معاونيه في نظامه الفاسد على الرحيل، فأخذنا نحلم بزمن جديد واعد من المواطنة، ولكن الحلم الجميل الواعد سرعان ما تحول إلى كابوس جاثم على الصدور، لا يريد الرحيل. وازداد التمييز بين المواطنين على أساس الدين والثروة والمكانة الاجتماعية، فضلا عن استمرار الأثر السلبي للعصبية العائلية والقبلية، في موازاة تصاعد التعصب الديني الذي اتخذ أقنعة سياسية. ولم أر شيئا من ذلك في السويد التي تحقق لمواطنيها التعليم المتقدم والعلاج المتطور والمسكن المناسب، والعمل الذي يتيح فرص الترقي، ويوفر التدريب الذي يضاعف الخبرة، وذلك في موازاة أشكال الدعم المختلفة في كل مجال من مجالات الحياة بما يحقق للمواطن الرفاهية الكاملة

في كل جوانب الحياة الاقتصادية والمعيشية، وذلك إلى الدرجة التي سمعت معها أن نسبة الانتحار في السويد من أعلى النسب في العالم، وذلك لما يؤدي إليه الشعور الكامل بالرفاهية من أمراض الرفاهية.

وكنت أعرف من طلابي أن التعليم مفتوح للجميع بلا قيود من ناحية، وبالمجان أو ما هو أقرب إلى المجان، ومتاح للعاملين أن يحصلوا على منح لإكمال تعليمهم في المجالات التي يختارونها، والتفرغ الكامل للتعلم. وقد عرفت من تلامذتي أن الرعاية الاجتماعية تتولى تغطية الفارق في إيجار المسكن في حالة زيادة الإيجار بالقياس إلى دخل المواطن المعيل الذي يحتاج إلى مسكن أوسع من أقرانه لزيادة عدد أفراد أسرته.

يضاف إلى ذلك وجود نسبة مئوية يتم زيادتها سنويا في مرتبات الجميع، وتتحدد على أساس نسبة الغلاء التي تحدث في المجتمع. والحرية كاملة في المجتمع، سواء بمعناه السياسي أو الديني أو العلمي أو الإبداعي في مجالات الإبداع والبحث العلم والفكري. والحرية الفكرية ومداها في التعبير لا تقل اتساعا عن الحرية الاجتماعية.. وصولا إلى الحرية الجنسية في العلاقات بين المواطنين. وقد تزعمت السويد، خلال الستينيات والسبعينيات ما أصبح يعرف باسم «الثورة الجنسية» بما في ذلك المساواة بين الجنسين بما يؤكد ليبرالية استثنائية سواء في العلاقات الجنسية بين الرجل

والمرأة، أو المثلية الجنسية بين المرأة والمرأة، أو الرجل والرجل. وقد سمعت عن قوانين للزواج محايد الجنس.

وما أكثر ما سمعت ورأيت في السويد التي لا أزال أعدها النموذج لدولة الرفاهية والحرية الكاملة المقرونة بالعدل، ولذلك يقوم نظامها الاقتصادي على الحرية المطلقة لرأس المال من ناحية، ولكن مع تحقيق العدل عن طريق نظام صارم من الضرائب التصاعدية التي قد تصل إلى ما يزيد عن تسعين في المائة، فيما قيل لي، من دخل النشاط الاقتصادي والصناعي المزدهر بما يؤكد تكامل العدل والرفاهية في هذا البلد الذي يخضع لنظام ملكي دستوري بنظام برلماني واقتصاد متطور، لا يقل ازدهارا عن التصنيع، وذلك بما جعل السويد تحتل المرتبة الأولى في العالم في مؤشر الإيكونوميست للديموقراطية، والسابعة في مؤشر الأمم المتحدة للتنمية البشرية.

والملك في السويد يملك ولا يحكم كما هو موجود في إنجلترا، فالسلطة التنفيذية لرئيس الوزراء والوزراء، والبرلمان الذي يتولى سلطة التشريع والمراقبة هو الذي يقوم بتعيين رئيس البرلمان من الحزب الحاصل على أغلبية المقاعد البرلمانية. ولذلك فالملك مجرد رمز وليس واقعا سلطويا. وقد أخبرني أحد طلابي -ولعله كان هازلا- أنهم في السويد أجروا استفتاء على بقاء الملكية أو إلغائها، فكانت النتيجة لصالح الحفاظ عليها، لأنها تدر دخلا سياحيا. وقد زرت القصر الشتوي

والصيفي للملك كارل جوستاف. ورأيته عفوا يتجول بين بعض حجرات القصر. وكان الملك ينتقل وحيواناته الأليفة مرة في أول الصيف، وأخرى في أول الشتاء كأنه أحد المواطنين العاديين بلا هيلمان، ولا إيقاف للمرور، فالملك مجرد رمز محبوب، وليس كائنا يتحول إلى طينة أخرى ذات هيلمان وسلطان وحرس مخيف، فهذه كلها أشياء لا يعرفها إلا عالمنا العربي الغارق في فساد الحكام واستبدادهم، واستبداد كل من حولهم بلا حدود.

وتقترن رفاهية هذا البلد الذي عشت فيه أجمل سنوات عمري بما لا أزال أراه تقدما مذهلا في التعليم الجامعي، قد يكون أدنى قليلا من مستوى التعليم الجامعي الذي شهدته في الولايات المتحدة، حين عملت في إحدى جامعاتها سنة 1977. لكن ما رأيته من تقدم التعليم الجامعي في السويد لا يزال أقرب إلى الخيال الجميل بالقياس إلى كوابيس التعليم الجامعي في العالم العربي بوجه عام ومصر بوجه خاص. ويكفي أن نعرف أن الدولة تنفق على التعليم بوصفه استثمارا قوميا بالغ الأهمية، والأساس الأول للتقدم.

وتضم السويد، فيما عرفت وقتذاك- ما يقرب من خمسين مؤسسة للتعليم العالي، أقدمها على الإطلاق جامعة أوبسالا التي تأسست عام 1477، فهي من أقدم الجامعات الأوربية وأعرقها.وهو أمر رأيته في عدد من مبانيها التي لا تزال قائمة بفضل الترميم المستمر

والصيانة الدائمة. وكانت تدهشني دائما المفارقة التي لم أكن أراها في جامعة استكهولم بين المظهر الخارجي بالغ القدم والتقدم التكنولوجي المذهل من المعامل أو أجهزة الاتصال أو المعلومات بالغة الحداثة داخل المبنى القديم الذي يعد الحفاظ عليه عملا وطنيا مقدسا.

ولا أزال أذكر تجولي باعتزاز وفخر بين مباني جامعة أوبسالا التي أصبحت أذهب إليها مرة أو مرتين في الأسبوع، وأنا أرى ميراث الحضارة الأوربية الممتد من قبل بداية عصر النهضة إلى عصر المعلومات، والاهتمام بآداب العالم، حيث وجد مستشرقون أسماؤهم مكتوبة بأحرف من نور لما كتبوه من دراسات، وحققوه من مخطوطات تراثنا العربي، في نزاهة العلماء وإخلاص ودقة الباحثين الذين وهبوا حياتهم لخدمة تراثنا العربي. وأذكر منهم ينبرج الذي هو وأقرانه أبعد ما يكون عن الاستشراق الأيديولوجي الذي تحدث عنه إدوارد سعيد في كتابه الشهير «الاستشراق».

ولقد تركت جامعة «أوبسالا» كما شاهدتها آخر مرة جامعة بحثية دولية شاملة، ظلت على مدى خمسة قرون الصرح الجامعي المتميز الذي ينهل منه الطلاب العلوم القديمة والحديثة والمعاصرة في آن.

أما الجامعة التي لا أزال أكن لها العرفان فهي جامعة استكهولم التي عشت في رحابها عاما، وتركتها وبعض الدمع في عيني حسرة على أيامي السعيدة بها، وصداقاتي الرائعة فيها. وكانت جامعة استكهولم

حديثة بالقياس إلى جامعة أوبسالا، ولكنها من أكبر الجامعات التي تقدم برامج شهادات التعليم الجامعي والماجستير لحوالي خمسة آلاف من الطلاب والطالبات، وتتيح برامج الدكتوراه لحوالي 1800 طالب،وذلك في مجالات العلوم الإنسانية التي تشمل القانون والعلوم الاجتماعية، فضلا عن العلوم الطبيعية. وتستضيف مراكز أبحاثها من الباحثين الدوليين من جنسيات مختلفة.

وتوازي جامعة استكهولم في المكانة جامعة استكهولم للاقتصاد (55E)، وتقدم برامج تنافسية دولية من الدرجة الأولى في إدارة الأعمال والاقتصاد. وقد قيل لي إن تدريس برامج الماجستير في إدارة الأعمال والدكتوراه باللغة الإنجليزية. وقد كنت أريد الرحيل إلى جامعتي جوتنبرج ولوند. والأولى من أكبر الجامعات في شمال أوربا، وتضم عددا كبيرا من أقسام المعارف المعاصرة. أما جامعة لوند فتتميز بأنها من أهم مراكز البحوث في السويد. وهي أحد أفضل مائة جامعة على مستوى العالم، وتقدم مجموعة من المناهج باللغة الإنجليزية. وترجع شهرتها إلى أنها تقدم منحا دراسية لعدد كبير من الطلاب الدوليين المتميزين في مجالاتهم. وللأسف لم أزر جامعتي لوند وجوتنبرج، وظللت ما بين جامعتي أوبسالا العريقة واستكهولم الحديثة.

وكنت أرى التقدم المذهل في التعليم، فأزداد إدراكا أن التعليم المتجدد هو قاطرة التقدم التي تدفع الحياة

الصناعية والتكنولوجيا إلى آفاق رائعة من التطور في الإنتاج الصناعي والإنجاز العلمي، وكنت كلما عرفت أكثر عن التقدم الاستثنائي للتعليم في السويد، أرجو في قرارة نفسي، وأدعو الله في سري أن أرى مثل ذلك في وطني الذي خرج من ديكتاتورية السادات إلى ديكتاتورية مبارك التي قادتنا إلى التأخر بدلا من التقدم. ولكن لا يزال الأمل باقيا في أن تنهض مصر من كبوتها، وتنتفض كطائر العنقاء، مؤسسة بالعلم والتعليم أفقا واعدا من التقدم الذي لا حد له أو نهاية.

وقد أغرتني ذكريات التعليم الجامعي في السويد أن أفتح على هذا العنوان -في «الويكيبيديا»- لتذكر المزيد، فإذا بي أجد أن السويد لا تزال من أفضل دول العالم في أنظمة التعليم، فالأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين ستة وستة عشر عاما يتمتعون بالتعليم الإلزامي الشامل. ويحقق الطلاب الذين تبدأ أعمارهم من خمسة عشر عاما معدلات عالية في مقاييس التنمية العالمية بعد الانتهاء من الصف التاسع. وحوالي 90% من الطلاب يواصلون الثانوية العامة لثلاث سنوات. وهي الدرجة التي تؤدي إلى التأهيل الوظيفي، أو إلى الجامعة بعد خوض امتحانات الدخول للدراسة الجامعية.

والنظام التعليمي يتم تمويله من الضرائب، والاهتمام باللغات الأجنبية ضروري. ولذلك يتحدث أغلب السويديين اللغة الإنجليزية. وكنت أعرف في العام

السعيد الذي قضيته في هذا البلد الذي أحن إليه أن هناك اختيارات متاحة لغير اللغات الأوربية، مثل اللغة العربية التي أصبحت مادة اختيارية في برامج التعليم، وذلك بسبب برامج التعليم المتطورة والمرنة والتي أخذت تتسع لتدريس اللغة العربية بسبب زيادة أعداد الجالية العربية في السويد.

ومن المؤكد أن أعداد الجالية العربية قد تزايدت، وقد تفاقمت مشكلاتها التي شهدت بعض بداياتها عند العراقيين الذين حملوا معهم مشكلاتهم الطائفية وتناقضاتهم السياسية وعصبياتهم العرقية، وهي المشاكل التي تعرقل عمليات الاندماج التي ازدادت تعقدا بالقطع بسبب دور الإسلام السياسي، لكن من المؤكد أن هناك ظواهر إيجابية قد تراكمت، فقد سمعت، مؤخرا، عن نائبة مصرية في البرلمان السويدي، وعن عرب مضوا في طريق الكتابة الأدبية باللغة السويدية، مستغلين الدعم الهائل للثقافة في السويد. وقد كنت أعرف أن الحكومة السويدية تولي اهتماما عظيما بالثقافة، وتخصص للشأن الثقافي مبالغ لا نظير لها في غير السويد، حيث تعتبر الميزانية المخصصة للثقافة في السويد من أعلى الميزانيات مقارنة بالدول الغربية الأخرى.

ومن العادات التي أصبحت راسخة في السويد، إلى اليوم، أن الطفل، وبمجرد أن يولد، تقوم الجهات الصحية المعنية برعاية الطفل بإهدائه كتابا ليكون

الكتاب هو الهدية الأولى في حياة الطفل. وقد شهدت بنفسي ما يؤكد أن السويد من أكثر الشعوب عشقا للقراءة والمطالعة، فشعارها الأثير: «الحياة تعني المطالعة والعمل». ولن تجد شعبا مثل السويديين في الإقبال على المعرفة التي كانت وسيلتها الأولى الكتاب في زمن إقامتي، حيث لم أدخل بيتا سويديا دون أن أجد مكتبة: إما تشغل جدارا كاملا، أو قطعة من الأثاث للكتب، وبالقرب منها الأسطوانات أو تسجيلات الموسيقى العالمية. وبالتأكيد حلت شبكة الاتصالات العنكبوتية (النت) محل الكتب، والـ pad ا محل اللاب توب.

ولكن يظل للكتاب مكانته وسحره في هذه البلاد التي اقتحمت صناعة الاتصالات ذات التأثير الحاسم في الثقافة، وذلك بمعدلات من التطوير والتقدم المذهل التي أراها في منتجات سوني إريكسون، كما أراها في موديلات سيارات فولفو وساب وغيرها، بلاد جعلتني أدرك أن الحياة تعني المعرفة المتجددة والعمل الدائم في كل مجال. وهو الإدراك الذي جعلني لا أتوقف عن الاهتمام بقيم التقدم ونشرها بالكتابة عنها.

الحياة في السويد

استقرت حياتي في استكهولم بعد أن عثرت على مقام لي في فينجرين سنتر وهو المقر السكني لأساتذة جامعة استكهولم الزائرين. وكان المقر يشبه حدوة حصان في بنائه المعماري، ويقع على طرفه (الذي يطل على المدينة) ما يشبه البرج الذي تقام فيه حفلات الاستقبال، ولم أر داخل انحناءة المبنى سوى سطح ممدود من الثلج الأبيض، قيل لي إن وسطه حمام سباحة مستطيل، ولكن المياه متجمدة، ولا يرسم حدود الحمام سوى أشجار تحيط به، لكن الأشجار نفسها كانت مغطاة بطبقة من الثلج، جعلتها أشبه بقطع أثاث مخزون مغطى بملاءات بيضاء سابغة ناصعة البيان.

وكان مسكني يتكون من غرفة نوم وغرفة مكتب واستقبال، ولكل منهما جدار زجاجي ضخم، يطل على هذه المساحة شبه الدائرية من البياض المشبع بالزرقة. وكان يحلو لي أن أفتح الستارة الضخمة لغرفة المكتب، وأجلس إلى طاولة الكتابة، وأتطلع إلى ما وراء زجاجها من هذا البياض المائل إلى الزرقة الذي يغطي كل شيء.

وكانت هناك ناصية أمام فينجرين سنتر هي موقف لحافلات (أتوبيسات) النقل العام، حيث توجد على محطة كل حافلة لافتة مواعيد وصولها بالثانية. وقد أدركت أهمية ذلك عندما شعرت بدرجة الحرارة التي

كانت أكثر من ثلاثين درجة تحت الصفر. ولذلك كان علي أن أتعلم التوقيت الذي أستغرقه في السير من مسكني إلى محطة الحافلة، كي لا يطول بي الوقوف في انتظار الحافلة، خصوصا بعد أن تعلمت درسا قاسيا في المرة الأولى التي وصلت فيها إلى موقف الحافلة قبل الموعد المحدد بعشر دقائق، فوقفت وحيدا متعجبا من أني لا أرى أحدا ينتظر، وعانيت من لسعات البرد القارص (بل الأكثر من قارص) التي كانت تنفذ إلى جسدي رغم كل الملابس الثقيلة التي أرتديها، والتي كنت أبدو فيها كما لو كنت أعيش مع سكان الأسكيمو.

المهم جاءت الحافلة في موعدها بالثانية تماما، وفجأة تدفق الركاب من كافة الاتجاهات، مندفعين إلى باب الحافلة الذي انفتح ليحتويهم لكي ينغلق عليهم بعد ثوان، وتمضي الحافلة إلى مسارها. هكذا تعلمت أن أكون مثلهم، ولا أغادر باب المسكن إلا بما يمنحني الوقت الكافي للوصول أمام باب الحافلة المفتوح بالثانية دون تأخير.

ومضت الحياة في برد أكثر من أن يكون قارصا، وأيام لا أرى فيها ضوء الشمس إلا لسويعات قليلة.وهي معضلة أخرى، كان لابد أن أتكيف معها، فنحن أبناء الشرق الأوسط نصحو مع شروقها ونذهب إلى النوم بعد غيابها في ظلمة الليل. وأذكر أنني أضعت الدروس التي كان علي أن أقوم بتدريسها في اليوم الأول، فقد كنت أصحو فأجد الغرفة مظلمة ولا شمس ولا نور النهار

وراء الستائر، فأواصل النوم إلى أن مللت من النوم، فأضأت المصباح المجاور للسرير، فإذا الساعة جاوزت العاشرة صباحا، وكانت محاضرتي الأولى تبدأ في هذا الوقت، فقمت مهرولا، وبالطبع أضعت المحاضرة. ولذلك قررت أن أصحو على صوت جرس المنبه، أما الشمس، فكنت أراها تطل على استحياء وقت الظهيرة لكي تختفي سريعا، تاركة وراءها ضوءا شاحبا، سرعان ما يختفي.

وكان في مثل ذلك من مفارقات ما يدفعني إلى أن أتعلم ضرورة التأقلم مع كل شيء جديد، وأن أنفتح تماما لأستقبل مفاجآت حياة جديدة في بيئة لم أعرفها من قبل. صحيح أنني عشت في الولايات المتحدة من قبل، وعرفت البرد والجليد، ولكن برد استكهولم وجليدها كان شيئا آخر مختلفا تماما. ولذلك لم أكن أستغرب ما كان يقال عن أشخاص يفقدون حياتهم بسبب أن تعتعهم السكر، فناموا وسط الجليد، فلا يطلع عليهم الصباح إلا وهم موتى. وكانت ظاهرة الإدمان المزمن للخمور أحد السلبيات المترتبة على مجتمع الرفاهية في السويد، وكانت هذه الظاهرة تدهشني،خصوصا في اقترانها بارتفاع معدلات الانتحار. وكنت أقول لنفسي: هذا بلد حققت فيه الاشتراكية الديموقراطية (التي قادهم إليها أوليف بالمه) مجتمع الرفاهية بالفعل. ولكن الرفاهية أرهفت النفوس التي

أصبحت أقرب إلى الهشاشة العاطفية، ولذلك كثرت ظاهرة الانتحار بين الشابات!

كان عقلي يستقبل ذلك ويستوعبه، وذلك بالقدر الذي استقبلت خبر الاستفتاء على بقاء الملكية في البلاد أو زوالها، وجاءت نتيجة الاستفتاء لصالح الإبقاء على الملكية. لماذا؟ لأنها مفيدة في حركة السياحة بوصفها معلما سياحيا. وبالفعل، كان القصر الشتوي الذي كان يقيم فيه الملك جوستاف في «جاملاستان» أي المدينة القديمة، وكانت من أحب المناطق إلى قلبي طوال أشهر إقامتي في المدينة، وقد زرت قصر الملك الذي كان محتشدا بالسياح، وضللت طريقي، فإذا بي أرى الملك نفسه الذي حياني ورددت التحية، بعد أن أرشدني إلى الطريق الصحيح بين طرقات القصر التي بدت بلا انتهاء ولا حصر، وقد كان القصر مفتوحا للزائرين مع وجود الملك الذي لا يمانع في ذلك، فقد كان يسعده أن يرى الجميع قصر أسلافه القديم مثل هؤلاء الأسلاف.

ووقتها سألت نفسي: أترى يمكن أن يحدث ذلك في بلادنا؟

وكانت الإجابة بالنفي فعلا، فقد كانت المقارنة مستحيلة بين مقر السادات الذي تنغلق كل الشوارع التي تحيط به من كل اتجاه، وقد بالغ مبارك في الحراسة أكثر وأكثر، ووصل الأمر إلى إطلاق الرصاص على شاب اقترب من باب القصر الرئاسي أكثر من اللازم، ربما على سبيل الخطأ. أما الملك جوستاف

وزوجه، فكانا يخرجان إلى الناس، ويعيشان حياتهم على كل مستوى.

وهكذا عرفت أن أوليف بالمه رئيس الحزب الاشتراكي الديموقراطي الذي ينزله السويديون منزلة الأبطال قتل في الشارع الذي كنت أراه أعجوبة لأنه ما كان يعرف الثلج أو الجليد، بسبب مواسير المياه الساخنة الممتدة تحت أرضه. وكان هذا الشارع -في ذلك الوقت من بداية الثمانينيات- بهجة للناظرين بمحلاته وقترياته ودور العرض السينمائي فيه.

وقد أخبرني صديق سويدي أن أوليف بالمه كان يصحب زوجه لمشاهدة عرض سينمائي، وخرج مع زوجه بعد العرض في السينما، وانطلقا في السير إلى محطة المترو بلا حراسة، فتصدى لهما أحد المتطرفين المعادين للحزب الاشتراكي الديموقراطي، فأطلق عليه الرصاص، وسقط الرجل الذي لم يكن معه سوى زوجه. ورغم أن هذا الحادث قد أحدث تغييرا في أنظمة الأمن، لكنها ظلت أنظمة رحيمة بالمواطنين، خاضعة للقوانين على نحو لا يمكن قياسه بما يحدث في بلادنا.

كل ذلك كنت أستوعبه، ويستقبله عقلي على نحو مفتوح، متقبل، مستعد للتكيف والتغير، وذلك إلى الدرجة التي جعلتني أراجع موقفي من الماركسية التي كنت قريبا منها، وأميل إلى الاشتراكية الديموقراطية التي رأيت بعيني ما صنعته في السويد من معجزات، فاقتربت من أفكارها وأطروحاتها، واقتنعت بصيغتها

التي صالحت بين أفضل ما في الفكر الليبرالي من قيم الحرية بكل أشكالها ومجالاتها من ناحية ومبادئ الديموقراطية من ناحية ثانية، وبينهما معا مبدأ العدالة الاجتماعية في الفكر الاشتراكي من ناحية أخيرة. وهي مصالحة حققت من المعجزات الكثير بلا أدنى شك.

ومرت الأشهر في مدينة استكهولم. كنت فرحا كالأطفال بالشارع الذي يختفي منه الثلج، ولا يظهر فيه الجليد، وترى نوعا من بخار الماء يتحول إليه الجليد المتساقط عندما يمس أرض الشارع التي يتبخر أي ثلج ساقط عليها. وما أكثر ما كنت أتجول في هذا الشارع الذي نسيت اسمه، وأنطلق منه إلى دور العرض السينمائي التي كانت تعرض أفلاما أمريكية غير مدبلجة. والشعب السويدي يعرف الكثيرون منه اللغة الإنجليزية، ولذلك لم أشعر بحاجة ضرورية إلى تعلم اللغة، فقد كنت مدركا أنني لن أحتاج إلى تعلم اللغة إلا إذا قررت البقاء في السويد، والسير في درب عطية عامر رحمه الله، فكم أحزنني خبر وفاته في الثاني والعشرين من يناير 2012، بعد انقطاع أخباره عني لسنوات طويلة، ولم أعرف نبأ وفاته إلا من صديقتنا المشتركة مارينا ستاج.

وحاولت الاتصال بأرملته مايبريت عامر، ولكني لم أفلح في الاتصال، فدعواتي له بالرحمة وعزائي لابنه رمسيس وابنته إيزيس ولعائلة كل منهما، فما أكثر وأعمق ما أدين به لهذا الرجل من فضل، سواء في

حصولي على وظيفة أستاذ زائر في جامعة استكهولم، أو رعايتي أثناء إقامتي في هذه المدينة التي تركت في نفسي أعمق الأثر.

وأذكر أن خيار عودتي إلى القاهرة بعد انقشاع الغمة التي صنعها السادات أو إيثار الحرية الكاملة بالبقاء في السويد ونسيان الوطن الجمر كان أحد موضوعات المناقشة الدائمة بيني وعطية عامر، وكان يدخل في المناقشة أحيانا السفير عمر شرف الذي فعل كل ما في وسعه للترحيب بي في كل تجمعات المصريين الرسمية وغير الرسمية. ولن أنسى حفل الغذاء الذي أقامه على شرفي، وعرّفني فيه على أخيه سامي شرف الذي كان في زيارة استجمام للسويد، بعد أن كان قد خضع لأكثر من عملية جراحية في فرنسا. وسامي شخصية عذبة تسحرك بالذكريات الخاصة بجمال عبد الناصر الذي كان من أقرب الناس إليه.

ورغم ما كان يغريني به عطية عامر من أسباب البقاء في السويد، وهي أسباب وجيهة ومغرية، ولكني كائن مرتبط بوطنه، أتمثل قول الشاعر:

بلادي وإن جارت علي عزيزة	**وأهلي وإن جاروا عليّ كرام**

وكنت قد تركت ابني وابنتي الصغيرين مع زوجتي، فضلا عن أنني كنت أعمل بجد للفراغ من كتابي العمدة عن طه حسين الذي أكملته في آخر أيامي في مدينة استكهولم، وأتطلع إلى أن أراه مطبوعا مؤثرا. ولم يكن

شوقي ينقطع إلى جامعة القاهرة وإلى قاعات الدرس التي جلست فيها تلميذا لأساتذة عظام، نال بعضهم خصوصا طه حسين، أصعب مما نالني فلم يتغير حبه للجامعة التي رعتني مدرجاتها تلميذا، واتسعت لي مدرسا ثم أستاذا مساعدا، لذلك كان قرار البقاء في السويد مستحيلا، فقد كنت أسابق الزمن للفراغ من كتاب طه حسين، وانتهاء المحاضرات كي أعود. وأذكر أن عطية عامر كان سمحا كريما في تقبل إصراري على العودة بعد السنة الأولى، رغم أني تعاقدت مع الجامعة على سنتين.

وبعد كل هذه السنوات أجد نفسي لم أخطئ في اتخاذ قرار العودة. كان من الممكن طبعا أن أكمل التعاقد، وما كانت جامعة القاهرة لتعارض في ذلك، خصوصا بعد إلغاء قرار السادات. ولكني ما كنت أضمن غواية مدينة استكهولم وجامعتها، فضلا عن جامعة أوبسالا التي كنت أذهب إليها مرة في الأسبوع، وأستمتع بمبانيها التاريخية، فجامعة أوبسالا من أقدم الجامعات في أوربا وأكثرها عراقة، حسبي القول إنها أنشئت سنة 1477 ميلادية. أي في القرن الخامس عشر الميلادي. وكنت أقضي اليوم الذي أذهب فيه إليها متأملا روعة معمارها الكلاسيكي وجمالياته الخاصة.

المهم أن قراري قد استقر على العودة مع شهر أغسطس بعد أن أرى جمال استكهولم وأوبسالا الذي ظل مختفيا تحت الثلوج. وشيئا فشيئا، وأسبوعا بعد

أسبوع، أخذت ساعات ظهور الشمس تطول،ويزداد طول وقت الضوء، وترق وجوه الذين كنت أراهم متجهمي الملامح في الحافلة خلال شهري ديسمبر ويناير. وفي صباح من أصبحة شهر أبريل، أفتح ستائر غرفة نومي، فأرى الأشجار تظهر خضرتها، كأنها تحتفل بانتصارها على الشتاء القاسي. ويأتي شهر مايو بالانتصار الكامل، وأرى مياه حمام السباحة المنبسطة بالقرب من زجاج مكتبي، وأرى حول الحمام جيراني من النساء متناثرات كالحمائم، متجهات بأجسادهن شبه العارية إلى الشمس، كأنهن يأخذن منها في أجسادهن ما حرمن منه طوال أشهر الشتاء الطويل. وينقلب الحال، فيطول النهار، ويظل ضوء الشمس إلى الساعة العاشرة وأكثر.

وأذكر أنني ذهبت إلى المحاضرات في شهر مايو، وانهيت عملي في الجامعة، وخرجت مع بعض الأصدقاء، للذهاب إلى وسط المدينة، وذهبنا إلى مطعم، وأكلنا وشربنا وضحكنا طويلا، وأخيرا تركتهم عائدا إلى المنزل على قدمي، فقد أصبح المشي ممتعا،و لم أكن أرى حولي سوى الزهور في كل مكان، ودخلت إلى حجرة مكتبي وأزحت الستائر، وكان سطح الماء في حمام السباحة لا يزال يعكس الضوء البهيج، وتقطع سكونه حركات بعض السابحين والسابحات.وفتحت بابا صغيرا يفضي إلى الحديقة الكبيرة التي يتوسطها الحمام، وجلست أتأمل المشهد في سكون وهدوء،

وأقول لنفسي: ياللخسارة، سأترك كل ذلك كي أعود إلى القاهرة بمشاكلها ومصاعبها المادية والمعنوية! ولكني رددت على نفسي: لابد مما ليس منه بد.

وأفقت من تأملاتي، ونظرت إلى الساعة، كانت قد جاوزت الحادية عشرة، فتذكرت ما كتبه محمود تيمور عن شمس منتصف الليل، وقررت أن أدعو أصدقائي للسهر معي في هذه الحديقة أمام مسكني آخر كل أسبوع، ابتهاجا بقدوم نهاية الأسبوع. وتذكرت أن طلابي الذين درست لهم في الولايات المتحدة، كانوا يستأذنون في أن نقضي ربع الساعة الأخيرة من المحاضرة الأخيرة يوم الجمعة في احتفال رمزي بسيط، يطلقون عليه: Thank God it's Friday.

- 2 -

أخذت إقامتي في فنيجرين سنتر Vingerin Center في مدينة استكهولم تزداد متعة مع رحيل الشتاء ومقدم الربيع، بل أخذ جمال المبنى نفسه في الظهور، خصوصا بين الأشجار والورود التي تحيط به، وحمام السباحة المستطيل الذي كان يواجه غرفة مكتبي، محاطا بالزهور متعددة الألوان والأشكال. وتعلمت عادة أن أجلس في مواجهة هذا الجمال الباذخ في الأيام التي أخلو فيها من التدريس؛ فأواصل العمل منذ الصباح، إلى أن أشعر بالجوع، فأتزود بما يشبعني كي أعاود العمل في كتابي عن طه حسين. وقد عثرت في مكتبات استكهولم على كتاب بيير كاكيا عن طه حسين

باللغة الإنجليزية فأفدت منه بعض المعلومات التي كانت تنقصني. أما الكتاب نفسه فلم يكن فيه كبير عناء من النواحي المنهجية الجديدة التي جذبتني إليها. وكنت إذا مللت من العمل في كتابي تركته لأقرأ فيما أخذت أعرفه عن الأدب السويدي.

ولم أكن أعرف عن السويد قبل أن أذهب إليها سوى أديبها الأشهر أوجست سترندبرج (1849 - 1912). وطبعا كنت قد قرأت نماذج من مسرحياته الطبيعية، مثل «الآنسة جوليا» و «الأب» وغيرهما، وكنت أعرف عداءه لليهود السويديين، إذ كان يرى فيهم نموذجا للاستغلال البشع. وقد جرّ عليه هذا العداء ويلات كثيرة، أولها تهمة العداء للسامية. وقد فوجئت بأن هذا الأديب العظيم الذي تُذكر السويد عندما يذكر اسمه لم يحصل على جائزة نوبل للآداب. وقد توفي سترندبرج سنة 1912، بينما منحت جائزة نوبل الأولى للآداب سنة 1901 للشاعر الفرنسي رينيه سولي برودوم.

وأذكر أن إحدى تلميذاتي السويديات أهدتني واحدة من روايات سترندبرج المترجمة إلى الإنجليزية، فعرفت أنه كتب الرواية إلى جانب الشعر. وكانت الرواية عن عائلة تعمل بالصيد. وقد تعلمت من هذه الرواية أن الأسرة السويدية القديمة تجتمع، عادة، في المطبخ بالقرب من نار الموقد أو حوله.

ولا أزال أذكر الحوارات الكثيرة التي كانت تدور حول نار الموقد في رواية سترندبرج. وقد حاولت أن أقرأ

للكتاب السويديين الذين حصلوا على جوائز نوبل في الآداب مثل سلمى لاجرلوف التي حصلت على نوبل سنة 1909. وقد تخرجت في جامعة أوبسالا سنة 1907، وتركت روايات عديدة، منها «شبح العربة» و «ملحمة جوستا بيرلنج» وغيرهما من الأعمال المترجمة إلى الإنجليزية، لكني لم أشعر بحماسة للاستمرار في القراءة. وهو الأمر نفسه الذي انتهيت إليه مع هايد نشتام الذي حصل على نوبل سنة 1916، أو إريك أكسل كارلفلت الذي نال نوبل 1931، وبعده «بار لاجيركفيست» 1951، ونيل زاكس سنة 1966 الذي أتذكره، لأنه حصل على نوبل مع يوسف عجنون الكاتب الإسرائيلي.

وظني أن إيفند جونسون وهاري مارتنسون هما آخر من حصلا على الجائزة مناصفة من أدباء السويد سنة 1974. وتبقى إستريد لندجرين أشهر كاتبة أطفال في السويد، ربما إلى اليوم. وكان أغلب إنتاجها مترجما إلى الإنجليزية، وقد اشتريت عددا من قصصها لابنتي سها (رحمها الله)، فقد كانت في العاشرة من عمرها في ذلك الوقت، وتدرس في مدرسة عالمية.

أما الشعر السويدي فما كان لي أن أدخل فيه إلا بعون من صديقتي جونيلا لارست التي كانت دليلي إلى شعر الحداثة في السويد. وأذكر أنني حدثتها عن صديقي أمل دنقل الذي تركته يقاوم مرض السرطان اللعين. وفاجأتني جونيلا يوما بواحدة من سلسلة كتب

«البينجوين» المعروفة عن الشعراء الأوربيين المحدثين. وقدمتها إلي قائلة: هذه مختارات لشاعر سويدي متميز اسمه جونار إكيلوف، وهو يشبه صديقك المصري في المعاناة من المرض نفسه، وهو متأثر مثل صديقك بالتراث العربي، ويستخدم كثيرا من الأقنعة التراثية في شعره.

تلقيت المختارات التي ترجمها الكاتب السويدي ليف سيبري مع الشاعر الإنجليزي و. هـ. أودن، وكتب مقدمتها جوران بنتز بالسون، ونشرت لأول مرة عام 1971 في سلسلة الشعراء الأوربيين المحدثين التي يتولى الإشراف عليها أ. الفاريز ضمن سلاسل «البنيجوين» الشهيرة. وكان للمقدمة التي كتبها المترجمان فضل تعريفي على جونار إكيلوف الشاعر الذي ولد عام 1907 في مدينة استكهولم لأب وأم من الأثرياء، الأم كانت من صغار النبلاء والأب كان سمسارا ناجحا في سوق الأوراق المالية،سرعان ما فقد حياته بسبب مرض الزهري الذي انتهى به إلى الجنون.

وقد أفضت حياة الوحدة التي عاشها الطفل جونار إكيلوف بعد فقد والده إلى الأحلام التي تعوضه عن جهامة الواقع، وإلى القراءة التي تستبدل بعالم الكآبة عوالم من المسرة، ومع القراءة المتصاعدة والتعليم الجامعي تعرف إكيلوف إلى التراث العربي، واكتشف ديوان ترجمان الأشواق في المكتبة الملكية في مدينة استكهولم، وأصبح الديوان كتابه المفضل لسنوات

طوال، وتعلم منه أول ما تعلم المعنى المقصود من وراء الرمزية والسريالية.

ومن هذه البداية الشعرية انطلق إكيلوف إلى الدراسة في مدرسة اللغات الشرقية في مدينة لندن، حيث قضى فترة عاد بعدها إلى السويد ليدرس -إلى جانب العربية- اللغة الفارسية في جامعة أوبسالا، وهناك دهمه المرض بعد أن كان قد أخذ يحتل مكانة متميزة بوصفه واحدا من شعراء الطليعة المحدثة في الشعر السويدي. وقد بدأت الأنظار تتجه إليه منذ مطالع الأربعينيات بعد أن نشر «أغنية العبارة» عام 1941.

وتوالت أعماله الشعرية التي كان من أهمها ديوانه عن «الأمير أمجيون» الذي صدر عام 1965، و «حكاية فاطمة» الذي صدر عام 1966، و «دليل العالم السفلي» الذي صدر عام 1967، وهو ديوانه الأخير الذي أصدره قبل وفاته بعام واحد، فقد توفي إكيلوف عام 1968. وقد أصدر أصدقاؤه ومحبوه بعد موته مجموعات ومختارات من شعره المترجم إلى الإنجليزية، وغيرها، ومنها المختارات التي تضمنت بعض قصائد ديوانين من أهم دواوينه على الإطلاق، وهما ديوان «الأمير أمجيون» 1965 وديوان «حكاية فاطمة» 1966.

ويقول المترجمان في مقدمة المختارات الإنجليزية: إن إكيلوف يشبه الشاعر اليوناني الإسكندراني كفافيس، فقصائده تدور في الماضي وتستلهم أحداثه ومشاهده. صحيح أن كلا من إكيلوف وكفافيس يختلف عن الآخر

في الحساسية الشعرية، فكفافيس ساخر متباعد عن موضوعه، وإكيلوف عاطفي ومنغمس في موضوعاته، ولكن كليهما، لا يختار الماضي بوصفه فرارا، بل بوصفه وسيلة لإضاءة الحاضر ونقده. يضاف إلى ذلك أن إكيلوف الذي كان مشغولا ببيزنطة مثل كفافيس لم يتصورها تصورا مثاليا، بل تصورا واقعيا لعالم ينحدر. هذه الصفة التراثية لا تصل إكيلوف بكفافيس فقط، بل وصلته -في ذهني- بأمل دنقل، فمن يقرأ شعر أمل يرى للماضي مكانة أساسية في هذا الشعر، ويرى الأقنعة التراثية تلعب دورا كبيرا في البناء.

والواقع أن الحديث عن التراث -في هذا السياق- يقودنا إلى نقطة أساسية، يختلف بها شعر جونار إكيلوف عن شعر أمل دنقل كل الاختلاف في الدلالة، ويتشابه معه رغم ذلك في استغلاله الوسائل الفنية، فالشاعر السويدي يتكئ على التراث العربي القديم مثل أمل دنقل، ويصوغ منه أقنعة لافتة، لعل أهمها قناع «فاطمة» المنسوج بمهارة من التراث الصوفي بوجه خاص. يضاف إلى ذلك أن الشاعر كان يرى في الشعر الصوفي عامة، سواء المكتوب باللغة العربية أو الفارسية أو التركية، مصدرا ثريا وينبوعا متدفقا للإبداع الرمزي والسريالي.

وقد تعرف إكيلوف في هذا التراث الصوفي على رمز المرآة الذي لعب عند الصوفية أكثر من دور، فالمرآة رمز لانقسام الوعي على نفسه عندما يتحول الوعي إلى ذات

ناظرة وذات منظور إليها على السواء، وهي رمز للتطلع الداخلي إلى النفس، ورمز للعوالم التي يمكن أن تكتشفها الأنا في عزلتها عن شغب الحواس وغوصها عميقا في أقاليم الروح وتحولاتها.هذا المستوى هو الذي يباعد إكيلوف عن أمل دنقل ويربطه به في الوقت نفسه. ذلك لأن أمل دنقل -مثل إكيلوف- يهتم برمزية المرآة، يذكرها في شعره، ويجعل منها موازيا رمزيا لانقسام الأنا المحدثة في تضادها مع العالم حولها، وتضادها مع نفسها في الوقت نفسه. وأحسب أن قراء أمل يذكرون الإصحاح الثاني من قصيدته «سرحان لا يتسلم مفاتيح القدس»، خصوصا حين نقرأ:

أتجزأ في المرآة

يصفعني وجهي المتخفي تحت قناع النفط

ولكن رمزية المرآة في شعر إكيلوف لا تنطوي على هذه الإشارة الواقعية الحادة في شعر أمل دنقل، إنها رمزية تنقلنا من عالم الواقع الخشن، حيث تناقضات المدينة التي تثقل قصيدة أمل دنقل، إلى عالم ما فوق الواقع، حيث نغادر حيثيات الحس المألوفة، وندلف إلى أعماق الوعي الصوفي، حيث العوالم الذاتية، والغوص في قرارة اللا وعي، والإبحار في أقاليم الروح ما بين ملكوت الغياب وفناء الجسد.

إن هذه الأبعاد الصوفية التي تباعد بين شعر جونار إكيلوف وشعر أمل دنقل هي التي تجعلنا نفهم المغزى

الروحي الذي يومئ إليه هذا المقطع من شعره، حين يقول في قصيدة بعنوان: «بادة»:

أأستطيع

أن أصف السمو

سأختار الأزرق

ورقشتين من ذهب

نجمة على الرأس

نجمة على القدم

وتحت القدم صورة مرآة

قرارها نجمة

وهي نفسها الأبعاد التي تصل المرآة التي تنطوي على معنى السمو (أو الذروة أو «الشهود») بالمرآة المقابلة التي تطالعنا في الأسطر الأولى من قصيدة «فاطمة» حيث نقرأ:

في المرآة الساكنة رأيت مجلى

نفسي وروحي

وهي نفسها الأبعاد التي تصل المرآتين السابقتين بالمرآة الأخيرة التي تتضوأ بها قصيدة «العاشق» لجونار إكيلوف حيث قرأت:

أعرف، بعد كل شيء، أن المرآة هناك

وأن ثمة كائنا مختلفا ينظر من المرآة

يوما ما ستدير عينيك إليه

وعندما تحول عينيك عنه، أتلاشى، أنا، بدوري

أنت مجلى حزنك، مجلى رغبتك

مرآة ذاتك والصورة في المرآة.

إن هذه الدلالات الغنية التي تكتسيها رمزية المرآة في التراث الصوفي، في النهاية، هي التي فتنت جونار إكيلوف وشدته إلى شعر التصوف العربي، خصوصا شعر محي الدين بن عربي،وهي التي جعلته يفتتح ديوانه «عن الأمير أمجيون» باقتباس شعري من «ترجمان الأشواق» يقول فيه ابن عربي:

شعـرنا هـذا بـلا قافيـة	**إنما قصدي منه حرف ها**
غرضي لفظة ها من أجلها	**لست أهوى البيع إلا ها وها**

ولكن إذا كان في عوالم التصوف وفي الهجرة إلى داخل أقاليم للروح ما يميز شعر جونار إكيلوف عما يمكن أن نراه في شعر أمل من بعض التجارب الخاصة، فإن في شعر الشاعرين ما يؤكد إيمانهما معا بأهمية الكلمة الشعرية، وقدرتهما على إصلاح العالم وإعادة بنائه في آن. إن هذا الإيمان هو الذي دفع كلا الشاعرين إلى الكتابة، وهما على يقين من أن الكتابة انتصار على المرض وانتصار على الموت على السواء. ومن هذا المنظور أجد نفسي أقرن دائما بين أمل دنقل وجونار إكيلوف؛ فكلما فكرت في غياب أمل دنقل صديقي الذي

فقدته، والذي حدثته طويلا في خلواتنا -بعد أن عدت إلى القاهرة- عن إكيلوف، والذي قرأت له ما ترجمته من شعره، نقلا عن الترجمة الإنجليزية. أجد نفسي أسترجع أسطر الشاعر السويدي إكيلوف التي افتتح بها ديوان «حكاية فاطمة»، وأرى فيها رثاء لصديقي أمل دنقل، أعني الأبيات التي تقول:

في الخريف أو الربيع

هل ثمّ فارق يهم؟

في الشباب أو الكهولة

هل ثمّ فارق مهم؟

أنت تغيب على كل حال

في صورة الكل

أنت تفنى، أنت فان

الآن، أو في اللحظة السالفة

أو منذ ألف من الأعوام الماضية

ولكن غيابك

يبقى.

- 3 -

ولا أنسى يوما من أيام الربيع، خرجت فيه سائرا على قدمي في شارع «إسقيا فيجن» الذي ينتهي في الميدان المركزي لوسط المدينة، فلاحظت أن جميع

محلات بيع الكتب، على امتداد الطريق تزين واجهاتها الزجاجية بزخارف شتى، بهيجة الألوان، وتملأ الڤاترينات نسخ من كتاب واحد، كان واضحا أنه موضع احتفال وطني. وقادني الفضول لمعرفة الكتاب الذي هو سبب الاحتفال، فإذا بالكتاب هو رواية «البحث عن الزمن المفقود» للكاتب الفرنسي الأشهر مارسيل بروست بأجزائه السبعة التي كانت تتراص في ألق مبهر، وراء زجاج ڤاترينات كل مكتبات استكهولم التي كانت مؤسساتها الثقافية تحتفل باكتمال الترجمة إلى اللغة السويدية سنة 1982 وصدورها في سبعة مجلدات، أصبحت موضع احتفال السويد كلها. وظللت أسمع عن اكتمال هذه الترجمة كأنها حدث قومي باعث على الفخر والاحتفال.

ولا أنكر أنني بقدر ما شاركت في هذا الاحتفال وفرحت به، بوصفي مثقفا يعرف قيمة هذه الرواية العظيمة في تاريخ الآداب العالمية، لم تفارقني الحسرة على الأوضاع الثقافية في البلاد العربية بعامة، ومصر بخاصة. وسألت نفسي: ترى هل نال الرجل العظيم حسن عثمان شيئا من العرفان على ترجمته الكوميديا الإلهية لدانتي بأجزائها الثلاثة (الجحيم، المطهر، الفردوس).

أعرف أن سليمان البستاني عندما فرغ من ترجمة إلياذة هوميروس شعرا، مع مقدمة مسهبة، بالغة الطول والفائدة، سنة 1904، احتفلت الأوساط الثقافية معه

-في مطلع القرن الماضي- احتفالا كبيرا بصدور «الإلياذة» بلغة الضاد، وقام الناشر بجمع الكلمات التي ألقيت في الحفلات، والمقالات التي نشرته الصحف العربية، في كتاب بعنوان: «هدية الإلياذة». أما البحث عن الزمن المفقود فلم أسمع لها عن ترجمة عربية كاملة إلى سنة 1982.

وقد أسهم القسم الثقافي الفرنسي في استكمال ترجمتها إلى العربية مع دار نشر شرقيات المصرية، بعد أن كانت وزارة الثقافة السورية قد نشرت مجلدات ثلاثة منها، ترجمها المترجم السوري إلياس بديوي. ولكن دون احتفال كبير أو صغير، ذلك على الرغم من أن جرهام جرين الكاتب الأمريكي وصف مارسيل بروست بأنه «أعظم مؤلف في القرن العشرين»، ووصف الروائي البريطاني سومرست موم الرواية بأنها «أعظم عمل قصصي».

أما عن المترجمة السويدية التي رأيت الجميع يحتفلون بها احتفالا قوميا فهي جونيل ڤالكوست Gunnel Vallquist. وقد جعلت منها الترجمة عضوا في الأكاديمية الملكية، أو الملكية السويدية، تحية لها على استمرارها في الترجمة والصبر عليها؛ فقد نشر الجزء الأول من الترجمة سنة 1964، وواصلت العمل في دأب إلى أن أكملت العمل سنة 1982. وقد أخبرتني صديقتي مارينا ستاج بن جونيل ڤالكوست مولودة سنة 1918، وأنها أسن أعضاء الأكاديمية فهي في الخامسة

والتسعين تقريبا، حسب ما كتبته لي مارينا على الـ E.Mail وقد استطردت قائلة إن اثنين من أعضاء الأكاديمية استقالا، احتجاجا على الاستجابة اللينة لفتوى الخميني بإهدار دم سلمان رشدي، في أعقاب ضجة روايته «آيات شيطانية». ولا يزال منصبهما شاغرا، لن يشغله أحد إلا بموتهما.

وظني أن ما رأيته من احتفالات بترجمة رواية بروست التي كتبها في مطلع القرن العشرين، ضمن حركة الحداثة الأولى، قد تسربت إلى قاع الوعي مني، وظلت حية فيه، ويبدو أنها كانت أحد العوامل التي دفعتني إلى التفكير في إنشاء مركز قومي للترجمة. وبالفعل بدأت تحقيق هذا الحلم سنة 1995 مع صدور الكتاب الأول المترجم من المشروع القومي للترجمة في المجلس الأعلى للثقافة في القاهرة، ثم افتتاح المركز القومي للترجمة بالقاهرة سنة 2006.

والحق أن عملي في كتاب طه حسين، فضلا عن التدريس، لم يمنعني من الاستمتاع بمباهج السويد الثقافية، خصوصا في مدينة استكهولم التي كانت تتيح لي أن أتعرف على الأوجه الإبداعية والثقافية للحياة في السويد. وكنت أعرف مكانة السينما السويدية من قبل، وإن كانت عدم معرفتي للغة السويدية حالت بيني والذهاب إلى المسرح. ومن المؤكد أنني لم أترك متحفا مهما في المدينة دون أن أذهب إليه، مصحوبا -في

العادة- بمن كانوا خير دليل لي، سواء في متاحف الفن أو التاريخ، أو العلوم.

أما عن السينما، فمن المعروف أن السويد أهم الدول الإسكندنافية في صناعة السينما، وهي معروفة بأفلامها المهمة في تاريخ السينما، فضلا عن أعلام المخرجين العالميين، وعلى رأسهم إنجمار برجمان Ingmar Bergman وينطقها السويديون إنيمار بريمان، (فالجيم تنطق ياء في اللغة السويدية). وكنت مفتونا بفيلمه الأخير «برسونا» 1966، حيث تختفي العلاقة بين الواقع الفعلي والأحاسيس الداخلية للشخصية عنه، أو رؤيتها الخاصة له. أعني المشاعر الداخلية التي تتأرجح بين السعادة الجارفة والإحباط واليأس.

وقد حرصت على رؤية «برسونا» في نسخته السويدية، وتركت نفسي أستمتع بتقلب الانفعالات النفسية التي تنعكس أصداؤها على المشاهد، بواسطة الضوء وتعتيم الصورة.

وقد عرفت أن هذا الفيلم الذي لا أزال أمتلك نسخة منه قد حصل على ثلاث جوائز أوسكار لأفضل فيلم أجنبي، وجائزة الدب الذهبي في مهرجان برلين. وقد عرفت أن لبرجمان العديد من الأفلام التي أسهمت في تحويل مجرى هذا الفن من مثل «لعبة الصيف» و «مونيكا». وقد اعتبر فيلم «لعبة الصيف»- على وجه التحديد- الملهم لحركة الموجة الجديدة في السينما الفرنسية، حيث تألقت أفلام فرانسوا تروفو وجان لوك

جودار وكلود شابرول وغيرهم. وقد عرفت أن برجمان بعد أن قدم أفلامه العلامات، عاد إلى المسرح حبه الأول. ولكني لم أر مسرحا له، فحسبي ما رأيت من أفلامه التي حفرت له مكانا متميزا في تاريخ السينما العالمية. وأظنه في الخامسة والتسعين من عمره المديد الآن.

ولا يمكن أن تذكر السينما السويدية دون أن أذكر معها نجمات ونجوم هوليود من السويديات والسويديين. ولم أكن معاصرا لأفلام جريتا جاربو المولودة في مدينة استكهولم سنة 1905. ولكن أذكر على نحو باهت فيلمها الشهير نينوتشكا. غير أني أعرف إنجريد برجمان الساحرة التي كانت بطلة فيلم «كازابلانكا» مع همفري بوجارت في الأربعينيات، ومع ذلك لا يزال له سحره المتجدد. وقد ولدت إنجريد برجمان في استكهولم مثل سابقتها جريتا جاربو، ولكن بعدها بسنوات. وحصلت على ثلاث جوائز أوسكار فيما قرأت عنها.

ولا ينسى دورها في فيلم «دكتور هيجل ومستر هايد»، وكذلك دورها في فيلم «لمن تدق الأجراس» رواية إرنست هيمنجواي، فضلا عن بطولتها فيلم «انستاسيا». وأذكر لها «عربة الرولز رويس الصفراء» مع عمر الشريف. وبالطبع لا يمكن نسيان بيبي أندرسون التي قامت بتمثيل «برسونا»، أو أنيتا إكبرج بطلة فيلم «الحياة الحلوة» للمخرج الإيطالي الشهير فيديريكو

فيلليني. وقد رأيت صورا لها في شيخوختها في مدينة استكهولم التي شهدت شبابها في فيلم فيلليني، فتعجبت من قسوة الزمن وما يفعله بالبشر بعد الثمانين.

والحق أنني لم أكن أترك الأفلام الأمريكية التي كنت أسمع عن تميزها، فأذهب مع الأصدقاء لمشاهدتها، ولا أنسى من هذه الأفلام فيلمين على وجه التحديد. أما أولهما، فكان «حمر» وهو فيلم ملحمي من إنتاج 1981، وقد شارك في كتابته وإخراجه وإنتاجه الممثل الأمريكي وارين بيتي. ويدور حول حياة الصحفي الأمريكي جون ريد الذي سجل يوميات الثورة الروسية في شهر أكتوبر سنة 1917، في كتابه الشهير «عشرة أيام هزت العالم». وتولى البطولة إلى جانب وارن بيتي دايان كيتون في دور لويز بريانت وچاك نيكلسون الذي قام بدور الكاتب المسرحي الأمريكي يوجين أونيل. وينطوي الفيلم على شهادات لمعاصري جون ريد ومعارفه، مثل الناشط السياسي سكوت نيرنج ودوروثي فوكس وروجر بالدوين وهنري ميللر. وقد حصل وارين بيتي على جائزة أوسكار أفضل مخرج. وكان الفيلم منافسا لفيلم «عربات النار» الذي نال الجائزة نفسها.

وأذكر أنني دعوت صديقي حسن حنفي إلى مشاهدة الفيلم، فقد كان في زيارة لي، قادما من إحدى الأقطار الإسكندنافية. وكان الجانب التاريخي جاذبا لنا في مشاهدة الفيلم، خصوصا تصوير أحداث الأيام العشرة

التي هزت العالم من منظور الصحفي الأمريكي اليساري جون ريد الذي لم أكن أعرف -في ذلك الوقت- أن المخرج الروسي العظيم سيرجي أيزنشتاين قد أخرج فيلمه «أكتوبر» (عشرة أيام هزت العالم) سنة 1928، مستغلا إمكانات السينما الصامتة في صياغة ملحمة شعرية لا علاقة لها بالدعاية. غير أن الذي يبقى من فيلم وارين بيتي هو كشفه للأوساط اليسارية في داخل الولايات المتحدة، واستجاباتها المختلفة إلى الثورة الروسية التي يدين العالم كله لمثقف من هذه الأوساط، هو جون ريد الذي قام بتسجيل لأهم عشرة أيام في تاريخ الثورة، وذلك في كتابه العلامة.

أما الفيلم الثاني الذي يقترن في ذهني بأصدقاء استكهولم، فهو فيلم «مفيستو»، المنتج سنة 1981، والذي لا يزال إحدى كلاسيكيات السينما العالمية. ومفيستو عنوان الفيلم المأخوذ من رواية كلاوس مان «مفيستو». وأخرجه ستيفنز نيفان زباتو، وبطولة كلاوس ماريا براندور في دور هندريك هوفجن. والفيلم إنتاج مشترك لشركات سينما في ألمانيا الغربية وهنجاريا والنمسا. وحبكة الفيلم مأخوذة من قصة مفيستو والدكتور فاوست، وذلك بالتركيز على شخصية هندريك هوفجن الذي يتخلى عن ضميره، مرتميا في أحضان الحزب النازي، وذلك في سبيل أن يبقى في عمله ممثلا، ويرتقي في مكانته الاجتماعية.وتقوم المفارقة الساخرة في الفيلم على مرارة تنبع من أقصى

أماني البطل في أن يقوم بتمثيل دور مفيستو، ولكنه لكي يحصل على الدور، كان عليه أن يبيع روحه، فلا يدرك إلا متأخرا أنه -في حقيقة الأمر- فاوست. ويقوم قائد نازي بدور رئيسي في الفيلم (مجسدا شخصية هيرمان جورنج) بوصفه مفيستو أو الشيطان الحقيقي.

وقد أدى كلاوس براندور دوره ببراعة نادرة. وكان الإخراج ذكيا إلى أبعد حد، تعينه الموسيقى والمؤثرات الصوتية. ولذلك كان من الطبيعي أن يحصل على أوسكار أحسن فيلم أجنبي، بعد أن دفعت به الأكاديمية الهنجارية إلى مسابقة الأوسكار سنة 1981. وفي العام نفسه، حصل الفيلم على جائزة أفضل سيناريو في مهرجان كان. وما أكثر ما انفعلت بهذا الفيلم! وأنا أشاهده مع أصدقاء سويديين. وكنت أرى في شخص هندريك هوفجن نموذجا لهؤلاء الذين باعوا من زملائي وبعض أساتذتي شرفهم الجامعي الوطني، إرضاء للسادات وصلحه مع العدو الإسرائيلي وتحالفه مع الجماعات الإسلامية سامحه وسامحهم الله!

هكذا، كنت أقضي أيامي في استكهولم التي أحببت ربيعها وصيفها، ولم أستسغ -قط- شتاءها فهو أقسى شتاء واجهته في حياتي. أما صيفها وربيعها فلهما عبق في ذاكرتي لن أنساه، ما حييت. ومن الطريف أنني ظللت ما يقرب من شهر أحكي عن المشاهد التي فتنتني في فيلم «مفيستو» الذي لم أستطع أن أحصل على نسخة منه رغم التقدم المذهل للوسائط المعرفية

تكنولوجيا. ولكني قبل أن أترك جامعة استكهولم رأيت نموذجا مصريا لهندريك هوفجن، فقد أبلغني عطية عامر ضرورة أن أذهب معه إلى مدير مكتبة الجامعة لنكون جميعا في استقبال ممثلي السفارة العراقية التي سوف تهدي الجامعة عددا كبيرا من الكتب باللغة العربية والإنجليزية والفرنسية. وذهبت معه باعتباره رئيسا لقسم اللغة العربية، وأنا أستاذ في القسم.

وانتظرنا المسؤول العراقي الذي جاء بصحبة عدد كبير من الكراتين مملوءة بالكتب. وما إن فتحنا الكراتين حتى وجدنا بداخلها نسخا مكررة من كتاب واحد كبير الحجم عن صدام حسين باللغة العربية تأليفا، وباللغتين الإنجليزية والفرنسية ترجمة. وكان المؤلف أمير إسكندر الكاتب المصري الذي كنت أعرفه ماركسيا، هاجر من مصر إلى العراق أيام السادات، حيث وقع في الفخ كما وقع هندريك هوفجن. وتصفحت النسخة العربية الفاخرة فوجدت العنوان: «صدام حسين: مناضلا ومفكرا وإنسانا»، والمؤلف الدكتور أمير إسكندر. وحاولت قدر الإمكان تمالك أعصابي حتى لا أسبب حرجا لجامعة استكهولم، فممثل دولة عربية ذات سيادة يأتيها بكتاب عن حاكم بلده. والكاتب دكتور فيما يقول العنوان، فوضعت قناعا على وجهي، وتسلمت نسخة باللغة العربية وأخرى باللغة الإنجليزية. وعرفنا أن النسخ الأخرى ستذهب إلى مكتبة القسم.

وكظمت غيظي إلى أن انتهى الأمر، وعدت وعطية عامر إلى مكتبة القسم. ولا أذكر ماذا قلت له غاضبا، لكني أذكر أن عطية عامر ظل يضحك من الكيفية التي كانت عليها ملامح وجهي، فلم أملك في النهاية سوى أن أضحك معه. ولكنه كان ضحكا مرا، فقد كنا نرى هندريك هوفجن باسم مصري. وبعد أن أنهينا أعمالنا في القسم حملت معي الكتاب إلى مسكني، وكلي شوق لتصفحه، وظللت أسأل نفسي طوال الطريق: متى حمل أمير إسكندر درجة الدكتوراه، وعهدي به في مصر بلا دكتوراه؟ وماذا سيقول عن نفسه هذا الرجل الذي كنت أعجب بما يكتب عن فكر صدام حسين؟!

وأخيرا، وصلت إلى المسكن، وأخذت في تصفح الكتاب، وأقرأ ما يضحك عن فكر صدام حسين الذي بدا كما لو كان قد غاص إلى قرارة قرار الماركسية والوجودية والفكر القومي العربي. ولم أستطع أن أكمل فنحيت الكتاب إلى أبعد ما يمكن عن الكتب، وقررت أن أمحو الكتاب من ذاكرتي. ولكن عطية عامر في اليوم التالي أبى إلا أن يذكرني، وأخذ يسألني أسئلة هزلية عن كم من الأموال حصل عليها الدكتور أمير إسكندر بعد تأليف الكتاب وطباعته؟! وكم من أموال الشعب العراقي تكلفتها الترجمة الفرنسية والإنجليزية؟!. وهنا دخل صديق لنا عراقي، يعمل في الجامعة، ومعه الجنسية السويدية، وظل يحكي ما يشبه الأساطير عن الأرقام التي تقاضاها أمير إسكندر على تأليف هذا

الكتاب الذي لن يمحو الزمن فضيحته. وفي النهاية استغرقنا في الضحك الساخر من أمثال هندريك هوفجن. وأخيرا، خرجنا إلى الغداء في مطعم الجامعة.

وقد أصبح من عاداتنا التي لا أزال أذكرها الذهاب إلى مطعم الجامعة. والحق أنه كان هناك مطعمان، واحد للطلاب رخيص الثمن، عبارة عن بوفيه مفتوح. أما الثاني فهو للأساتذة. وهو أغلى ثمنا، وأكثر راحة لمن يريد الدردشة ساعة الغداء التي تبدأ من الثانية عشرة ظهرا إلى الساعة الواحدة، وكان يصحبنا أحيانا الصديقة العزيزة مارينا ستاج، وكانت تعمل في أطروحتها الأولى عن يوسف إدريس، وتعمل موظفة إدارية بالقسم في الوقت نفسه، ولا أنسى أنها أسهمت في تبديد وحشة الأيام الأولى بأن أقامت لنا عشاء بهيجا، وتعمقت صداقتنا بسبب إعجابنا المشترك بيوسف إدريس الذي كان كلانا يرى فيه أديبا عالميا، يستحق جائزة نوبل بالتأكيد.

وقد عرفت -بعد استقراري- أن جامعة استكهولم إحدى الجامعات السويدية التي كان يطلب منها الترشيح لجائزة نوبل في مجالاتها المختلفة، لا تختلف في ذلك عن غيرها من الجامعات ومراكز الأبحاث والمؤسسات العلمية أو الأدبية على امتداد العالم.وقد أخبرني عطية عامر أنه كتب باسم القسم ترشيحا لنجيب محفوظ، وأصبح الترشيح بالطبع ترشيح الجامعة، ومرت سنوات على ذلك. وعندما وصلت إلى

جامعة استكهولم، كان عطية عامر غاضبا على نجيب محفوظ لبعض تصريحات له، اعتبرها نوعا من «التطبيع» الذي كان يرفضه كلانا، فتحمس عام 1982 لترشيح يوسف إدريس، ولم أعارضه، فقد كان رأيي، ولا يزال، أن يوسف إدريس عبقرية نادرة لا نظير لها في كتابة القصة القصيرة، وذلك بقدر نجيب محفوظ الذي كان هو -بدوره- عبقرية نادرة لا نظير لها في كتابة الرواية.

وأذكر أنني عندما عدت إلى القاهرة أخبرت يوسف إدريس بأن جامعة استكهولم قد قامت بترشيحه لجائزة نوبل. وقد فرح يوسف -رحمه الله- فرحا شديدا. وأخبرني في حماسة فرحته أن بعض الأساتذة السويديين في جامعات سويدية أخرى قد قاموا بترشيحه. ولم أرد أن أفسد فرحته بأن أقول له إن عشرات الجامعات والمؤسسات تقوم بالترشيح، واكتفيت بمشاركته الفرحة وحسب، ومضينا في سهرتنا التي كان يتوسطها دائما أمل دنقل الذي يرجع إليه فضل توثيق علاقتي بيوسف إدريس حتى على المستوى العائلي.وما أكثر ما ضم مجلسنا منزلي في القاهرة أو منزل يوسف الذي كان نبيلا شهما في موقفه عندما علم بنقلي من الجامعة. ولن أنسى الكلمة البديعة في حزنها وشاعريتها التي ألقاها عندما أقمنا حفل تأبين لأمل دنقل الذي توفي في الحادي والعشرين من مايو

1983، قبل خمس سنوات من إعلان حصول نجيب محفوظ على الجائزة.

وقد ثار يوسف إدريس وأصدر تصريحات انفعالية عن استحقاقه للجائزة، لكن نجيب محفوظ لم يغضب ولم يعاتبه إلى أن هدأ يوسف إدريس، خصوصا أن الفرحة بوصول أول كاتب عربي إلى نوبل سنة 1988 كانت غامرة على كل المستويات. رحم الله الجميع فقد توفي يوسف إدريس في أول أغسطس 1991. وقد لحق به نجيب محفوظ في الثلاثين من أغسطس 2006. أما عطية عامر فقد ظلت علاقتي به وثيقة بعد عودتي من السويد، وظللت أراه كل عام تقريبا، وعرفت أنه أصدر كتابا بعنوان: «عصفور من الريف» عن مكتبة الأنجلو المصرية سنة 1996 التي أصدرت له في العام اللاحق كتاب «مع أبي العلاء في اللزوميات».

ومرت السنوات التي سرقتني من الجامعة بعد أن غرقت في العمل الثقافي العام. خصوصا ابتداء من سنة 2004 إلى أن تركت العمل الثقافي، وقررت أن أكتفي بالتدريس في الجامعة، وأخصص من وقتي ما يتيح لي أن أكتب ذكرياتي الخاصة، فكتبت مقالا نشرته مجلة العربي بعنوان: «صديق محترم جدا»، وكنت أرجو أن يكون تعبيرا عن ديني العميق لعطية عامر. ولكني فوجئت بعد نشر المقال بأنه توفي في الثاني والعشرين من يناير سنة 2012 عن تسعين عاما، ودفن في مدينة استكهولم التي أصبحت مستقرا له ولعائلته في السويد

التي أحبها، ونقل لي عدوى حبها، رحمه الله رحمة واسعة؛ فقد كان نعم الصديق والراعي والسند في أيام صعبة، أحالها إلى أيام بهيجة.

-4-

كنت قد فرغت من كتابة النصف الأول من كتابي عن طه حسين في القاهرة، وما إن استقر بي المقام في استكهولم حتى أخرجت أوراق الكتاب كله، وأخذت أرتب أوراق وجذاذات النصف الثاني، وأرسم له هيكلا، ذا بناء وتفاصيل قبل أن أشرع في الكتابة. وكان الشتاء قد رحل غير مأسوف عليه. وأنهكني العمل لدرجة الإملال ذات يوم؛ فخرجت طالبا التريض، كي أجدد نشاطي ورغبتي في العمل على السواء. وانطلقت سائرا على قدمي، متجها في شارع سيفا ڤيجن إلى قلب مدينة استكهولم، حيث يقع الميدان الرئيسي الذي يتوسط المدينة. وأخذت أتجول في الميدان الضخم وأتعرف على مبانيه إلى أن مررت بمبنى مكتوب على مدخله باللغة السويدية «بيت الثقافة».

وكنت قد سمعت عنه ولكني لم أزره؛ فقررت أن أدخل إلى البيت الذي سمعت عن ضخامة مكتبته الورقية والبصرية والسمعية، فقد حدثوني عن أن مكتبته تضم كتبا بلغات عديدة، منها اللغة العربية، وأن مكتبته السمعية والبصرية تشبع حاجات عشاق الأفلام السينمائية والتسجيلات الصوتية، فضلا عن أسطوانات الغناء التي تضم حتى أغاني أم كلثوم بوصفها واحدة

من أشهر مطربات العالم في ذلك الوقت. وتجولت ما بين أدوار المكتبة في المبنى الذي كنت مبهورا بما يحوي، حالما أن أرى مثله في ميدان التحرير أو حتى في ميدان العتبة. ولكني عرفت أن مبنى «بيت الثقافة» يضم العديد من الأدوار؛ فقررت استكشافها كلها.

وتوقفت عند طابق يضم قاعات الأداء الفني في فنون العروض التجريدية الحديثة. وبينما كنت أتجول بين هذه القاعات، لفتت نظري واحدة منها يغمرها ضوء ساطع، ولمحت في داخلها عددا لا يكمل أصابع اليد الواحدة من الجلوس الذين بدا لي أنهم ينتظرون بدء أحد العروض. فدلفت إلى القاعة الصغيرة الحجم نسبيا، فوجدتها مغطاة بالمرايا في كل ناحية منها. مرايا على الجدران والسقف وعدد من الأعمدة الموجودة في القاعة، وعليها عدد من الشاشات يمكن للناظر فيها، وهو جالس، أن يرى صورته عبر كاميرات مسلطة على كل ما في الغرفة أو القاعة المبهرة التي جذبتني إليها، ودخلت إليها من قبيل الفضول، واخترت أقرب الكراسي إلى الباب، كي أستطيع الهروب وقت اللزوم، وظللت جالسا أتأمل مرايا القاعة، وأتأمل صورتي المنعكسة على كل هذه المرايا مع غيري من الجالسين الذين كانوا حوالي أربعة حين دخلت، وأخذ ينضم إلينا قادمون جدد إلى أن وصل العدد إلى عشرين شخصا تقريبا.

وأخيرا استمعنا إلى صوت يؤذن ببدء العرض، ودخل أحد العمال يحمل دلوين من دلاء الطلاء وتبعه آخر.

وتراصت الدلاء الأربعة المختلفة الألوان إلى أسفل شاشة ورقية معلقة أو مثبتة على أحد الجدران. وخرج العمال من باب لم ننتبه إلى وجوده؛ لأنه مغطى بمرآة ككل شيء في قاعة المرايا هذه. وقلت لنفسي مبتسما في داخلي: ها أنت تطلب راحة من العمل في كتاب طه حسين الذي أسميته «المرايا المتجاورة» فينتهي الأمر بك لتجلس في قاعة من المرايا المتجاورة حقا. وبالفعل، كان الأمر أشبه بمصادفة بهيجة. ولكنني لم أنطلق مع خواطري، فقد سمعت صوت موسيقى تقتحم المكان؛ فالتفت إلى مصدرها لأجد غادة سويدية حسناء تدخل القاعة حاملة «كاسيت» كبير الحجم، مرتفع الصوت، في يدها اليمنى، بينما تحمل في يدها اليسرى عددا من الشرائط، ومضت هذه الغادة الهيفاء في خطوات راقصة إلى حيث الشاشة الورقية.

وظلت تؤدي رقصة تتناغم مع الموسيقى، ثم انتبهت إلى دلاء الدهان الملونة، وأخذت فرشاة من كل دلو، وتمتد بجسدها مع حركة ذراعها لتخط امتدادا للون بعينه على الشاشة الورقية، متنقلة ما بين الألوان الأربعة، بما يجعلنا ندرك دون تعليمات أو إرشاد أن أداءها الدرامي يقوم على ترجمة أنغام الموسيقى إلى ألوان على الشاشة الورقية التي ظلت المؤدية تصل ما بين حركات جسدها المتراقصة مع صوت الموسيقى وحركات يدها المتحركة بفرشات الألوان في تناغم مع حركة الجسد. والقصد هو ترجمة الموسيقى إلى

إيقاعات متوازية تجمع ما بين تجاوبات الأنغام وحركات الجسد وتنوعات ألوان الطلاء.

وأعجبني الأداء واندمجت وجدانيا فيه ومعه إلى أن توقف اللحن؛ فأشارت المؤدية إلى أقرب جالس إليها في الصف الأول فقام فتى فرحا مرحا، وأدى مثلما أدت، لكن مع تغييرات مرتبطة بتكوينه الجسدي والموسيقى التي اختارها، فضلا عن الألوان التي كانت أقرب إليه من غيرها. وانتقل الدور إلى فتاة لا تقل جمالا ورشاقة عن المؤدية فقدمت ألوانا تعبر عن فرحة الشابات اللائي في عمرها. وتبعتها سيدة خمسينية لم تكن أقل رشاقة وخفة وحركة وسرعة إيقاع من الفتاة الشابة. وخرج بعد الخمسينية رجل أخذه الاندماج من الثانية الأولى فخلع الجاكت الذي كان يرتديه ودخل في الحالة على الفور. وكل ذلك وأنا مندمج مستمتع بما يحدث.

لكن، فجأة، أدركت أن الأداء الذي يحدث هو فعل جماعي رغم فردية المؤدي، وأن الدور حتما سيصل إلي كي أقوم وأفعل مثلما يفعلون. وزاد الأمر إرباكا أن الفتاة التي جاء عليها الدور للأداء اندمجت بكليتها في فعل التراقص، ولم تكتف بوضع فرشاة اللون التي كانت لا تزال موجودة بعد أداء كل مؤد، بل قامت بتمرير الفرشاة على «البلوزة» التي ترتديها، وقلت لنفسي: ها قد دخلنا في الجنون. ولكن ذلك لم يكن يشغل بالي، فما كان يرعبني حقا أن الدور سوف يصل إلي، وعندئذ، يتوقع كل الذين أدوا قبلي أن أقوم بمثلهم بفعل الأداء

نفسه. وهذا ما كنت أراه مستحيلا، ولا يمكن لي القيام به. صحيح أنا منفتح عقليا، وعشت في أمريكا قبل السويد، وأتمتع بدرجة كبيرة من التحرر. لكن ليس إلى درجة أن أتراقص مع آخرين لا أعرفهم، وأحمل فرشاة ألوان لأترجم بها صوتا موسيقيا على شاشة ورقية..

لا يمكن أن أفعل ذلك.. لا يمكن. لقد تحمست لحماستهم، وفرحت لفرحهم، وتجاوبت برأسي مع حركاتهم. أما أن أتراقص حاملا فرشاة ألوان قد أسكب بعضها على ملابسي، وأعود بحلة ملطخة بالألوان إلى مجمع سكن أساتذة جامعة استكهولم فهذا مستحيل، وكلا وألف كلا. هذا ما كنت أقوله لنفسي بعد أن انقلب هدوئي إلى توتر، وفرحي إلى حيرة، وأنا أسأل نفسي: ما العمل؟! وكانت الإجابة السريعة والجاهزة هي الفرار.. الفرار. وكان الدور قد اقترب مني على نحو ظاهر، فانتهزت اندماج الحضور مع مؤدية جديدة، وانطلقت هاربا نحو باب القاعة، ومنه إلى خارج المبنى كما لو كان يطاردني أحد. والتقطت أذني في أثناء هروبي غضب الجالسين معي في القاعة، ربما لأنهم رأوا في ما فعلته نقضا لعهد مضمر اتفقنا عليه بمشاركتنا الجماعية التي كنت طرفا فيها.

وطبعا سددت أذني عن الصيحات الغاضبة، ولم ألتقط أنفاسي إلا بعد أن أصبحت خارج مبنى «بيت الثقافة» يصافح وجهي الهواء الذي كان يحمل برودة منعشة. وانطلقت في طريق العودة ماشيا على قدمي،

وأنا أضحك في سري قائلا: الهروب من مرايا استكهولم إلى مرايا طه حسين أفضل. لكنني أخذت أسأل نفسي عن هذا الجبن الذي أظهرته أو الخجل الذي انتابني فوضعني في هذا الموقف؟!. وقلت لنفسي: من الواضح أن الثقافة التي جئت منها ولا أزال أنتسب إليها، قد أسهمت في صنع سقف لاستجاباتي إلى ما يقع خارج بنيتها، وأن لاشعوري الثقافي الذي فطرتني عليه هذه الثقافة هو الذي حال بيني وبين أن أفعل ما فعله السويديون في هذه القاعة.

وتذكرت ما قرأته عن أدبائنا الذين سافروا إلى أوربا. كان لاشعورهم الثقافي يدفعهم دائما إلى الراسخ الكلاسيكي في ثقافة الأقطار التي يذهبون إليها. ولذلك عندما ذهب أحمد شوقي لم يتأثر إلا بڤيكتور هيجو ولامارتين، لأن كليهما كان قد أصبح راسخا في ثقافته. ويحكى أن ابن أحمد شوقي حسين شوقي -في كتابه عن أبيه- أن أباه تعود اصطحابه معه في سفره إلى فرنسا ليطلعه على ما بها من فنون، وأنه صحبه ذات مرة إلى مقهى داركور التي قال له إنه المقهى الذي كان يجلس عليه أشهر الأدباء الباريسيين.

وذات مرة، رأيا رجلا رث الثياب، تقطر الخمرة من فمه، وأثار المنظر المذري للرجل فضول شوقي فسأل عنه، فقيل له إنه الشاعر ڤيرلين. واكتفى أحمد شوقي بالفرجة. ولم يتح لنفسه أن يعرف بول ڤيرلين (1844 - 1896) الذي كان من أبرز شعراء الحركة الرمزية

الطليعية في الشعر الأوربي كله، وأنه وصديقه آرثر رامبو (1854 - 1891) كانا النجمين الصاعدين في سماوات هذه الحركة. ويعني ذلك أن اللاشعور الثقافي لأحمد شوقي جعله يستجيب إلى ما يتوافق معه، أو مع ما يمكن أن يتقبله. أما الذي يبدو مناقضا تماما لهذا الشعور فمن الصعب قبوله أو الاستجابة الموجبة له. وأحسب أن شيئا من هذا هو ما حدث لي في قاعة المرايا التي دخلتها في «بيت الثقافة» بمدينة استكهولم. والحق أن تداعيات التفكير في هذا الموضوع جعلتني أعود إلى قراءة طه حسين من جديد، خصوصا وأنني كنت أعمل في القسم الثاني من الكتاب، وكان عن مرايا الناقد.

وطرحت على نفسي الأسئلة: كيف يا ترى كان طه حسين يتقبل الأدباء الأوربيين على اختلاف مدارسهم الفنية وتعاقبها، خصوصا أن صلة طه حسين بالأدب الفرنسي وما ترجم إلى اللغة الفرنسية ظلت قوية متواصلة؟! فطه حسين كان يقضي إجازة كل صيف في فرنسا، كي ترى زوجه الفرنسية أهلها، وكي يتابع هو ما استجد من الحركات الأدبية في العالم الأوربي. وبالطبع لم يكن هناك مشكلة مع كلاسيكيات فولتير أو ديدرو ولا حتى رومانسيات فيكتور هيجو ولامارتين. ولكن ماذا عن الحركة الرمزية، وما جاء بعدها؟

دفعتني مثل هذه الأسئلة إلى إعادة قراءة طه حسين مرة أخرى، وفي ضوء هذه التجربة التي مررت بها،

والتي دفعتني بشكل غير مباشر إلى إعادة تأمل علاقة طه حسين بالأدب الأوربي عبر مدارسه المختلفة؛ فاكتشفت أن طه حسين لم يكن يواجه صعوبة في تقبل المذاهب الأدبية المتعاقبة، ما ظلت يسيرة الفهم، قابلة للتمثل اليسير من العقل. أما المذاهب الناتجة عن الرؤيا السوداء التي خلفتها الحرب العالمية «العبث»، فهنا كانت استجابة طه حسين تتعثر، فلم يكن يسهل عليه أن يتقبل ما تماس مع العبث من الأدب، أما العبث الخالص فكان عسير التقبل على ذائقته.

ولكن أدب كافكا على وجه الخصوص كان يمثل حيرة معرفية لطه حسين؛ إذ إنه يجمع الكثير من الثقافة التي تجعل منه- عند طه حسين- قمة سامقة، ولكن اللاشعور الثقافي لطه حسين لم يكن يراه كذلك فيما أتخيل، فما الحل؟ وما كان يمكن لطه حسين أن يتجاهل كافكا أو يظهر عدم الإعجاب. إذن كان لابد من وسيلة معرفية لتقريب كافكا من اللاوعي الثقافي أو العكس، أعني من التحايل على اللاشعور الثقافي ليقبل كافكا. وكان أبو العلاء المعري هو الوسيط الذي قام بهذا التقريب. ولذلك نجد طه حسين يصف أدب كافكا بأنه الأدب الأسوأ أو أدب التشاؤم القاتم، ولكنه يقبل هذا الأدب، ويقبل عليه دون أن ينفر منه، لأنه وجد شبها بين أدبه وأدب أبي العلاء في التشاؤم، وبهذا النوع من «التبرير» بمعناه الموجود في التحليل النفسي الفرويدي

يتقبل اللاشعور الثقافي لطه حسين أدب كافكا. ويكتب عنه طه حسين ما قال معجبا ومقدرا في آن.

هكذا دفعتني هذه التجربة التي مررت بها في قاعة المرايا إلى معاودة قراءة طه حسين من منظور جديد. ترى هل لو كنت أكملت «المرايا المتجاورة: دراسة في نقد طه حسين» في القاهرة كان يمكن أن أصل إلى هذه النتيجة؟. لا أظن أن الأمر كان ممكنا.

ثالثًا: أمريكا للمرة الثالثة

الصباح الأبيض

كان أول ما رأيته في الصباح عندما أزحت الستارة عن زجاج النافذة هو لون البياض الذي يغطي كل شيء، ويمتد على مرمى البصر كأنه ملاءة بيضاء متعرجة تنبسط إلى ما لا نهاية. قال لي الأصدقاء، قبل وصولي إلى مدينة كمبردج الأمريكية، إن هناك عاصفة جليدية عاتية ويبدو أن هذه العاصفة توقفت في اليوم الذي وصلت فيه إلى الولايات المتحدة. قال لنا الطيار، ونحن نهبط إلى مطار مدينة بوسطن: إن الجو صافٍ، والسماء بديعة، ولم تعد هناك عاصفة ولا رياح قوية. وقلت لنفسي: هذا فأل حسن.

وبالفعل، كانت السماء صافية بلا غيوم خلف زجاج الطائرة، وخلف زجاج ممرات المطار، ويبدو أن صحو الجو ترك أثره على الجميع، فداعبني رجل الجوازات عندما عرف أنني قادم إلى بلده لأعمل أستاذا زائرا في جامعة هارڤارد، وقال لي: لابد إنك رجل مهم حتى تكون في هارڤارد، ولم يتركني إلا بعد أن أبلغني آخر أخبار المباحثات بين الفلسطينيين والإسرائيليين على الأرض المصرية، وتركني بعد أن لاحظ تململ المنتظرين دورهم!

وخرجت من المطار، وكانت سماء بوسطن بديعة، وصحبني زميلي الأمريكي -البروفسور بيل جرانارا- في

سيارته إلى مدينة كمبردج التي تقع على الضفة الأخرى من نهر شارلز في مقابل مدينة بوسطن، وسرنا في موازاة النهر الذي كانت أضواء السماء الصافية تنعكس على صفحته المغطاة بالجليد، فيبدو الجليد لامعا بلونه الذي يميل إلى الزرقة نتيجة انعكاس ضوء السماء. وداعبني زميلي قائلا: هل ترى؟! اختفت العاصفة قبيل مقدمك مباشرة، وتبدو السماء صافية اليوم كأنها ترحب بك. قلت له: لابد أن تعلم إذن أن مقدمي فأل حسن، وأن عليك أن تعاملني على هذا الأساس.

وظللنا نضحك طوال الطريق إلى أن وصلنا إلى مساكن الجامعة، ودخلت إلى العمارة التي أسكنها، وصعدت إلى الدور الرابع والأخير بلا مصعد كهربائي. وعابثني زميلي بيل عندما لاحظ لهاثي وأنا أحمل حقيبة سفري، صاعدا على الدرج: هذا جيد، اعتبر صعود هذه السلالم بدون مصعد كهربائي بمثابة تمرين يومي حتى تفقد بعض وزنك، فقد أصبحت سمينا بما يستلزم اتباع رجيم قاس ونظام غذائي صارم، وأعدك أن نبدأ من الغد رياضة المشي لمسافات طويلة حتى تفقد وزنك الزائد.

ولم أقل شيئا، فقد كنت ألهث من حمل الحقيبة الثقيلة وأصعد إلى الدور الأخير وأنا منقطع النفس. وأخيرا، وصلنا إلى «الشقة» الصغيرة التي سأقيم فيها وحدي للشهور الأربعة القادمة. وبالكاد أفرغت الحقيبة بمساعدة زميلي، وتعرفت إلى الشقة التي أعجبتني

أناقتها، وسرعان ما اكتشفت كل ما فيها، واطمأننت إلى أنني لن أحتاج إلى شيء فكل شيء متوفر ومجهّز ومعد، وكما توقعت تماما. وبعد أن هدأت أنفاسي، وتأكد اطمئناني، قبلت دعوة زميلي الصديق إلى العشاء، وذهبنا إلى مطعم فرنسي أنيق في الشارع الرئيسي الذي يقع بالقرب من الشارع الصغير الهادئ الذي أسكنه.

وتركت زميلي الصديق يحدّثني في كل شيء عن أحوال الجامعة، بينما تركت لعقلي العنان كي يستمتع بالهدوء الساحر الذي يغمر كل شيء كما تركت لعيني أن تبتهج بمنظر الجليد الذي يغمر الأرصفة، والمباني، ويحيط بكل شيء كالدقيق الأبيض، وبدا لي كل شيء حولي مغسولا، ناصعا، لامعا بهيجا، جميلا جمال السكون الأبيض، ورقيقا رِقّة الليل الذي أسقط غلالته السماوية على امتداد الأرصفة المغطاة بالثلج المتبقي من العاصفة الجليدية. وغمرنا المطعم، عند دخولنا، بالدفء الذي يعرف معناه من يسير وسط الجليد، ويحاذر في مشيته كي لا تنزلق قدمه، بينما هواء الليل الثلجي يعابث الوجنات بملمسه البارد. وتركنا أنفسنا للدفء الذي يغمر المكان، وأصوات البهجة التي تنطوي على دعوة مضمرة بسهرة هادئة.

وبالفعل، كانت السهرة هادئة، لا تخلو من بعض الصخب الناعم الذي كانت تقودنا إليه الأحاديث العامرة بذكرياتي الطيبة في مدينة كمبردج الهادئة. وعندما لاحظ زميلي الصديق علامات النوم الذي لم أفلح في

مقاومته، خصوصا بعد أن قضيت أكثر من ثماني عشرة ساعة في السفر من القاهرة إلى لندن، ومن لندن إلى بوسطن بعد الانتظار الممل لساعات في مطار هيثرو، ومقاومة الملل بالتجوال في السوق الحرة. وعدنا إلى الشارع من جديد، نسير في اتجاه بيتي على الأقدام، وتركني زميلي أمام المنزل الذي أصبح مقامي، وتمنى لي نوما هادئا وأحلاما سعيدة.

وكان نومي هادئا لم يقطعه شيء. ولكني لا أذكر إذا كنت قد حلمت أحلاما سعيدة أم لا، فأنا أنسى أحلامي عادة بمجرد أن أستيقظ من النوم، ولا أذكر منها شيئا. المهم أنني استيقظت مستريحا، شاعرا بالنشاط الذي يدبّ في أعضائي تدريجيا، وقفزت من سريري إلى النافذة الكبيرة الموازية للسرير، وأزحت الستارة المعدنية لأترك الضوء يغمر الغرفة تماما بلونه الأبيض البهيج. ووقفت خلف الزجاج، مسترخيا مع الدفء الذي ينبعث من المدفأة التي تقع خلف النافذة مباشرة. وأخذت أتطلع إلى ما وراء الزجاج، مستكشفا المكان. وكان الانطباع الأول هو البياض الذي يغمر كل شيء، والنقاء الناصع بلون طبقات الجليد المسترخية فوق الأسقف، مغطية كل شيء ما عدا بعض البقع الحمراء أو الزرقاء القاتمة بلون القرميد الذي يظهر من خلال الأغطية الجليدية للأسطح، قرب رؤوس المدافئ التي تطل من وسط الجليد مزهوة بقاماتها التي لا يبقى على سطحها الدافئ الجليد. وأسفل المنازل المحيطة

بالحديقة المغطاة بالثلج، كانت بعض أكوام الثلج تنتظر من يأتي لحملها من مكانها الذي تجاوز بعض عربات النقل الصغيرة، فبدت محملة بالثلوج التي ظلت تنهمر عليها في الأيام الماضية.

وعندما مددتُ عيني في الاتجاه الآخر، لمحت الشارع الرئيسي الذي يحمل اسم الولاية التي تقع فيها مدينة كمبردج، وربما بسبب صعوبة الاسم، ينطق الجميع اسمه مختصرا، فيقع شارع «ماسا» اختصارا لكلمة ماساشوست. كانت بعض عربات ضخمة (جرافات) تجرف الجليد، وتكوّمه على الأرصفة كي يصبح الطريق صالحا تماما لسير العربات بسهولة. ولم أكن أرى أحدا يسير في الطريق الذي بدا خاليا إلا من بعض المارة، العابرين، أو بعض الذين يمارسون رياضة الجري الصباحي. وشعرتُ بالمزيد من النشاط لرؤية الأجسام الرياضية الرشيقة. وقلت لنفسي: لماذا لا تنزل إلى الشارع، وتجري مثلهم؟! وكدتُ أفعل، ولكني تذكرت أن علي أولا أن أرتدي الملابس التحتية الصوفية، وفوقها القميص الصوفي والبنطلون السميك، ثم أرتدي الحذاء الثقيل الذي يشبه الدبابة، وأخيرا فوق كل ذلك البالطو والكوفية والجوانتي وغطاء الرأس، وصرختُ بيني وبين نفسي: واغوثاه. وسرعان ما قررت الخروج من غرفة النوم، والذهاب إلى المطبخ لإعداد القهوة الصباحية والاكتفاء -في هذا الصباح الأبيض-

بالمشاهدة والتأمل الهادئ حول هذا المدى اللانهائي من البياض الذي يغمرني بالبهجة.

درس في الفن

أعتبر نفسي من المعجبين بفن المخرج العالمي كارلوس ساورا. ومنذ أن شاهدت فيلمه «كارمن» وأنا أتتبع كل ما يمكن أن أراه من أفلامه، خصوصا لأنه معروف بمعالجاته المعاصرة للكلاسيكيات الأسبانية، أو المتصلة بالآداب الأسبانية، وله ولع بالرقص الإيقاعي الذي يتحول إلى عنصر تكويني في أفلامه التي حصلت على جوائز عالمية شهيرة. وأذكر أنني بعد أن شاهدت «كارمن» لأكثر من مرة، أخذت أتتبع بقية أفلام ساورا، فشاهدت منها «تانجو» و «عرس الدم». والأول يدور حول الرقصة الأرجنتينية الشهيرة، متصلة بعلاقة إنسانية متشابكة من الحب والغيرة وقلق المبدع الذي يحرص على أن يكون خالقا على الدوام، والفيلم الثاني مأخوذ عن مسرحية الشاعر الأسباني لوركا الشهيرة التي ترجمت إلى اللغة العربية فيما أعلم.

وقد فرحت عندما رأيت إعلانا عن فيلم لم أره من قبل للمخرج ساورا. كان الإعلان عن فيلم بعنوان: «جويا في بوردو». وينصّ الإعلان على أن الفيلم حائز على جائزة أفضل عمل فني في مهرجان مونريال شتاء 1990، وأنه حائز على أربعة جوائز بمناسبة احتفالات «جويا» التي حدثت في العام الماضي، فقد حصل الممثل فرانسسكو رابال على جائزة أفضل ممثل أول، كما حصل مصور الفيلم فيتوريو ستورارو على جائزة

أفضل تصوير، وذلك بالإضافة إلى جائزة افضل ماكياج وجائزة أفضل تصميم مناظر. ولم أتلهف على مشاهدة الفيلم فحسب، فقد تضاعفت اللهفة بسبب موضوع الفيلم الذي يدور حول حياة الرسام الأسباني العظيم جويا في المنفى.

وقد تحققت كل توقعاتي عندما رأيت الفيلم، فاستمتعت بإبداع مخرج عبقري، وكاتب سيناريو مقتدر، وممثل فذ قام بأداء دور جويا الذي كان قد جاوز الثمانين من العمر في الفترة الزمنية التي يعالجها الفيلم، فضلا عن ممثل متمكن قام بدور جويا الشاب الذي أحب دوقة ألبا، ورسم لها لوحاته الشهيرة. وهناك الزوجة المحبة، والابنة المتعلقة بأبيها، التي تحاول الرسم بدورها. وتدور كل الأحداث في مدينة بوردو الفرنسية المشهورة بنبيذها الذي ينافس النبيذ الأسباني، ويتفوق عليه في نظر البعض. وكان جويا قد لجأ إليها مع مجموعة من المثقفين الليبراليين، فرارا من الحكم الاستبدادي الذي ضاق بهم، وظل يعاني فيها -حسب رؤية المخرج- أوجاع الغربة ومشاكل الشيخوخة، لكن دون أن يفقد قدرته على الرؤية الخلّاقة والإبداع الاستثنائي. ويبرع ساورا براعة غير عادية في الكشف عن زوايا دالة في لوحات لوركا، ويفسرها سينمائيا تفسيرا يضيف بعمق إلى تفسيرات مؤرخي الفن.

ولا أريد تلخيص الفيلم، فذلك أمر مستحيل، ولكني أحب أن أتوقف عند المشاهد التي سحرتني في الفيلم،

بل المشهد الذي جعلني أعيد مشاهدة الفيلم مرة أخرى من أجله. وهو مشهد طويل، تتخلله ذكريات واسترجاعات تنقلنا من أزمنة الماضي إلى الزمن الحاضر الذي يدور فيه حوار بين لوركا الأب (الأستاذ) وابنته (التلميذة) التي تحاول تعلم الرسم. ويبدأ المشهد بأن تقدّم الابنة لوحة رسمتها إلى أبيها جويا، فيتطلع الأب إلى اللوحة، ويشجع ابنته بعبارات مألوفة. لكن سرعان ما يقول لها: التقليد جيد، أنت تتعلمين من الأساتذة، وأنا قد فعلت ذلك أيضا، فالتقليد يمرّن اليد، ويرهف حركتها، ولكن شيئا فشيئا لابد أن تجدي طريقك الخاص، الطريق الذي لا يمكن أن يمضي فيه أحد سواك. اقبلي التأثر بالآخرين. هذا ضروري. ولكن تعلّمي سر كل واحد ممن تتأثرين به، وامضي في طريقك الخاص. هل أقول لك سرا؟ يسأل جويا ابنته. ثم يقول لها: أعلم أني لا أسمع منذ سنوات بعيدة، ولكن الآن أسمع ما لم أسمعه من قبل، هل تعلمين لماذا؟ لأنني الآن أسمع بأذني الداخليتين. تستطيعين أن تفعلي ذلك يا ابنتي. ألا تريدين ذلك؟! أغلقي عينيك وركّزي.. أنصتي..أنصتي.

ويغلق جويا أذنيه وهو يأمر ابنته بالصمت، وبعد أن يصمتا معا لبرهة، يسألها: ماذا تسمعين؟! وتهز الابنة رأسها علامة النفي. فيعاود سؤالها: ألا تسمعين أي شيء؟! فتجيب الابنة بعد أن تمعن في التركيز: نعم، أسمع أصواتا بعيدة: أجراس فرسان، صوت عربة، بكاء

طفل. فيهتف الأب حانيا: لا. ليس هذا ما أقصد. ألا تسمعين صوتا فظيعا مكظوما كأنه صوت مئات الثيران التي تضرب الأرض بأظلافها؟ ألا تسمعين نحيب امرأة تبكي لأنهم قتلوا ابنها؟ ألا تسمعين بكاءها المؤلم؟ ألا تسمعين انفجار الطلقة من المدفع، والبنادق تطلق رصاصاتها. وصراخ الريح البرية؟ أنصتي، أنصتي يا ابنتي. يجيب أن تبذلي جهدا أكبر يا روزاريتا (تصغير روزا = الوردة). يجب أن تضعي كل حضورك فيما تفعلين.

تخيّلي. بدون خيال، لسنا سوى حيوانات. هل أنت معي؟ أنت تستطيعين بخيالك أن ترتكبي أبشع الجرائم، دون أن يعاقبك أحد، كما تستطيعين الارتفاع إلى أعلى علّيين، أو تسقطين إلى الجحيم. تستطيعين أن تكوني هائلة أو بالغة الضآلة، تستطيعين أن تكوني فنانة عبقرية أو سياسية قوية. اختاري ما تشاءين. لكنّ هناك أمرا واحدا خطرا لابد من الانتباه إليه. يجب أن تعرفي متى تتوقفين، وإلا غصتي في الظلمة والجنون. إن الخيال المتصل بالعقل هو أصل الفنون ومصدر العجائب.

ويلتفت لوركا بعد ذلك إلى ابنته قائلا لها: والآن ركّزي، أغلقي عينيك، دعي الصورة والذكريات تدخل إلى عقلك. هل تسمعين صوت الدموع المضيئة التي تذرفها السماء لتحذّرنا من الرعد العنيف القادم؟ فتجيب الابنة: أسمعها يا أبي. فيواصل الأب: هل ترين أباك في

زمن آخر؟ وفي مكان آخر؟ ركزي يا ابنتي. وتفتح الابنة عينيها الجوانيتين وأذنيها الداخليتين فتسمع وترى، وتستيقظ طفلة صغيرة مع العاصفة التي تفزعها، فتترك حجرتها وتذهب إلى أبيها الذي أخذ يرسم على جدران المنزل بشرا مشوهين. وأوجها معذبة، وكلابا ضالة، وأعينا مشدوهة من الرعب، احتجاجا على فظائع الحكم الاستبدادي التي قرر محاربتها بفنه،خصوصا بعد أن أدرك أن ريشته هي سيفه الذي يرفعه في وجه القهر، كما أنها عربته السحرية التي تنفتح لها أبواب النعيم الأرضي المغلقة.

وننتقل مع ذكريات جويا لنستعيد مشاهد من حياته، لكن يظل التركيز دائما على معنى الفن ودور الفنان. ويبقى في ذاكرتي من بين كل المشاهد الرائعة حديث جويا مع ابنته،ودرس الفن الذي حاول أن يلقنه لها، مؤكدا أن الفنان الحقيقي يتأثر بكل شيء وهو نفسه كان يردد: أساتذتي ثلاثة: فيلاسكيز ورامبراندت والطبيعة، وأن الفنان الحقيقي يفتح حواسه لكل شيء. وأنه لا يتردد في أن يتعلم من كل من يمكن أن يتعلم منه.

المهم أنه عندما تبزغ لحظة الخلق الخاصة، يكون الفنان المبتدئ قد عرف طريقه وحده، خاصيته المميزة، القدرة التي لا يمتلكها غيره، لغته الخاصة، أسلوبه المميز، بصمته التي يعرف بها، بعيدا عن التقليد والمحاكاة، بل بعيدا عن الجري وراء الموضات

والصراعات والبدع الزائفة. وأول ذلك هو الإنصات إلى ما تسمعه الأذن الجوانية، والتحديق في العوالم الخاصة بالعين الداخلية والإبحار في المسالك التي لا تفتح أبوابها إلا بعد تعلم أسرار الصمت وصم الأذن عن لغو العالم الخارجي!

بعد أن شاهدتُ الفيلم للمرة الثانية، لكي أستعيد الحوار الثري بين رسام عظيم (تصادف أنه الأب) ورسامة مبتدئة (تصادف أنها الابنة) سألت نفسي: ألا ينطبق هذا الحوار على كل عمل إبداعي؟ في الفن أو في البحث الأدبي أو في الدراسة العلمية؟! إن كل شيء يبدأ بالتعلم من الآخرين، ولا بأس من تقليدهم لبعض الوقت، تمرينا للأذهان وتدريبا للأصابع التي تكتب أو ترسم أو تعزف، ولكن الإبداع يبدأ من الرحلة الخاصة، من اكتشاف الطريق الذي لم يعرفه أحد، ولم يقترب منه أحد، ومن إدراك ما يميز السائر المفرد المتوحد عن غيره من السائرين مهما كان إفرادهم أو توحدهم.

ولم أكد أمضي في طريق الإجابة عن السؤال إلا وفاجأني سؤال ثانٍ يقول: ولكن هل تعلمت ابنة جويا الدرس من أبيها فكانت مثله؟ الإجابة بالنفي، فالتلامذة الذين يتعلمون حقا من الأساتذة الكبار ليكونوا أساتذة أكبر، أندر من الكبريت الأحمر، ولذلك كانت العبقرية -ولا تزال- معجزة غير قابلة للتداول بين أرباع أو أنصاف أو حتى ثلاثة أرباع الموهوبين!

نديف الثلج الوحشي

لا أذكر إن كنت قد استمعت بتركيز إلى نشرة الطقس الصباحية في الراديو الذي أستيقظ على صوته، ربما كنت مشغول الذهن بأمر ما من الأمور التي أفكر فيها هذه الأيام. المهم أنني لم ألتقط في ذاكرتي سوى أن المذيع ذكر شيئا عن احتمالات سقوط الثلج اليوم مع رياح ما، ولعلني فهمت أن هذا لن يحدث إلا في المساء، وخلطت بين معنى كلمة «متأخر» وكلمة «المساء»، أو لعلني لم أنتبه إلى كلمة «بعد الظهيرة» التي أعقبت كلمة «متأخر»، فخرجت من المنزل وأنا لا أرتدي سوى معطفي الثقيل، ونسيت غطاء الرأس الصوفي السميك الذي يستر الأذنين ويحميهما من البرد القارس، كما نسيت مظلتي التي تحميني من المطر، وتوكلت على الله، وخرجت إلى الطريق، ولم أتردد في السير لأن الجو كان صحوا، والشمس موجودة مع البرد القارس المحتمل مع رفع ياقة المعطف وإغلاق زراره الأعلى الذي يحمي أعلى الصدر وبعض الرقبة.

وأنهيت عملي في الجامعة سريعا، وقلت لنفسي: ما دامت الشمس موجودة على هذا النحو، فلأذهب إلى المكتبة الكبيرة التي تبيع الكتب والتي تقع بالقرب من «ميدان هارفارد» المواجه لأسوار جامعة هارفارد. وبالفعل أخذت طريقي، عبر حدائق الجامعة، وممراتها الجميلة التي لا تزال محتفظة ببقايا الثلج الذي سقط

في الأسبوع الماضي. وخرجت من أسوار الجامعة، وذهبت إلى المكتبة، وقضيت ساعة أو أكثر وأنا أتفحص الكتب، ثم انتقلت من جناح بالمكتبة إلى جناح آخر، عبر ممر زجاجي يمر من أعلى شارع صغير. واستوقفني منظر السماء خارج زجاج الممر، اختفت الشمس المشرقة الساطعة، تاركة بقايا ضوء متثلج، والثلج يتساقط من السماء، كأنه نديف القطن الذي يتناثر عندما يتم تنظيفه.

وأعجبني المشهد، فوقفت أرقب تساقط نديف الثلج الذي أحبه، وأبحث في ذاكرتي عن كلمات تصف هذا النديف، أو تميز بين حالاته المختلفة، واكتشفت أن اللغة العربية -على الأقل اللغة العربية التي أعرفها- لا تعرف أشكال التمييز بين نديف الثلج الصغير ونديفه المتوسط، أو بين قطعه المختلفة الهابطة من السماء وحدها، أو المصحوبة بالمطر، ويبدو أن كله «ثلج» في اللغة العربية.

ومضيت في خواطري وأنا أشهد تشكلات نديف الثلج المختلفة، وأشعر ببهجة طفولية. وتذكرت مشاهد تساقط الثلج التي رأيتها منذ ربع قرن تقريبا، عندما جئت إلى الولايات المتحدة لأول مرة، وعملت فيها أستاذا زائرا في جامعة وسكنسون في الغرب الأوسط. وتصادف أنني كنت في الشارع حين تساقط الثلج للمرة الأولى في ذلك الشتاء البعيد، فوجدت الطلاب والطالبات يصنعون من النديف المتساقط كورا

يتقاذفونها، ويلهون بها، ولم ينقض النهار إلا وكان بعضهم قد صنع تماثيل من الثلج.

وأعترف أنني لهوث مثلهم، وجريت كما جروا، وضحكت كما ضحكوا، وتبادلت قذائف الثلج الناعم مع أصدقائي الذين كانوا يتقلّبون على الثلج بسعادة غامرة، معبّرين عن فرحتهم بمقدم الثلج، وذلك بقدر لم يقل عن فرحتهم التي أبدوها عندما انتهى فصل الشتاء، وأقبل الربيع، فتدافع الطلاب والطالبات فرحين بمقدم الشمس الساطعة، يخلعون ملابسهم الثقيلة بينما يجرون معا، كأنهم يؤدون رقصة «استربتيز» جماعية.

ويبدو أن البهجة التي غمرني بها تداعي الذكريات المفرحة عن هبوط نديف الثلج قد حركت قدمي، ودفعتني إلى النزول إلى الطابق الأرضي من المكتبة، ومن ثم الخروج إلى الطريق. وما إن خرجت من الباب الرئيسي حتى واجهت مشهدا مختلفا لم ألحظه وأنا مستغرق في تأمل تساقط نديف الثلج من السماء على الشارع الفرعي الذي كنت أرقبه من وراء الزجاج، ووسط حرارة المكيفات العامة. الآن، أصبحت على رصيف الطرق الرئيسي المتسع، ولا شيء يحمي وجهي من نديف الثلج المنهمر، والمتدافع مع الريح ليصفع الأوجه ويلسعها على السواء.

الجميع من حولي كانوا يندفعون مسرعين ليفروا من «قرصات» نديف الثلج في الوجه، وغزارتها المؤلمة في اصطدامها بالوجنتين أو الجبين كأنه لسعات السياط.

فجأة، انقلب جمال نديف الثلج إلى قبح، الجمال الذي استمتعتُ به محتميا وراء دفء الزجاج اختفى نهائيا، وأصبحت وحيدا مع هذا النديف الذي توحش بسبب تسارع حِدَّة الريح. وأدركت، متأخرا بالطبع، أنني الوحيد بين كل البشر المتدافعين الذي لا يغطي رأسه، ولا يحمل مظلة، وعندما نظرت إلى معطفي، وجدت لونه الأسود قد تحوّل إلى كرنفال من تدرجات اللون الأبيض التي صنعتها ندائف الثلج، أو قذائف الثلج بلا فارق.

واخترقني الإحساس بالبرد والبلل بعنف، ولم أجد ما أحمي به نفسي سوى أن أدخل أقرب كافيتريا قابلتها. ولحسن الحظ كانت واحد قريبة مني، فدخلتها عدوا، ووقفت ألهث وراء جدارها الزجاجي الذي يطل على الطريق. وبعد أن جفّفت ما استطعت من بللي، وأزحت عن ثيابي ما استطعت من نديف الثلج الذي انقلب علي انقلابا شنيعا، طلبت قهوة أمسكت بوعائها الساخن بين يديّ حتى أشعر بالدفء، وأخذت أراقب صراع البشر مع عاصفة الندائف الثلجية التي أخذت تتزايد. وأخذت أشارك كل القادمين إلى الكافيتريا لعناتهم على هذا الطقس الفظيع، وعلى هذه العاصفة الثلجية، وحمدت الله على أنني قد احتميت منها مؤقتا.

ولكنني لم أستطع مقاومة السؤال عن حال هذه البلاد قديما، قبل أن يخترع الإنسان ما يحميه من البرد والعواصف. ويبدو أن خاطرا خبيثا هو الذي همس في

أذني بأن ذلك سبب تقدمهم، فطبيعتهم القاسية دفعتهم إلى ترويضها والسيطرة عليها بمخترعاتهم. وقلت لنفسي: لعلنا نصبح مثلهم يوما، ونتغلب على ما هو أقسى من هذه الطبيعة في الحياة التي نحياها في وطننا العربي الكبير الممتد من المحيط إلى الخليج!

وبالطبع، ما كان يمكن أن أظل محتميا بالجدار الزجاجي للكافيتريا، فقد دخلت إحدى السيدات، وقالت بلهجة سكان الولاية: هذه العاصفة الملعونة ستستمر إلى صباح الغد. صباح الغد؟! ماذا أفعل؟! هل أستأجر هذا المقعد لأحتمي به إلى صباح الغد؟! المؤكد أنه من المستحيل أن أمضي إلى الشارع، وأذهب إلى منزلي القريب مع وجود هذه الندائف المتوحشة!

ولاحظت أن مدخل نفق المترو على بعد خطوات من الكافيتريا التي أجلس فيها، فقررت الجري إلى مدخل المترو فورا. وبالفعل، اندفعت برشاقة شاب جاوز الخمسين من العمر، ممتلئ الجسم بالشحم واللحم، فوصلت إلى نفق المترو، ووقفت داخله لاهثا من الجري لهذه المسافة القصيرة، مطاردا بندائف ازدادت توحشا. ولمعت في ذهني فكرة وجدت فيها الحل. وقلت لنفسي: فلأركب مترو الأنفاق إلى مدينة بوسطن القريبة، وأنزل في المحطة التي تفضي إلى الدور الأسفل من محلات «فايلين». وهناك، أشتري شمسية جديدة وغطاء رأس جديدا، أعود بهما إلى المحطة القريبة من بيتي.

وحصلت على «التوكن» النحاسية (التذكرة) من الشباك المخصص لها، وأخذت المترو بالفعل إلى مدينة بوسطن التي تقع على الضفة الأخرى، من نهر شارلز الذي تقع مدينة كمبردج وجامعة هارفارد على ضفته المقابلة. ووجدت غطاء رأس جديدا لم أتردد في شرائه مع أنه أقل أناقة مما هو عندي بالفعل. وبحثت عن الشمسية طويلا فلم أجد إلا شمسية نسائية، مطرزة الأطراف، فاشتريتها معزّيا نفسي: من الذي سوف يتطلع إلى شمسيتي في هذا الطقس. ولم أنسَ شراء «قفاز» جديد!

كابل

لا أعرف كيف أترجم هذه الكلمة (Cable) التي تدل في الأصل على حبل ذي سلك أو سلسلة معدنية، وهي الآن لا تتصل بذلك كله اتصالا مباشرا، وإنما تدل على التوصيلات التي تصل أجهزة الاتصالات بعضها بالبعض، سواء على المستوى الدولي الذي يعبر القارات عبر المحيطات، حيث الكابلات البحرية للاتصالات، أو عبر المستويات غير الدولية، عبر خيوط أو خطوط الاتصالات المختلفة التي تجاوزت أجهزة التليفون إلى أجهزة الكومبيوتر وغيرها من الأجهزة الأحدث، أو حتى الأجهزة الموازية مثل التلفزيون. وقد دخلت عالم الأستاذ «كابل» هذا منذ أن دخلت «الشقة» التي أقيم فيها حاليا بإحدى الشوارع الهادئة لمدينة كمبردج الأمريكية، وشرح المسؤول عن المبنى أجزاء الشقة، وأشار لي على أكثر من «فيشة» في أسفل الحائط، وقال لي إن «الفيش» السفلى للتلفزيون، والعليا لأجهزة الكومبيوتر، ويمكن لك بالطبع أن تستخدم السفلى الإضافية لـ «كابل» التلفزيون إذا احتجت إليه، ولم تكتف بالقنوات الموجودة على الجهاز الموجود ضمن أثاث الشقة المفروشة.

وبعد عدة أيام من الإقامة، مللت من القنوات المحلية مع أني لا أشاهدها إلا في وقت محدود، فالإعلانات تتخلل كل شيء، وما أسخف ما تنقطع مشاهد قصة

مؤثرة ليرى المشاهد إعلانا، وتخيل حالك وأنت تراقب البطل يقبّل البطلة بعد أن عاد إليها من سفر طويل، وقبل أن تنتهي القبلة لا يتدخل الرقيب كما يحدث في بلادنا، وإنما يتدخل الإعلان عن منظّف صناعي مرة، وعن سيارة مرة ثانية، أو عن مأكولات للحيوانات الأليفة مرة ثالثة. وتصور حالك وأنت في مشهد من مشاهد الذروة العنيفة، ويضيع كل شيء فجأة، لترى رجلا «غلسا» غليظ الصوت بارد النبرة يحدّثك عن بهجة «المرتبة» الفلانية وما يمكن أن تسببه لك من نوم هانئ دون إزعاج، أو تَصَوّرْ حالك وأنت في ذروة مشهد من مشاهد العبادة، في كنيسة أو مسجد، ودموع البطلة الجميلة العينين تعطفك عليها وتدفعك إلى التعاطف معها، وفجأة يظهر فتى مفتول العضلات، يتقافز حول المرتفعات، ضاحكا كالقرد، وهو يعلن لك عن فائدة هذه الآلة التي استخدمها لتقوّي عضلاته، وينتقل المشهد من المرتفعات إلى الآلة الرياضية، وتجد الفتى نفسه محاطا بنساء عضلاتهن أبرز ما فيهن، فتضيع منك عاطفة العيون الجميلة الرقيقة التي لم تجد من الإعلان السخيف فرصة للامتداد!

وشكوث لبعض أصدقائي، فقالوا لي عليك بشركة «كذا» للكابل التلفزيوني، إذ يمكن عن طريقها أن تشاهد ما تريد من الأفلام أو المسلسلات دون إعلانات. وبالفعل، اتصلت هاتفيا بالشركة التي أسموها لي وسمعت صوتا رقيقا يرحب بي، ويزداد ترحيبا عندما

علمت صاحبة الصوت برغبتي في الاشتراك. وسألتني أي نوع من القنوات أحب أن أشاهد؟ ولم أفهم السؤال فطلبت منها التوضيح، فاكتشفت أنها تسألني عن نوع المواد التي أفضل مشاهدتها. وعندما سألتها عما عندهم، وجدتها تحدثني عن قناة خاصة لأفلام الحب، وأخرى للمغامرات، وأخرى للأفلام المأخوذة عن أحداث حقيقية، ورابعة لأفلام الغرب الأمريكي (الكاوبوي)، وخامسة لأفلام الخيال العلمي، وسادسة للأطفال، وسابعة للكهول، وثامنة للأفلام التاريخية. وقبل أن تمضي إلى ما بدا لي بلا نهاية، قلت لها: هل سأدفع كثيرا لو طلبت مشاهدة كل شيء قالت: لا، حوالي مائة دولار أو أكثر قليلا، وسنعطيك الجهاز (الديكودر) مجانا دون رسوم. قلت: لا بأس، أوافق، فأجابني الصوت، سيصلك مندوب من الشركة في التاسعة من صباح الغد، ويقوم بإتمام التوصيلات اللازمة. ولم تتركني إلا بعد أن أخذت العنوان، ورقم بطاقتي الائتمانية.

وجاءني في الصباح فتى مهذب في عمر ابني، لكنه لا يزال طالبا في جامعة رخيصة الرسوم، غير بعيدة عن جامعة هارفارد التي يتكلف فيها الطالب حوالي أربعين ألف دولار في العام الدراسي، وذلك رقم لا يقدر عليه إلا الأثرياء وحدهم. ولذلك، دخل هذا الطالب إلى جامعة متواضعة، مقدور عليها ماليا، ويمكن لعمله الذي يقوم به إلى جانب الدراسة أن يسدد نفقاتها. وفي دقائق كان الشاب أكمل عمله، حيث تولى توصيل جهاز «الديكودر»

بالتلفزيون، وتوصيل الجهاز إلى «الفيشة» المخصصة للكابل. وأخبرني عن الكيفية التي أستخدم بها «الريموت كونترول» الجديد الذي قدمه إلي. وبالطبع أخذ وقتا طويلا في الاستماع إلى الشرح وإعادة الشرح حتى أعلنت له أنني فهمت، فقد رأيت العملية معقّدة بعض الشيء لكن الشاب صبر علي حتى تأكد أنني تعلمت تشغيل كل شيء.

وجلست وحدي أتعرف على القنوات التي ينقلها هذا الكابل، وأتطلع إليه وإلى الدليل الذي قدمه الشاب إلي، وقلت لنفسي: واغوثاه أكثر من مائتي قناة، من الذي عنده وقت ليشاهد ذلك كله! وكعادتي في الاستغراق في الأشياء الجديدة، جلست أتعرف على القنوات العديدة كأنني أليس في بلاد العجائب، لكنها بلاد عجائب عصرية، مجموعة قنوات متخصصة في قصص الحب، وعشرات غيرها في شتى الموضوعات، ودون إعلانات، وأنت وما تريد أيها المشاهد، لمدة أربع وعشرين ساعة دون انقطاع. أما قنوات الأخبار والمعلومات فشيء مبهر بالفعل. قنوات للأحداث التاريخية الكبرى ولسير الشخصيات المؤثرة في التاريخ البشري. قنوات عن الأعلام في كل مجال، ناهيك عن الفنون المختلفة. وإذا أردت أيها المشاهد «الهلس» فما أكثر، أما إذا أردت الجدّ فهو موجود، وعلى قفا من يشيل. المهم أن تحدد أنت ما تريد، وطوال الوقت الذي تستطيع احتماله.

وقادتني عقد المثقفين إلى قنوات المعلومات والمعرفة. شاهدت مثلا حلقات بديعة عن تاريخ موسيقى الجاز، وحلقات أخرى عن تطور السينما وعلاقتها بالفنون، وشاهدت أكثر من فيلم عن شخصيات عالمية، وأكثر من فيلم تسجيلي عن الأحداث الكبرى في أوربا، ولم يفتني مشاهدة ما رأيت عن التاريخ الأمريكي. وكنت إذا مللت من مشاهدة قنوات المعلومات والمعارف والأخبار، أعود إلى قنوات الأفلام الروائية، وأتوقف بوجه خاص عند أفلام الحب. هل هذا حنين إلى الشباب الذي أخذ يغرب إن لم يكن قد غرب بالفعل؟ هل هي رغبة في الائتناس بمشاعر الحب التي يراها الإنسان فيقاوم الإحساس بالوحدة، خصوصا حين يكون مغتربا اغترابا يطول بعض الشيء، بعيدا عن الأهل والولد؟ لا أعرف الإجابة على وجه التحديد، ولكنني وجدت متعة خاصة في المقارنة بين أفلام الحب المختلفة، عبر عصور السينما المتعددة،وعبر مدارسها الفنية المتباينة،وعبر جنسياتها المتنوعة واكتشفت طرائف دالة تستحق المتابعة والكتابة.

ويبدو أن حرفة الناقد لا تتركني حتى وأنا أشاهد أفلام الحب،ورغم أني أقاوم هذه الحرفة، وأحاول نسيان ما تفرضه من تحليلات عقلانية باردة، وأترك نفسي مستسلما لموجات مشاعر الحب، الرقيقة أو العاصفة، البسيطة أو المعقدة، إلا أنني أكتشف وسط استغراقي فيما أنا فيه بالملكات العقلية للناقد تغزو

وعيي، وتفرض نفسها على انتباهي، فأندفع إلى تحليل ما أرى، وألاحظ مثلا الميل إلى تعقيد قصص الحب المعاصرة بالقياس إلى قصصه القديمة، ودخول مخترعات العالم الحديث وسيطا للحب. في الروايات القديمة، كان الحب يتم بين المتباعدين بوساطة الرسائل، وكانت الناس تشتري كتبا بعنوان رسائل المحبين لهذا السبب.

الآن يمكن أن تشاهد قصة حب جميلة بين توم هانكس وممثلة نسيت اسمها، تتم بواسطة البريد الإليكتروني (E. Mail)، فتجلس الفتاة العصرية، وتتحاور مع صديق لم تره، ولكنها ترى كلماته على شاشة الكومبيوتر الذي تحمله معها في كل مكان. أليس ذلك شيئا أكثر حداثة مما أراد نزار قباني أن يجعلنا نتعجب معه عندما كتب قصيدة طريفة بعنوان: «الحب بواسطة الفاكس». تجاوز العصر الذي نعيشه، إذن خرجنا من عهد «الحب في زمن الكوليرا» إلى عهد الحب في زمن الأقمار الصناعية، حيث اختفت الحواجز التقليدية للمسافة، وتغيرت مفاهيم الزمان والمكان!

وسرعان ما اكتشفت أنني أجلس بالساعات والساعات الطويلة أتقلب بين القنوات والقنوات، حريصا على معرفة كل شيء ومشاهدة كل شيء لكن يا مولانا، هذا أمر يحتاج إلى تفرغ، وليس عندك وقت كثير تضيعه. هذا ما همس به في أذني الداخلية الأنا الأعلى الذي أنطوي عليه، وأستمع إلى نصائحه، فوجدتني أكتشف

بالفعل أن هذا «الكابل» اللعين، سوف يلتهم كل وقتي. والعمل؟! غدا، أطلب الشركة مرة أخرى، وسأقول لهم: إنني سأكتفي بالاشتراك عندهم هذا الشهر فقط، فهناك أشياء أخرى كثيرة لابد من الاهتمام بها، وأنا لا أستطيع التحكم في وقتي ما ظل هذا «الكابل» المغوي موجودا في بيتي. أليس كذلك؟!

القراءة في المترو

عندما لا أستطيع ممارسة رياضة المشي، وعادة يكون ذلك بسبب سوء الأحوال الجوية وتراكم الثلوج أو الأمطار، أركب المترو من المحطة القريبة من منزلي،وهي المحطة الملاصقة لأحد أسوار جامعة هارفارد. وأنطلق بالمترو من مدينة كمبردج إلى مدينة بوسطن القريبة، والتي لا يفصلها عن كمبردج إلا نهر شارلز الذي يتجمد في أغلب أوقات الشتاء وتتحول مياهه إلى كتلة واحدة ممتدة من الثلج الذي يغلب عليه اللون الرمادي. وبالطبع، ألمح النهر،ونحن نعبر فوقه، حين يخرج المترو من الأنفاق التي يجري فيها تحت الأرض، ليعبر النهر عبر جسر «لونجفلو» الذي يصل ما بين ضفتي النهر، أي يصل ما بين مدينتي كمبردج وبوسطن. والمسافة قريبة على أي حال ما بين المحطة التي أركب منها في مدينة كمبردج والمحطة التي أنزل فيها في ميدان بوسطن، أو التي أستبدل بها أحيانا محطة أخرى.

ولا يشغل انتباهي أثناء جلوسي إلى مقعدي في إحدى عربات المترو سوى أن أتطلع إلى وجوه الناس. الأغلبية من الشباب الذين تجمع بينهم التلمذة في جامعة هارفارد أو جامعة آل إم. آي. تي، أو معهد ماساشوستس للتكنولوجيا، أو غيرهما من الجامعات الصغيرة غير المهمة التي تحتويها مدينة كمبردج.

ويمكن أن يكون هؤلاء الشباب من تلامذة الجامعات الموجودة في مدينة بوسطن، وينتقلون إليها من مدينة كمبردج. ولا يوجد بين هؤلاء الشباب إلا القليل من أمثالي الذين يدخلون في فئة العواجيز. وهي فئة يصعب عليها إقامة علاقة متكافئة مع هؤلاء الشباب، ذكورا كانوا أو إناثا.

أذكر مرة أنني جلست إلى جوار فتاتين في عمر ابنتي تقريبا، وكانت كلتاهما تتحدث مع الأخرى عن بعض شئون الحياة، وبصوت مرتفع نسبيا لم أملك معه إلا الانصات بدافع الفضول،وفجأة وجدت إحدى الفتاتين تقول لزميلتها: أوه، يا إلهي؟! كيف يمكن أن أتفاهم معه، وهو عجوز ملعون، إنه فوق الأربعين يا عزيزتي. ولم أسمع بقية الحوار. ربما كانت تتحدث عن أبيها، ربما كانت تتحدث عن رئيسها في العمل (فأغلب الطلاب يعملون) وربما كانت تتحدث عن أحد أساتذتها. ولكن أيا كان من تتحدث عنه فإنه رجل مثلي، وعجوز مثلي، ولا أعرف إن كنت مثله ملعونا أم لا.

المهم أنني بعد أن استمعت إلى هذه الجملة، لم أستطع إلا أن أطرح على نفسي السؤال: إذا كان هذا العجوز الملعون جاوز الأربعين، فأي صفة يمكن أن أنالها وقد جاوزت الخمسين، وأقترب من نهاياتها بخطى حثيثة؟ وابتسمت ساخرا من قطار الزمن الذي مضى بي سريعا دون أن أنتبه، وخطر على ذهني عنوان سخيف لفيلم عربي، أغلب الظن أنه: «ومضى قطار

العمر يا ولدي». ولم أتذكر هل كان هذا الفيلم من إخراج مخرج الروائع حسن الإمام أو من إخراج حسام الدين مصطفى، عليهما رحمة الله.

وأحسب أنني بعد أن عرفت فئتي العمرية (عجوز ملعون يقترب من الستين؟! ويا للهول على رأي يوسف وهبي عليه رحمة الله هو الآخر) قررت بيني وبين نفسي عدم مبادرة الشابات أو الشباب بالحديث. إذا بدأوا هم أو هن (وهذا أفضل طبعا) بالحديث فأهلا وسهلا، وإلا فالصمت الرزين الذي يبدو قرين التأمل أليق بمن جاوزوا الأربعين أو الخمسين أو الستين أو غيرها من الأعوام. وقلت لنفسي على سبيل التأسي: ليست الشيخوخة أو كبر السن عيبا، فلكل عمر ميزاته، وإذا كانت قد فاتتك روائح الجنة الشبابية (إشارة إلى بيت الشعر الذي لا أذكر صاحبه، والذي يقول: يا للشباب المرح التصابي / روائح الجنة في الشباب) فهناك جنان أخرى قادمة!

وأمضي في تعزية نفسي بتذكر وقفتي أمام شباك السينما التي اعتدتُ الذهاب إليها، وملاحظتي كلمة Senior، وهي كلمة تعني الأكبر سنا، والأعلى مقاما، والأرشد، والبالغ سن التقاعد، وأمامها إشارة إلى أن هذه الفئة تدفع ثمن التذكرة مخفضا خمسين في المائة، وأكثر أحيانا. وسألت العاملة المسؤولة عن التذاكر، هل يمكن أن أعتبر نفسي واحدا من هؤلاء «السينيور» وأحصل على تخفيض الخمسين في المائة؟! فنظرت

إلي شذرا، قائلة بحزم: كلا يا سيدي، أنت لا تزال شابا، ولم تبلغ هذه الفئة العمرية بعد. وكم كنت سعيدا بما قالت، فهي لم تشِر إلى العجوز الملعون الذي جاوز سن الأربعين، ووددت لو أعطيتها ضعف ثمن التذكرة خصوصا لأنها لم تكن عجوزا لعينة، وإن كانت جاوزت سن الأربعين مثلي.

هكذا، أظل جالسا في المترو، مرتديا قناع الحكمة الصامت، متحليا بالوقار الرزين، أراقب من حولي من الأكثرية الشابة، وأتعاطف مع من هم مثلي، أو يزيد سنهم على سني. وإما أن أترك العنان لخواطري، أو أقوم بترتيب أفكار ما سوف أكتبه من مقالات أو دراسات، أو أتسلى بالتطلع إلى الوجوه، وتعدد الجنسيات التي تدل عليها الوجوه، فأنتقل إلى تأملات داخلية عن معنى التعددية العرقية والتنوع اللغوي الذي تعيشه الولايات المتحدة، خصوصا هذه المنطقة التي أعيش فيها، والتي تمتلئ تقريبا بكل الأجناس، وتسمع فيها عشرات من اللغات. وإذا مللت من تأمل التعددية العرقية، وقررت أن ألتفت إلى غيرها من الظواهر التي تستحق القراءة، توقفت عند الكثير من الوجوه التي تبدو مستغرقة تماما في القراءة.

وما أكثر من أراهم على هذا الوضع في المترو تختلف أعمارهم، وتتعدد جنسياتهم، وأجناسهم، ولكن الظاهرة هي هي. يدخل الواحد أو الواحدة من هؤلاء إلى عربة المترو في عجلة تكشف عن حماسه أو حماستها، وما إن

يجلس الفتى أو الفتاة (الرجل أو المرأة) إلا ويخرج الكتاب من الحقيبة وتبدأ القراءة إلى أن تأتي محطة الوصول. قليلون أو قليلات من يضيع وقتهم في الثرثرة مثل هذه الفتاة البلهاء التي تجعل عجوزا ملعونا كل من جاوز الأربعين. وكثيرون وكثيرات هم (أو هن) من تراهم (أو تراهن) في المترو مع كتاب، وعلامات الاهتمام والاستغراق والاندماج بادية على ملامح الوجه.

بالطبع، ما أراه في المترو ما بين مدينتي كمبردج وبوسطن يتكرر في كل وسائل الانتقال في الولايات المتحدة، تماما كما يتكرر في كل دول أوربا، فالكتاب وصحبته ومحبته مسألة أساسية من مسائل الحياة في هذه البلدان، والاهتمام بالكتاب لا يقل عن الاهتمام بكل ما هو مهم في الحياة. جاء الكومبيوتر الصغير المحمول،وتراه على فخذي الكثيرين الذين يكملون أعمالهم، مراقبين شاشة الكمبيوتر الخاص بهم، داخل الطائرة أو في القطارات أو الحافلات، ولكن عدد هؤلاء لا يزال قليلا بالنسبة لعدد الذين يحملون الكتاب. ولا يزال حمل الكتاب داخل الحقيبة التي يحملها الإنسان في يده، أو يضعها على كتفه، أو على ظهره كما يفعل أغلب الطلاب والطالبات، أول لا يزال حمل الكتاب عادة راسخة، متأصلة في النفوس بحكم التربية، وبحكم تأثير وسائل التثقيف العام، وبحكم اهتمام أجهزة الإعلام بالكتاب والترويج له.

سألت نفسي، آخر مرة ركبت فيها المترو من كمبردج إلى بوسطن، عن عدد الذين رأيتهم يحملون كتبا في مترو الأنفاق في القاهرة. أذكر صديقا اصطحبني معه بالقوة ليريني جمال المترو في القاهرة، وركبناه من محطة الأوبرا إلى حلوان، وعدنا من حلوان إلى مصر الجديدة، يعني جُبنا القاهرة من أقصاها إلى أقصاها، وأقنعني صديقي بأهمية المترو، وأن مدينة القاهرة دخلت مرحلة حضارية رائدة بوجود المترو الذي أعجبني معمار محطاته بالفعل.

ولكني،حين تعاودني هذه الذكرى أسترجعها باحثا في تلافيف الذاكرة عن رجل واحد أو امرأة لاحظت معهما كتابا، فلم أتذكر، تماما كما يصعب أن أتذكر المهتمين بالقراءة من أبناء جلدتنا -نحن العرب- في وسائل النقل المختلفة. وابتسمت ساخرا لنفسي، وأنا أقول لها: إذا كنا لا نقرأ عادة ونحن مستريحين في بيوتنا، ولا يشغل المواطن عادة نفسه بالقراءة، ولا يقرأ الطلاب إلا من أجل الامتحان، وكثير من الأساتذة لا يقرأون إلا من أجل الترقية، إذا كان ذلك هو حالنا فهل تجوز المقارنة بين القراءة في المترو هنا والقراءة في المترو هناك؟!

أذكر، الآن، أنني كنت في زيارة إلى مقر اليونسكو في مدينة باريس، وهناك عرفت معلومات مفيدة عن طباعة الكتب وتوزيعها، وكانت المفاجأة انني عرفت أن دار نشر واحدة فرنسية، هي دار نشر جاليمار، تستخدم من

ورق الطباعة بقدر ما يستخدم العالم العربي كله في طباعة الكتب، كما عرفت أن أرقام توزيع السلاسل العالمية الشهيرة، مثل البينجوين، تطبع من الكتاب الواحد مئات الآلاف بل الملايين في بعض الأحيان،وقارنت بين هذا العدد المهول ونجيب محفوظ المسكين الذي لم يطبع له ناشر كتابا واحدا بالعربية فيما يجاوز خمسة آلاف -أو حتى عشرة آلاف- نسخة على أكثر تقدير. لا أذكر أين قرأت أن تزايد عدد المكتبات العامة والخاصة في الأمة هو علامة من علامات تحضرها ونهضتها، وأجدني أقول لنفسي إن هذا الأمر لا يكفي، بل يجب أن يقترن بتزايد عدد المكتبات تأصل عادة القراءة في كل مكان، ومنها المترو، فذلك أفضل مليون مرة من الثرثرة الفارغة التي تصف مجاوزة الأربعين بالعجز اللعين!

ميدان جبران

هذا صباح جميل، كل ما فيه يبعث على البهجة. الشمس المشرقة تقضي على الإحساس بالبرد القارس، وتنعكس على كتل الجليد الباقية في جوانب الطرقات والممرات، فتشع على كل ما حوله من أفرع الأغصان والأشجار المتناثرة في كل مكان. واليوم عطلة. وأخبار الطقس تؤكد أن الجو سيظل صحوا طوال اليوم، والسماء ستظل صافية، بلا غيوم أو أمطار، ودرجة الحرارة محتملة مع أنها تحت الصفر، وها أنذا أرقب السناجب بعيني، وهي تتقافز على أفرع الشجرة التي أرى قفتها مع قمم زميلاتها من النافذة الكبيرة في حجرة مكتبي التي تطل على الحديقة الخلفية للمنزل الذي أسكنه.

وقلت لنفسي: هذا الجو البهيج ينبغي الاستمتاع به، والخروج إليه، وممارسة رياضة المشي التي لم أمارسها لأيام بسبب تساقط الجليد، والبرودة التي زادت وطأتها بسبب غياب الشمس. ارتديت ملابس الخروج المعقولة، وتركت الحذاء الجلدي السميك الثقيل الذي هو حمولة في ذاته، ولبست حذاء التريض الأخف، وانطلقت إلى الخارج أحتفل بالشمس والهواء النقي.

ورسمت لنفسي خط سير طويل، تعويضا عن كسل الأيام الماضية، أو حبسة الأيام الماضية، وقلت لنفسي:

سأسير بحذاء نهر شارلز، وسط الحدائق والممرات الهادئة، إلى أن أصل إلى تقاطع شارع ماس (اختصار كلمة ماساشوستس) مع النهر، وأعبر الجسر إلى مدينة بوسطن، وأمضي في شارع «نيوبري» المظلّل بالأشجار إلى ميدان جبران. مسافة طويلة تستغرق ساعة ونصف بالمشية السريعة، أو تستغرق ساعتين بالتوقف والاستمتاع بكل شيء حولي.

وعندما أصل إلى ميدان جبران سأكون قد تعبت وجُفف، ويحق لي أن أتناول الغداء المتأخر في أحد المطاعم الجميلة المتناثرة حول الميدان، أو أذهب إلى قرب الميناء، وأستمتع بمنظر مياه المحيط تنعكس عليها شمس هذا اليوم المشرق.وسرت في طريقي، خفيف الخطى، مليئا بالحيوية والنشاط، شاعرا مع كل مسافة أقطعها أنني ألقي عن كاهلي بعض ما أحمله من دهون وشحوم وغيرها من علامات السمنة التي أصبحت أعانيها، منذ أن أصبحت أسير السيارة والمكتب،غير قادر على الحركة أو ممارسة رياضة المشي التي أحبها كل الحب.

ولكن أين يسير الإنسان في شوارع القاهرة؟ وكيف يهرب من التلوث والضوضاء؟ وإذا وجد وقت الفراغ الذي يمكن فيه الاهتمام بمطالب الجسد، فأين نمضي في القاهرة التي نحبها ونكرهها؟ وأين هي الشوارع التي تغري بالمشي فيها؟ وأين هم أولئك الذين يسمحون لك بالفراغ؟ هنا الأمر مختلف، أذهب إلى

الجامعة يومين في الأسبوع، وبقية الأسبوع موزعة بين مكتبي في المنزل والعمل في مكتبة الجامعة، والوقت يكفي لكل شيء، والهدوء في مدينة كمبردج الجامعية يبعث على المزيد في العمل، ونقاء الجو في يوم مثل هذا اليوم يبعث على النشاط، ويدفع القدم إلى الحركة السريعة الرشيقة التي تتساقط بها الدهون مع قطرات العرق التي تتجمع حين تتزايد الحماسة، وحين تتدافع الحركة المتسارعة كأنها تريد أن تثأر من طول السكون والجمود واللاحركة.

ومضيت بحذاء النهر، تاركا لكل حواسي حرية الاستمتاع، العين ترى ما يبهج، والأذن تسمع ما يريح، والأنف يشم من نقاء الهواء ما يضاعف الطاقة، والجلد يشعر بلمسات الهواء مداعبة ببرودة خفيفة، والقدم لا تكفّ عن الحركة، والجسد كله مندفع إلى الأمام، يريد أن يجري، وأن ينافس الشابات والشبان الذين يجرون في موازاة النهر، ولكن حكمة ما فوق الخمسين تؤجل إلى وقت لاحق، ويتسارع الخطو كأنما يتمرد على هذه الحكمة، وتدب الحماسة في الخلايا التي تريد أن تدفع الجسد إلى الجري والتسابق مع كل هؤلاء الذين يمارسون رياضة الجري!

وأصل إلى الجسر الذي يحملني إلى شارع «نيوبري» الذي أتوقف فيه قليلا لأحتسي القهوة في مقهى يقع في بداية الشارع. ثم أمضي في الشارع، متفرجا على كل شيء متأملا الوجوه النضرة للناس، والبسمات التي

تفترش الملامح في راحة. وأقول لنفسي: بعد ثلاثة تقاطعات ستصل إلى الناصية التي كانت عندها مكتبة «ووترستون» الضخمة بأدوارها المتعددة، ولا بأس من دخولها، وقضاء ساعة أو أكثر بين طوابقها، ولن أحمل شيئا أشتريه، سأطلب منهم إرساله إلى منزلي في كمبردج، كما تعودت أن أفعل في زيارتي السابقة منذ ست سنوات. وأصل إلى موضع المكتبة، فأجدها أغلقت أبوابها، وباعوها إلى محلات أخرى لا علاقة لها بالكتب. وأسأل أحد المارّين، فيقول لي: بعد إنشاء الفرع الجديد الضخم لمكتبة «بارنز ونوبل» ومكتبة «بوردر» في شارع واشنطن القريب، قَلّ الإقبال على مكتبة «ووترستون» فأغلقوها، نتيجة عدم صمودها في المنافسة.

شعرتُ بالأسف، ولكني قلت لنفسي: لا بأس، بعد أن أمضي بعض الوقت في ميدان جبران، سأعرّج على شارع واشنطن، وأرى المكتبتين الجديدتين الضخمتين كما قيل لي. وأنعطف بعد قليل إلى اليمين في أحد الشوارع الجانبية وألمح ميدان جبران هائلا، ممتد الجنبات، متسعا الاتساع الرهيب الذي أحبه، وأتجه إليه. وأضحك بيني وبين نفسي من إصراري على تسمية الميدان باسم ميدان جبران، فالحقيقة أن الميدان اسمه «ميدان كوبلي»، وكوبلي هذا أحد أعلام مدينة بوسطن، وأطلقوا اسمه على المنطقة كلها، ومنها هذا الميدان الجميل المستطيل الذي يحده من ناحية المبنى الضخم

لمكتبة بوسطن العامة، يواجهه من الناحية الأخرى واجهة كنيسة قديمة، حافظوا على جمالها المعماري وطرازها القوطي.

وما بين المكتبة والكنيسة تمتد باحة محاطة بالأشجار وتتوسطها نوافير الماء، ويحدّ الميدان من اليمين والشمال مبانٍ لا تزال تحافظ على طرازها المعماري الذي يقاوم متغيرات ناطحات السحاب التي تطل من وراء الكنيسة، والتي تنعكس الكنيسة على زجاج إحداها كأنها تنعكس على مرآة هي وما حولها من المباني القصيرة القديمة.

وقد تعودت أن أجلس إلى إحدى المقاعد الموزعة بين الأشجار لأستريح من المشي، وأستمتع بالنصب التذكاري الذي يحيط بمسلة مصرية تقف شامخة وسط الميدان، ولكنها مسلة صغيرة الحجم، قصيرة بالقياس إلى المسلة الموجودة في مدينة باريس ولكنها في وجودها في ميدان كوبلي تجعلني أشعر بأنني أتمتع بحضور خاص. وعندما أجلس إلى جوارها وأتطلع إلى الواجهة المهيبة لمكتبة بوسطن العامة (سامحه الله ذلك المهندس الذي صمم دار الكتب على كورنيش النيل) أشعر بامتداد تاريخ الحضارة الأوربية كلها، فأمام المبنى، على الرصيف الكبير قبيل المدخل تمثالان ضخمان، بجوار كل واحد منهما ما يشبه صفحة كبيرة منقوش عليها بحروف بارزة أسماء أعلام الفكر والفن والعلوم في الثقافة الغربية.

وفي أعلى الواجهة إفريز، مكتوب عليه بحروف كبيرة بارزة: المكتبة العامة لمدينة بوسطن بناها أهلها إسهاما منهم في تطوير التعليم وتقدمه. وتحت هذا الإفريز مربعات، في كل مربع منها مجموعة من الأسماء التي توازيها غيرها من أسماء المربعات الأخرى، فإذا وقفت في مواجهة المبنى، عبر الشارع، وبين أشجار الميدان، استطعت أن تقرأ كل الأسماء التي تخطر على البال، ابتداء من هوميروس وبندار وأرستوفان ويوربيدس وسقراط وأفلاطون وأرسطو وأبيقور، مرورا بأسماء أعلام العصور الوسطى البارزين، وانتهاء بأسماء مفكّري العصر الحديث.

كل الأسماء تراها العين، فتشعر بالألفة والانتماء، كما تشعر برغبة الدخول إلى هذه المكتبة التي تضعك على بقعة من الطريق اللانهائي الذي صنعه هؤلاء جميعا، والذي عليك أن تبدأ من حيث انتهوا إليه لتواصل المسيرة، لعلّك يوما تتحول إلى اسم مكتوب بحروف بارزة يقرأه الناس بعد عشرات وعشرات من الأعوام.

أذكر أنني وقفت مرة لوقت طويل، أتفحص هذه الأسماء، وأبحث بينها عن فلاسفة العرب وأدبائهم، ألم تسهم الحضارة العربية في نهضة الحضارة الغربية؟! ألم يكن ابن رشد -بعد ابن سينا- هو البداية التي بدأ منها الفكر الأوربي مسيرته إلى النهضة الحديثة؟ ألم تكن نظريات ابن الهيثم في البصريات وابن سينا في الطب بداية لتقدم الطب الأوربي؟ طبعا لم أجد الأسماء

العربية التي توقعتها، فشعرت بالغضب، وقلت لنفسي: هذه هي عادة الغربيين الذين يتجاهلون فضل الحضارة العربية عليهم، ولا يرون سوى أنفسهم ممثلين لهذه الإنسانية التي يتحدثون عنها ليل نهار.

ولم يخفف غضبي سوى ملاحظتي على الرصيف المقابل للمكتبة تماما، نصبًا تذكاريا يشبه المصطبة المرتفعة قليلا، يفصله عن مدخل المكتبة الكبير شارع عريض، ولكي تقف عليه لابد أن تعطي ظهرك إلى المكتبة. وقد وقفت، فوجدت لوحة نحاسية (أخضر لونها) من الحفر البارز تخليدا لذكرى الشاعر والفيلسوف جبران خليل جبران، وتضم اللوحة بعض الأغصان والأزهار، وفي زاوية منها مكتوب بالأحرف البارزة اسم جبران وتاريخ مولده ووفاته (1883 - 1931).

والنصب مقام من مدينة بوسطن تحية للشاعر الذي عاش فيها، وكان له بيت بها، كما كان له أصحاب وصاحبات تركوا فيه كما ترك فيهم أعمق الأثر. وابتسمت عندما لاحظت الخطأ الشهير في هجاء اسم «خليل» فقد كان أصدقاء جبران ينطقونه (كاليل) وتعودوا أن يكتبوه Kahlil Gibran، وهكذا كتبوه على النصب، وظل الاسم بخطئه الهجائي نتيجة عدم دقة النطق علامة على هذا الشاعر العربي الكبير الذي لا تزال مدينة بوسطن تحتفظ بذكراه.

وأصبح من عادتي كلما مضيت إلى مدينة بوسطن أن أذهب إلى ميدان كوبلي، ولكن بعد أن تغير اسمه عندنا،

وأصبح ميدان جبران، وأنظر إلى الأسماء الغربية المحفورة حفرا بارزا على المكتبة، وأقول لنفسي: لا بأس، نحن نوجد في الميدان، ممثلّين في نصب جبران اللبناني وفي المسلة المصرية الموجودة، ولا ضير علينا لو أخطأوا في هجاء اسم جبران وجعلوه «كاليل» بدلا من «خليل»، فحضوره يواجه المكتبة، ويلفت الانتباه إلى حضور قومه العرب الذين أطلق واحد منهم اسمه على الميدان الذي يطلقون عليه هم اسم ميدان كوبلي. وأظن أن الحق معي من وجهة نظري على الأقل.

ذكريات هندية

بيني وبين الهنود محبة قديمة، بدأت بمشاهدة الأفلام الهندية التي كنت أخرج منها باكيا كل مرة، فقد كانت أغلب الأفلام التي نراها في تلك السنوات البعيدة من النوع المسرف في ميلودراميته، أطنان من الدموع و الكوارث المتلاحقة والعواطف المحبطة والمتأججة، وسلاسل متلاحقة من أشكال الظلم بكل أنواعه. ولأنني كنت صغيرا، بل وعاطفيا بحكم السن، فقد كنت أنفعل مع هذه الأفلام، وأبكي مع الأبرياء الذين ظلمهم الظالمون وانهمرت دموعهم لتغرق الشاشات.

ومازلت أذكر ذلك المشهد العجيب الذي ظللث مشدودا فيه إلى حركة البطلة، وهي تذهب إلى منشار كهربائي لتقطع رجلها، ذلك لأن حبيبها الذي تحبه أكثر من الحياة قد فقد رجله في حادث. طبعا، الآن، ومنذ سنوات عديدة، وأنا أضحك على نفسي كلما تذكرت الدموع التي لامست وجنتي أثناء هذا المشهد، وأحسست بطعمها على شفتي، وصدّقت المبالغات التي انفردت بها الأفلام الهندية على نحو لم يستطع أن ينافسها فيه حتى المغفور له حسن الإمام!

الغريب أنني لم أعرف أن الهند لديها من الأفلام الممتازة فنيا إلا بعد سنوات طويلة، عندما ذهبت إلى الولايات المتحدة للمرة الأولى. وكان من حظي أن

وجدت في الجامعة التي كنت أعمل بها ناديا للسينما العالمية، أتاح لي أن أعرف ما لم أكن أعرف عن سينما العالم الذي كنت أجهل فنونه، وبواسطة هذا النادي تعرفت على أفلام من قبيل «سلام بومباي» وغيرها من الأفلام التي بهرت كل من شاهدها، ولا تزال تعتبر علامة على السينما غير التجارية الهندية.

ومن يومها عرفت الفارق بين السينما الهندية التجارية والسينما الهندية الفنية، وأدركت لماذا يلجأ الموزعون إلى الأفلام التجارية، وكيف يحرصون على عرضها وحدها لأنها تحقق الربح الكبير، وتخاطب العقليات الساذجة والخيالات المراهقة،ومنها ذلك الخيال الذي كان لديّ في تلك السنوات البعيدة جدا. ومع ذلك، ورغم كل ما تعلمته وعرفته، لا تزال لتلك الأفلام ذكراها الخاصة المرتبطة بمطلع الشباب البعيدة الذي يبتهج المرء كلما تذكّره، ويتحسر على فراقه كلما مضى به قطار العمر وأوغل في السنوات التي يشيب لها الشعر.

ولا أعرف هل كانت هذه المحبة للأفلام الهندية هي التي جعلتني أصادق زميلا هنديا في الجامعة أم لا؟ أذكر أنني عندما دخلت كلية الآداب، قسم اللغة العربية، ووصلت السنة الثالثة، قابلت زميلا في الفرقة نفسها كان يعيد العام الدراسي لأنه رسب، وكان يكبرني في السن بما يقرب من عشر سنوات، لأنه بدأ تعليمه متأخرا في الهند، وانتقل من التعليم الديني في الأزهر إلى

التعليم المدني في جامعة القاهرة. وكان محمد حياة الله -وهذا هو اسمه- شخصا بالغ العذوبة والطيبة، دخل قلبي بعد أن جلست معه لأشرح له بعض ما غمض عليه من دروس النحو بناء على طلبه المهذب. وما إن انتهت الجلسة الأولى حتى أصبحنا أصدقاء. ولم أتردد في مساعدته العلمية كلما طلب، ودعاني لزيارته في بيت قديم بجوار الأزهر، كان يقيم فيه مع مجموعة كبيرة من الهنود. ولا أذكر كيف انتهى الأمر إلى أن وصل الحديث ذات مرة إلى أنه من الأفضل له أن يسكن بالقرب من جامعة القاهرة.

وتكرر هذا الحديث بيننا أكثر من مرة، إلى أن فاجأني باقتراح أن أترك الغرفة التي كنت أسكن فيها في الجيزة، ونسكن معا في شقة واسعة مع صديق هندي آخر، كان قد وصل إلى القاهرة ليكمل عمله في أطروحة دكتوراه. وما كدت أوافق على الاقتراح مشترطا أن لا يشغلني أحد بالبحث عن سكن جديد، وأن يتوليا هما كل ذلك حتى بدأ كلاهما البحث، وما كان أسهل العثور على «شقة للإيجار» في ذلك الزمان الذي مضى إلى الأبد. وأفلح محمد حياة الله وزميله محمد راحة الله في العثور على شقة واسعة جدا في أحد شوارع الجيزة القريبة. وكانت مكوّنة من أربع غرف. الأولى لي، والثانية لحياة الله، والثالثة لراحة الله، والرابعة كانت بمثابة مكتبة أو مستودع للكتب.

وعشتُ مع هذين الصديقين الهنديين ما يقرب من ثلاث سنوات، وكانت من أسعد سنوات الشباب. تخرجت فيها بامتياز مع مرتبة الشرف. وكنت الأول على كل أقسام اللغة العربية في الجامعات المصرية. وتم تعييني معيدا. كل ذلك ونحن معا. وبالطبع، نجح محمد حياة الله، ولم يعد يتخلّف أو يرسب بفضل مساعدتي له. ولا شك أن شرحي له الدروس الصعبة، وهو أمر كان يفرض على التمكن من هذه الدروس، كان يجعلها تثبت في ذاكرتي، خصوصا في العلوم التي لم تكن تعتمد كثيرا على الذكاء بقدر ما تعتمد على الذاكرة. ولم يتأخر محمد حياة الله في شراء كل المراجع التي كنا نحتاج إليها. كنت أنا أشتري الأساس، بينما كان هو يشتري كل شيء يمكن أن ينفعه في الهند عندما يعود إليها.

وقد كان كلا الزميلين الهنديين على درجة غير عادية من التديُّن والخلق الرفيع. وبقدر ما كانا يحثّاني على الصلاة معهما في أوقات الصلاة ويذكّرانني بمواعيد الصلاة إذا نسيتها، كانا يعفياني تماما من العمل في الشقة، خصوصا في إعداد الطعام. وأذكر أن حياة الله قال: لا تشترك أنت في الطهو حتى يكون لديك وقت للمزيد من القراءة والمحافظة على الأولية. ولم يكن عندي شيء سوى القراءة والقراءة والقراءة، وما أكثر ما قرأت وطالعت من كتب.

كان ذهني في ذلك الوقت مثل الأرض العطشى إلى الماء، تتشرب فورا كل ما يصلها من الماء، وكانت ذاكرتي لا تزال مرهفة كالنصل، وتعينني على تذكّر كل ما أقرأ. وكم كانت جلسات المساء جميلة، بعد العشاء، حين كنت أبدأ ممارسة دور الأستاذ الصغير الذي يحدّث صديقيه الكبيرين عن كل ما قرأ، ويجيب عن أسئلتهما حول ما يلقيه عليهما من درس، ويشعر بقليل من الزهو وهو يرقب شيئا من الإعجاب في عيون الصديقين!

ولم أكن أتعب في تلك السنوات من الأكل الهندي. وكان محمد حياة الله ومحمد راحة الله يتبادلان الطهو. وطبعا كان الأكل هنديا على الدوام. التوابل، البهارات. الطعم الحارق. الكركم. الكاري. الألوان الفاقعة. والخلطات العجيبة. للمرة الأولى، في حياتي، أرى اختلاط المالح بالمسكر، ولم أكن أشكو من شيء، بل كنت مستشارا في طرافة الطعام، فرحا بالصحبة الطيبة. ولا أزال أذكر مسامرات الطعام التي كان يتبادل فيها الصديقان الغناء، كان كلاهما يتحدث الأوردية، ويغني بها.

ووجدت نفسي بعد عام معهما أعرف مجموعة من الكلمات الأوردية، وكنت أرجو راحة الله أن يقرأ علي أحيانا، أو ينشدني من الشعر الأوردي، وكان يفعل، بل كان أحيانا يترنم بشعر الشاعر الهندي الكبير رابندرانات طاغور، فقد كان يعرف اللغة الهندية التي يكتب بها طاغور. ولم تنته علاقتي السكنية بهذين الصديقين

العزيزين إلا بعد أن قررث الزواج، والبحث عن مسكن مستقل، بعد التخرج والعمل في الجامعة. وكان راحة الله قد فرغ من متطلبات الدكتوراه، وعاد إلى جامعة عليجرة التي تدرَّج -بعد ذلك- في مناصبها إلى أن أصبح مديرا لها، بينما ظل حياة الله في القاهرة لسنوات بعد ذلك. وكان يعمل مترجما في البرامج الموجَّهة بالإذاعة المصرية، ويشرف على البرامج المعدّة باللغات الأوردية.

ثرى أين راحة الله؟ وكيف حياة الله الآن؟ هل لا يزالان في جامعة عليجرة التي التحق بها حياة الله بعد أن ترك القاهرة؟ هل لا يزال كلاهما من الأحياء؟ هل لا يزالان يذكران الأغنيات الأوردية والهندية التي كنت أردّد بعضها مقاطعها معهما، هل لا يزالان يحفظان ألفية ابن مالك التي حفظتها معهما، وعلّمتهما أن ينشداها ويتغنيا بها على سبيل اللهو؟ الإجابة عند الله، فقد انقطعت أخبار كليهما، من سنوات، ولم أسمع منهما أو عنهما!

بالأمس كنتُ أمشي في الشارع الرئيسي لمدينة كمبردج الأمريكية وكان وقت الغذاء. وكنت أبحث عن أقرب مطعم أتناول فيه الطعام لأعود إلى المكتبة. وجدت مطعما باسم «قلعة الهند». دخلته. كان يقدم «بوفيه» مفتوحا، مليئا بأنواع الطعام الهندي. أخذت من كل وعاء عينة صغيرة، حرصا على المعدة التي أصابها الوهن، وجلست أتناول الطعام وحدي. ولكن كان معي -في الذاكرة- حياة الله وراحة الله. أقارن بين

الطعام الذي أتناوله والطعام الذي كانا يقومان بطهيه. وأتذكر أصوات غنائهما مع الطعام وأقارن بين ما تعوّدت أن أسمع والأغاني الهندية الحديثة الموجودة في «سماعات» داخلية في المطعم. وأمدّ يدي إلى ألوان الطعام بحذر، فإذا وجدت التوابل زائدة في صنف، تركته بحثا عن توابل أقل تحتملها المعدة، وتذكّرتُ أيام أن كانت لا تهمني توابل ولا شطة ولا أي شيء في تلك السنوات البعيدة الجميلة التي تمتعت فيها بصحبة صديقين عزيزين من الهند.

بهجة السينما

لا أذكر المرة الأولى التي رأيت فيها السينما، ولكنني أذكر نوبة السحر التي انتابتني وأنا أشاهد حياة كاملة على الشاشة الفضية للمرة الأولى. كان لها رعشة تشبه تلك الرعشة التي تنتاب الطفل كلما رأى شيئا فريدا وعجيبا، شيئا يستغرقه، يجذبه، يحتويه، ينقله إلى عالم آخر، فينسى كل شيء، حتى القاعة المظلمة التي يجلس فيها إلى جوار الآخرين، بل ينسى حتى هؤلاء الآخرين، ولا يرى سوى الشاشة التي تحولت إلى عالم كامل من الأحداث والشخصيات.

وسرعان ما يندمج فيها يرى، فيتحد عاطفيا بهذا البطل القوي الجبار الذي يقهر الأعداء، ويخطف معه الأميرة الحسناء ليردفها على حصانه، وينطلق بها كالريح، تطير خصلات شعره في الهواء، مثلما تطير أطراف ثوب الأميرة الأبيض، الناصع البياض كالثلج في صباح يوم شتوي مشمس. السعادة. الفرحة. الدهشة. الحبور. الترقب. التطلع. الانتظار القلق. الحزن. الأسى الشفيف. الغضب. السخط. كل مشاعر الكون التي تحدث في الإنسان تتجمع في الداخل، وسط ظلمة المكان، والوعي كله مسلّط على هذه الشاشة البيضاء التي ما إن يرها المرء حتى يقع في غرامها، ويظل محافظا على بهجة لقائه بها.

كان ذلك قبل أن يظهر التلفزيون، وقبل أن يظهر الفيديو، وقبل أن تتحول أشرطة الفيديو التعليمية إلى أقراص د. في. دي، بل وقبل أن يصبح من الممكن أن تشاهد ما تريد من الأفلام على شاشة الكمبيوتر الخاصة بك. كانت السينما في ذلك الوقت عالما أقرب إلى الخيال، وأدعى إلى إثارة الخيال. أن تخرج من منزلك لكي تذهب إلى السينما، أن تستعد نفسيا طوال الطريق للدخول إلى عالم الخيال البهيج، أن تقطع التذكرة بعد أن تقف في الطابور، أن تبحث عن كرسيك وسط الظلام وحدك، أو بمساعدة فتى يحمل مصباحا صغيرا، أن تداعبك النسمات في القاعة المظلمة للعرض وأنت تدلف إليها في الطريق إلى مقعدك، أن ترى إشعاعات الصورة تنتقل من جهاز العرض إلى الشاشة، أن تصل أخيرا إلى مقعدك، وتسلم نفسك تدريجيا إلى الشاشة الفضية لتنقلك إلى عالمها لتنسى عالمك، كلها شعائر لا يمكن نسيان بهجتها الأولى، بل لا يمكن نسيان بهجتها الخاصة، عندما تقارن بين رؤية الفيلم في السينما أو مشاهدته في الفيديو.

لهذا السبب كنت مدمنا على مشاهدة الأفلام ما بين مدينة كمبردج حيث تقع هارفارد، ومدينة بوسطن عاصمة ولاية ماساشوستس. وأعتقد أن هذا الإدمان هو الذي جعلني حريصا على شراء الكتب الجديدة التي تدخل في دائرة اهتماماتي، وشراء شرائط أو أقراص الأفلام التي تدخل في الدائرة نفسها، اعتقادا مني أن

متعة مشاهدة فيلم متميز لا تقل عن متعة قراءة كتاب يثري العقل.

أذكر أن واحدا من أهم نقّاد عالمنا الحديث ومفكّريه، هو ڤالتر بنيامين فيلسوف الحداثة الألماني، كتب دراسة عن «الاستنساخ الآلي للفن في العصر الحديث». وقال فيها إن التقدم الصناعي قد ترك أثره على الفنون وكيفية تلقّيها في الوقت نفسه. وضرب مثلا على ذلك بفن التصوير. في الماضي، كان لابد للإنسان متذوق الفن أن يرتحل إلى فرنسا حيث يمكن أن يذهب إلى متحف اللوڤر في باريس، ويشاهد لوحة الموناليزا الخالدة، تستقر وحدها كالضوء السحري على الجدار بأكمله. كانت لوحة الموناليزا في ذلك الوقت شيئا غامضا، نائيا، بعيدا، عزيز المنال، كحلّ اللغز الصعب الذي تطرحه ابتسامة الموناليزا. وكانت الرحلة إلى المتحف، والمرور بأبهاء المتحف نفسها، والسير بين الأعمدة الشاهقة والممرات المزدحمة بالأعمال الفنية، كانت تلك كلها شعائر تضفي على حضور اللوحة طابعا فريدا لا يمكن تكراره.

الآن، وبفضل التقنيات الحديثة، أصبح من الممكن تصوير اللوحة، واستنساخ آلاف، بل ملايين الصور لها، في كل الأحجام، ومن كل الزوايا، بل مع تكبير هذا الجزء، أو اقتطاع الجزء المقابل وحده. ونتج عن ذلك أن أصبح في مقدور كل إنسان مشاهدة الموناليزا، والاستمتاع بها، بل مشاهدتها في الوقت الذي يريده

وفي المكان الذي يرغب، وبالحجم الذي يشاء. فقدت الموناليزا سحرها القديم، وأصبحت مبذولة للجميع، وسقطت عنها الهالة السحرية الملغزة التي كانت تحيط بها، ولم تعد هناك ضرورة لشعائر الوصول إلى قدس أقداس حضور اللوحة.

شيء من ذلك حدث للسينما. لم تعد هناك حاجة ملحة للذهاب إلى السينما، وأصبحنا نستطيع أن نحصل على شريط الفيديو في أي وقت، ونشاهده في أي مكان، كما أصبحنا قادرين على أن نستبدل شريط الفيديو أو قرص الدي. ڤي. دي. بالشاشة الفضية الكبيرة التي تحتل جدارا بأكمله، وأصبحنا قادرين على أن نخلق لأنفسنا وبأنفسنا مناظر عرض بالغة الخصوصية. نرى فيها صورنا، كأنها شهادة مؤكدة على أننا مدينون أكثر وأكثر لتقدم التكنولوچيا في كل مجال.

ولكن ماذا عن سحر اللوحة نفسها في حالة الموناليزا؟ هل تعوّضنا كل هذه المستنسخات عن الهزة التي نشعر بها، ونحن نشاهد اللوحة نفسها على جدارها الخاص في متحف اللوفر؟! هل تشع المستنسخات المكبّرة أو المصغّرة فينا الرغبة نفسها التي تتخذ أوضاعا متعددة في نفوسنا، ونحن نقترب من اللوحة الأصلية أو نتباعد عنها كي نراها من هذه الزاوية أو تلك، أو كي نرى انعكاس الضوء عليها من هذا الاتجاه أو ذاك؟ لا شيء يمكن أن يشبه اللوحة الأصل في المشاعر

التي تثيرها. أنا شخصيا، سأظل أذكر المرة الأولى التي تسمّرتُ فيها أمام هذه اللوحة، أتطلع إلى وجه المرأة المرسومة فيها، مشدودا إلى ضوء ابتسامتها الغامضة التي تجذب كالمغناطيس كلّ من يتطلع إليها. هل توازي المرة الأولى هذه، واللحظة الشعورية المحتدمة للقاء الأول، أي لقاء آخر بصورة منسوخة، أو مستنسخ صناعي للوحة؟ لا يمكن.

هذا هو ما أشعر به من فرق، عندما أقارن في داخلي بين ذكرياتي الأولى عن السينما وما أمارسه في هذه السنوات من مشاهدة الأفلام بواسطة الفيديو أو أجهزة الدي. ڤي. دي. لا شيء يعادل سحر القاعة المظلمة، ولا أحد يمتلك قدر البراءة التي شعر بها الطفل الذي كناه عندما مارسنا شعائر دخول السينما للمرة الأولى،وحتى عندما ظللنا نمارسها بصحبة الكبار، حماتنا ورعاتنا، وبعد أن كبرنا قليلا فسمحوا لنا بالذهاب وحدنا. طبعا الفيديو جعل المشاهدة أسهل، جعل الدائرة أوسع، استجاب إلى ضيق وقت الإنسان الحديث وشواغله.

ولكن بهجة الدخول إلى القاعة المظلمة، وممارسة الشعائر التي تظل مفرحة مهما تكررت، شيء آخر له سحره الفريد الذي يشبه بوجه من الوجوه السحر الفريد للوحة الموناليزا معلّقة على الجدار فنقف مشدوهين أمام اللوحة، واقعين تحت سحرها وسر غموضها. صحيح أن الإحصاءات تقول إن الملايين تشاهد شرائط الفيديو والدي. ڤي. دي، وترى الأفلام بواسطة

التلفزيون، ولكن الإحصاءات تقول إن الإقبال على دور السينما لم يتناقص، وأن دور العرض السينمائي تتزايد، خصوصا بعد أن تفنن صنّاع السينما في الوصول إلى ما لا يستطيع أن يصل إليه شريط الڤيديو أو شريطالدي. ڤي. دي.

قد يخالفني الكثيرون فيما أرى، ولكن لا أزال أشبّه ذلك البطل في فيلم «سينما باراديسو» (أو سينما الفردوس إذا حرصنا على الترجمة) ذلك البطل الذي شدّته الشاشة البيضاء منذ رآها للمرة الأولى في مدينته الصغيرة، فتعلق بها وتعلق بالعامل الذي يدير آلة العرض، وظل ينظر إلى مبنى سينما باراديسو كما لو كان ينظر إلى الفردوس. وحتى عندما ترك بلدته الصغيرة ليذهب إلى روما، ويعمل بعد ذلك بصناعة السينما، ظلت قاعة سينما باراديسو واحة الحلم ومأوى الخيال. وما كان أكثر حزنه عندما عاد إلى بلدته الصغيرة ليحضر جنازة العامل على آلة العرض الذي تعلق به كأنه والده، وليشهد إغلاق السينما القديمة، ويقف مع كبار السن مثله ليشاهدوا هدم القاعة التي انهدم معها عالم بأكمله، ولم تبق منه سوى الذكريات!

شيء من ذلك شعرب به عندما ذهبت آخر مرة إلى بلدتي الصغيرة. وأوقفت سيارتي عند المكان الذي تشغله «سينما الوطنية» في أول المدينة، حيث كنا نذهب كل أسبوع، وندفع قرش صاغ، نسترد منه مليما على هيئة قطعة حلوى، فقد كانت التذكرة (الترسو

طبعا) بتسع مليمات! شعرت بالأسى وأنا أشاهد موضع السينما عمارة قبيحة جدا. وتركت نفسي لذكرياتي وأنا أشاهد بعيني أنور وجدي وهو يقود سيارة جميلة، كبيرة، طويلة، وإلى جانبه نعيمة عاكف، وفي المقعد الخلفي لبلبة (أو فيروز لم أعد أذكر) وممثلة أخرى جميلة. وكان ذلك بمناسبة العرض الأول لفيلم «أربع بنات وضابط».

وقد جاء أنور وجدي بنفسه ليحضر العرض، يقود سيارته كأنه الفارس الذي هفت إليه كل القلوب،وهو يمضي سريعا بحصانه الذي يسابق الريح والأميرة الجميلة تحتضنه من الخلف. ضاع ذلك كله، وتهدمت السينما، وخرجت مكانها عمارة كريهة! قُذفتْ سيارتي بعد البكاء على الأطلال، ومضيت في الطريق إلى منزل الأسرة الذي تغير هو الآخر، بعد أن تهدّم المنزل القديم، ولمحت السينماتين المتقابلتين -«سينما نادر» و «سينما المحلة»- فوجدتْ الأولى تهدّمت، ونهضت محلها عمارة أخرى قبيحة، أما الثانية فلا تزال تنتظر دورها المحتوم!

«مؤكد هناك سينمات أخرى جديدة قد بُنيت». هذا ما قلت لنفسي وأنا أقود سيارتي، و «مؤكد هناك الملايين من الصغار الذين يعانون بهجة الدخول إلى السينما للمرة الأولى، وستأتي بعدهم ملايين أكثر». هذا ما همست به لنفسي أيضا مؤكدا، ولكنّ صوتا من داخلي همس بشيء مضاد من أنه لا طفل الآن يشاهد السينما، أو يدخل إلى قاعاتها السحرية، إلا بعد أن يكون قد

شاهد التلفزيون في منزله عشرات أو مئات المرات. ولذلك ظللت أحاور نفسي حول حبي للسينما، وتاريخي معها، بينما كنت جالسا في أحد كافتيريات مدينة بوسطن، وأنا أنتظر موعد عرض أحد الأفلام التي حزمت أمري على ضرورة مشاهدتها في قاعة عرض كبرى، كي أحصل على المتعة الكاملة، فما أبعد الفارق بين متعة مشاهدة الفيلم نفسه على شاشة الكومبيوتر الخاص بي ومشاهدته في صالة عرض كبرى، تتوفر فيها أحدث تقنيات الصوت، والجمال المعماري لقاعة العرض التي تتيح لك بهجة التلقي الفردي والجمعي في آن.

أوسكار

كنا في اليوم الخامس والعشرين من مارس. وقال لي أصدقائي وصديقاتي في مدينة كمبردج -قبله بأيام قليلة- لا ترتبط بشيء في ذلك اليوم، فنحن نريد أن نحتفل بعيد ميلادك في المساء، ونشاهد معك حفل توزيع جوائز الأوسكار الذي تذيعه أكثر من قناة تلفزيونية. وقلت لهم: لا بأس. لكم أن تأتوا إلى منزلي، ومعكم ما تريدون من أكل أو غيره، فأنا أكسل خلق الله فيما يتصل بالأمور المنزلية، ويبدو أن زواجي المبكر، وتدليل زوجتي، تركاني لا أعرف شيئا من أمور الطهي سوى أن أسلق البيض أو أعمل لنفسي القهوة أو الشاي. وقال الأصحاب لي: لا تقلق، سنتولّى كل شيء. وكانوا جميعا من الأمريكيات والأمريكيين، من زملائي في جامعة هارفارد، أو بعض المعارف الذين تعرفت عليهم. وقد أفشى لهم سر يوم مولدي زميلي الذي تولى استكمال أوراق الجامعة الخاصة بعملي أستاذا زائرا.

واجتمعنا في اليوم المحدد، وبعد عيد سعيد وسنة جميلة، وقبلات المودة والمحبة، تحلّقنا حول التلفزيون، كي نشاهد ما قبل الحفل من مقابلات مع النجوم والنجمات، وكيفية دخول النجمات والنجوم إلى قاعة الاحتفالات الكبرى، حيث يقع الاحتفال الثالث والسبعون بجوائز الأوسكار التي تقدمها الأكاديمية الأمريكية لرعاية فنون السينما منذ سنة 1928. وفي

هذه الأثناء، أخذنا نثرثر حول توقعاتنا، خصوصا بعد أن شاهدنا الكثير من الأفلام المتنافسة، وبعد أن تولّت الجرائد المختلفة مهمّة المتابعة، وعلى رأسها الـ «نيويورك تيمز» التي أحرص على قراءتها مع «البوسطن جلوب» التي هي أهم جريدة في ولاية ماساشوستس.

وقال صديقي چون: أنا أتوقع أن يفوز فيلم «قبل أن يحل الظلم» بإحدى الجوائز، خصوصا الممثل الذي برع في أداء دور البطولة. والفيلم مأخوذ عن سيرة ذاتية بالعنوان نفسه لشاعر وروائي كوبي، عمل على تعرية الظلم الموجود في المجتمع الكوبي المعاصر، واضطر بعد سجنه واعتقاله إلى الفرار إلى الولايات المتحدة الأمريكية التي كان يحسبها خلاصه، ولكنه وجدها جحيما آخر ظل يعانيه إلى أن مات بمرض الإيدز. وقد أطلق على سيرته الذاتية عنوان: «قبل أن يحل الظلام» لأنه كتبها أثناء هربه في الغابات، وكان لابد أن يفرغ من الكتابة في ضوء النهار، وقبل هبوط الظلام، حيث تنعدم الرؤية، ولا توجد وسائل إنارة.

ولكن صديقتنا كاتي، قالت: لا أظن ذلك، فهذا الفيلم جيد، وراديكالي، ولن يعجب المتحكمين في أمور الأوسكار الذين ينفرون من هذا النوع من الأفلام، وقد وافق على كلامها صديقنا كنچي، وهو أمريكي من أصل ياباني، موضحا أن الفيلم فيه إدانة واضحة للولايات المتحدة، ونغمة رفض للقمع الواقع فيها والذي يوازي

القمع في كوبا، وهو نغمة لن تعجب الأباطرة الذين يميلون إلى السينما التجارية.

وقال صديقنا بيل: أنا شخصيا أرشح فيلم «ايرين بروكوفيتش» الذي تقوم بتمثيله چوليا روبرتس، فصخت فيه، كيف تقول هذا وقد شاهدنا الفيلم معا، وقد لاحظت أنت أنني نمت بعد نصف ساعة من العرض لإحساسي بالملل، وسرعان ما شعرت أنت بالملل نفسه، وخرجنا ولم نكن في حالة رضا عن الفيلم بأية حال من الأحوال. قال صديقي بيل، وهو من أصل إيطالي يعتز به: يا جابر، أنت لا تعرف السياسة الكامنة وراء الاختيار، ستعطى الجائزة للجميلة چوليا روبرتس بسبب علاقتها العامة، وبسبب القوى التي وراء الفيلم.

قال صديقنا روي: لو كان هناك عدل لذهبت جائزة أحسن ممثلة للمبدعة جولييت بينوش في فيلم «شيكولاتة». وقاطعته بالسؤال صديقة أخرى: وماذا عن أنتوني هوبكنز في رواية «هانيبال» التي كتبها نفس المؤلف الذي كتب رواية «صمت الحملان»، فأجابها بيل بقوله: لا، الاحتمالات أكبر في فوز الممثل رسل كرو Russel Crowe عن دوره في فيلم «المصارع». ووافقت صديقي، معلنا أنني شاهدت هذا الفيلم في القاهرة، وأنني أعجبت به مع مجموعة الأصدقاء الذين شاهدوه. وقد حظي الفيلم باستحسان من أعرفهم من نقاد السينما في مصر.

ولم تمض المناقشة طويلا بعد ذلك، فقد ظهر مضيف الحفل الممثل الأمريكي ستيف مارتن. وهو الممثل الذي اختارته الأكاديمية هذا العام ليتولى تقديم الحفل، والوصل بين فقراته، وهي عادة أصبحت ثابتة، وتشمل أحيانا ممثلين وممثلات، أو مقدمي برامج تلفزيونية ناجحة، كما حدث في السنة التي فاز فيها فيلم «فورست جوم» والممثل توم هانكس بالأوسكار للمرة الثانية. وظهر ستيف مارتن على خشبة المسرح الضخم، وتوقف أمام تمثال الأوسكار الهائل الحجم الذي يتوسط خشبة العرض،وبعد ابتسامات وتحيات، قال بالحرف الواحد: هذه بلد عظيمة،ولو كنا في أفغانستان لكان هذا التمثال قد تم تدميره. وكان يقول ذلك وهو يتطلع إلى تمثال الأوسكار. وضجّ الحضور بالضحك الذي سرى كما تسري النار بين الهشيم في الآلاف الحاضرة. وضحك بعض الجالسين حولي، بينما قلت في نفسي: لابد أن يسخر منا ممثل متوسط القيمة، بل من الدرجة الثالثة، مثل ستيف مارتن. وهذا بسبب بعض المسلمين المتعصبين الذين يسيئون بحماقتهم إلى الإسلام كله وإلى جميع المسلمين.

وبالطبع، لكي يدرك القارئ السياق، فإن ما أعلنته الجرائد وأجهزة الإعلام الأمريكية، عن قيام المتطرفين في أفغانستان بتدمير تمثالين كبيرين لبوذا، كجزء من الحملة المتعصبة للقضاء على الأوثان، قد أثار ثائرة العالم، واعتبرته اليونسكو اعتداء على تراث الإنسانية

كلها، ونظرت إليه الأكثرية في الولايات المتحدة بوصفه اعتداء على حرية المعتقدات الدينية، وممارسة للإرهاب الاعتقادي. واستغلّت الأمر بعض الأوساط لتصوير العملية كلها على أنه دليل على تخلف المسلمين، وعلى تعصب الإسلام الذي أساء هؤلاء المتطرفون إلى صورته. ولذلك، ضحك الحضور على تعليق ستيف مارتن، وشعرتُ أنا بالغمّ بسبب كوني مسلما، يسيء الآخرون فهم دينه، ويعمل بعض أبناء هذا الدين على الإساءة إليه أكثر من أعداء الدين أنفسهم!

ويبدو أن الأصحاب حولي أدركوا بعض ما شعرتُ به، فلم يعلق واحد منهم على عبارات ستيف مارتن بشيء، خصوصا أن الإعلان عن الجوائز قد بدأ.وكانت البداية بجائزة لفيلم «نمر مروّض وتنين مخبوء». وهو فيلم صيني، قام ببطولته الممثل نفسه الذي قام بالبطولة الرجالية أمام جودي فوستر في فيلم «أنا والملك» وهو معالجة حديثة للفيلم القديم «الملك وأنا». ولم يمر الفيلم الصيني دون سخرية من الذين شاهدوه والذين وصفوه بأنه فيلم مغامرات عادي، يخلط بين الواقع والأسطورة، ويعتمد على الحيل السينمائية المتقنة.

وتتابعت الأفلام بعد ذلك، فرح الكثيرون لحصول الممثلة مارشا جاي هاردن بأفضل ممثلة مساعدة عن قيامها بدور زوجة الفنان بولوك في الفيلم الذي يحمل العنوان نفسه. وهو فيلم لا بأس به، ومفيد لمن لا يعرف شيئا عن حركة أو تاريخ الفن التشكيلي في أمريكا،

فالرسام بولوك وزوجته من أشهر ممثلي حركة الحداثة وما بعد الحداثة في الرسم الأمريكي. وكان يمكن للفيلم أن يكون أكثر نجاحا لو لم يُصرّ الممثل إد هاريسون على القيام بدور البطولة إلى جانب الإخراج إلى جانب الإنتاج في الوقت نفسه.

وظهرت إلى جانب فيلم «بولوك» أفلام أخرى مثل «ترافيك». وحصل فيلم «المصارع» على جوائز كثيرة، أولها جائزة أحسن ممثل التي هلّل بعدها صديقنا الذي تنبأ بذلك قائلا: ألم أقل لكم؟!. وكانت النتيجة التي لم تكن مفاجئة هي حصول چوليا روبرتس على جائزة أحسن ممثلة كما توقع صديقي بيل جرانارا. وقد ألقت كلمة مفتعلة، ذكرت فيها أنها تتحدث كثيرا لعلمها أنها لن تكون في هذا المكان مرة أخرى. وأحسبها صادقة إلى أبعد حد!

وبعد أن انتهى الحفل، أخذنا في التعليق عليه. وأبدى صديقنا المعجب بالممثلة جولييت بينوش حزنه لأنها لم تحصل على الجائزة عن أدائها الرائع في فيلم «شيكولاتة». وقد وافقته على أسفه، فقد شاهدت الفيلم، وأعجبت بأداء جولييت بينوش للدور الرمزي الأساسي في الفيلم. وهو دور صانعة الشيكولاتة السحرية التي تطلق مبدأ الرغبة التحرري في مواجهة مبدأ الجامد. ولذلك حديث آخر.

من هو الأمريكي؟!

سؤال يبدو ساذجا لو سألته لنفسك أو لغيرك خارج الولايات المتحدة. طبعا، الأمريكي هو الأمريكي الذي يسكن الولايات المتحدة الأمريكية التي أصبحت تحكم العالم كله أو تتحكّم فيه في السنوات التي أصبحت الكرة الأرضية فيها وحيدة القطب تماما. وقد يضيف البعض شيئا من السخرية على من يطرح هذا السؤال. وأنا شخصيا لم يكن هذا السؤال يخطر على بالي قبل إقامتي الطويلة لعدة مرات في الولايات المتحدة.

ولكنني اكتشفت مع تتابع زياراتي إلى الولايات المتحدة، وتدريسي المتكرر في جامعاتها، أن السؤال مهم إلى أبعد حد، وأنه مطروح على الأمريكيين أنفسهم، ويتجدد طرحه كلما تجددت مشاكل التعددية العرقية والثقافية والدينية التي تتميز بها الولايات المتحدة الأمريكية، والتي لا توجد على هذا النحو من الضخامة والكثافة والقوة في أي مكان آخر إلا فيها.

ومعروف أن الولايات المتحدة الأمريكية تقطنها أجناس متعددة، وقوميات متباينة، ومن ثمّ تنتشر فيها لغات ولهجات عديدة. وقديما، كان الرجل الأبيض القادم من أوربا على وجه التحديد هو الأصل، هو الأمريكي بألف لام التعريف. ولم يكن هذا الرجل الأبيض يسمح لغيره أن ينازعه الصفة الأمريكية، ذلك

على الرغم من أن هذا الرجل الأبيض كان في أصله مهاجرا، قَدِم إلى هذه الأرض بحثا عن موطن جديد، وعن حياة واعدة. ولم تكن الهجرات القديمة قاصرة على هذا الرجل الأبيض وحده، فإلى جانب هجراته، كانت هناك هجرات موازية ومصاحبة من الصُفر والسود وغير ذلك من ألوان الأجناس.

ولكن حين اكتملت السيطرة والسيادة لذلك الرجل الأبيض، الأوربي الأصل، أصبحت صفة الأمركة صفة ذات لون أبيض، وذات أصل يشير إلى أوربا التي كان الاعتزاز ببعض أقطارها سببا في تسمية مناطق متجاورة من العالم الجديد باسم نيو إنجلند، واستخدام الأسماء البريطانية في الأغلب الأعم للدلالة على المناطق الجديدة في العالم الجديد. هكذا، تكونت النخبة الحاكمة من أصول بريطانية غالبة، إلى جانب خليط من الإيطاليين والفرنسيين وغيرهم من المهاجرين.

أما السود الذين تحولوا إلى عبيد، أو الذين استُجلبوا بوصفهم عبيدا للعمل في المزارع والمصانع، فقد ظلوا في منزلة العبيد، حتى بعد الحرب الأهلية التي كان من أسبابها تحرير العبيد. وظلت الأجناس الأخرى: الآسيوية الأصل، والإفريقية الأصل، والقادمة من أمريكا اللاتينية، بل من الدول الأوربية الفقيرة، ظلت هذه الأجناس في الدرجات الأدنى من سلم الحقوق المدنية.

ولم يكن أمام أصحاب الجنسيات المضطهدة سوى الدفاع عن حقوقهم الإنسانية المشروعة، والكفاح العنيف للحصول على هذه الحقوق. وقد نجحوا في ذلك بدرجات متفاوتة، فأصبح الدستور الأمريكي لا يميز بين المواطنين تمييزا عرقيا أو دينيا أو ثقافيا أو اجتماعيا، وأهم من الدستور أصبحت المؤسسات المختلفة تعمل على إلغاء هذا التمييز، وتأكيد المعاني الإيجابية للتعددية، وهي المعاني التي لا تميز بين الأمريكي الأبيض أو الأمريكي الأسود أو الأمريكي الأصفر، أو غير ذلك من أصناف البشر الذين لا حصر لجنسياتهم الأصلية في الولايات المتحدة.

وبالطبع، يمكن لأي قادم، أو زائر، إلى الولايات المتحدة الأمريكية أن يقابل في كل مكان أمريكيين من أصول مختلفة وأجناس متباينة وديانات متباعدة وثقافات متصارعة أو متجاورة، ومع ذلك فكلهم لهم نفس الحقوق، وعليهم نفس الواجبات. وأتصور أن هذا الزائر سيقع في ورطة هائلة لو خاطب أحد الأمريكيين السود مستخدما كلمة «نجرو» بدل كلمة «أسود»، أو أظهر بعض التمييز في معاملته الأمريكيين الذين هم من أصول هندية أو باكستانية أو يابانية أو صينية أو أفغانية... إلخ. ولا شك أن هذا الزائر سوف يتحدث عن مباهج التعددية وإيجابياتها، وسيتمنى (لو كان عربيا مثلا) أن يحصل على الحقوق السياسية التي يحصل عليها الأمريكيون السود. وهل هناك أبلغ دلالة من تخرج

أمريكي أسود من جامعة هارفارد التي كانت معقل الـ W.A.S.P (الأحرف دالة على الأبيض الأنجلو ساكسون البروتستانتي) وصعوده درجات العمل العام والسياسي إلى أن أصبح رئيسا للجمهورية، بعد قرون من العبودية والتمييز العنصري.

والأطرف من ذلك أن المعنى التقليدي للأقليات قد اختلف، فالأجناس التي ليست من أصول أوربية لم تعد هي الأقل عددا، بل تتزايد أعدادها بشكل يغدو أكثر إثارة للانتباه عاما بعد عام. ولقد لاحظت شخصيا أن المبنى الذي أسكن فيه، وهو مجمع يضم ثلاث عمارات متجاورة، يشكل اللون الأبيض الخالص فيه الأقلية العددية، وأن الأغلبية لذوي الأصول الآسيوية بوجه خاص. وهي ملاحظة لا تبدو مفزعة للنسق الأمريكي الذي يتميز بالمرونة الفائقة المقرونة بالنزعة العملية الخالصة في التعامل مع عناصر التعددية العرقية والدينية التي تتكون منها المنظومة السكانية، فطالما كان هذا العنصر أو ذاك يحقق الفائدة، ويضيف بالإيجاب للمنظومة الأمريكية، فالاستقبال التشجيعي أمر حتمي إلى أبعد حد.

ولكن تحت هذه الصورة الجميلة، البرّاقة، تكمن ملامح سلبية لا تخلو حتى من التمييز العنصري والديني والثقافي. هذه الملامح السلبية لا تراها العين العابرة، وإنما العين الفاحصة التي تلمح ما يبدو صغيرا وهامشيا بالقياس إلى الملامح المركزية الأساسية

الجاذبة. هناك بعض المناطق في الجنوب الأمريكي لا تزال تعامل السود بوصفهم الجنس الأدنى، جنس الخدم، ولقد لاحظت بنفسي في غير الجنوب، في مدينة فيلاديفيا مثلا، كيف تنقسم جغرافية المدينة لتميز بين الأحياء الراقية التي يسكنها «ألواسب» البيض البروتستانت الأوربي الأصل والأحياء الفقيرة التي يسكنها السود الفقراء. وفي مدينة فيلاديفيا نفسها، من ولاية بنسلفانيا، وهي مدينة إبراهم لنكولن، الجامعة الفنية هي جامعة الأكثرية البيضاء، جامعة بنسلفانيا، أما الجامعة الفقيرة بالقياس لها فهي جامعة تمبل التي تقع وسط مناطق السود، وأكثريتها من الطلاب السود.

ولا أزال أذكر هذه الواقعة الدالة التي حدثت لي منذ سنوات في مدينة بوسطن عاصمة ولاية ماساشوستس. فقد ذهبت مع صديق أمريكي ممن يطلقون عليهم اسم «الواسب» وهو أبيض من أصل إيطالي وبروتستانتي في الوقت نفسه. وذهبنا إلى محل معروف ومشهور لأشتري معطفا أنيقا للشتاء. وكان المحل يتميز فعلا بأناقته وفخامته وارتفاع أسعاره الرهيبة. وأثناء حديثنا مع البائع الأبيض، دخلت صديقة لنا تعمل في جامعة هارفارد، وبصحبتها صديقها الأمريكي الأسود، فاستقبلهما البائع بفتور غير ظاهر، نجح في أن يخفيه إلى درجة أنني لم ألحظ نفوره إلا بعد أن خرجت المرأة البيضاء، وصديقها الأسود، فهتف البائع من منخريه

معلنا تأفّفه بعبارة «نفاية بيضاء» White trash. وكانت دهشتي بالغة، عندما لاحظت أن صديقي الأمريكي «الواسب» يومئ برأسه كما لو كان يعلن موافقته على ما قاله البائع.

وقد دفعتني هذه الواقعة إلى التحديق عميقا في تفاصيل الصورة التي تبدو بهيجة جدا عن التعددية العرقية والدينية والثقافية، حيث يسهل جدا النظر إليها على أنها ثقافة تعددية يحكمها عنصر مهيمن هو ثقافة البيض ذوي الأصول الأوربية، وأن هذه التعددية باقية ما ظلت تصبّ في المنظومة السياسية الاقتصادية التي تتحكم فيها المجموعات الحاكمة. ولذلك يندر أن يحصل أمريكي أسود أو أصفر على منصب مرموق تماما. ولم تعرف جامعة هارفارد -مثلا- إلى عام مغادرتي لها رئيس جامعة أسود اللون، وقل الأمر نفسه في حكّام الولايات وشاغلي المناصب القيادية وأصحاب الشركات العملاقة متعددة الجنسيات.

وقل الأمر نفسه في كل شيء في الحياة الأمريكية، حيث التسوية من حيث الظاهر بين الجميع، ولا فارق بين أمريكي أبيض أو أصفر أو أسود إلا بالعمل الذي يدّر المال، لكن على مستوى العلاقات الاجتماعية، التميزات الدينية، الممارسات الثقافية، فالأمر مختلف في التفاصيل الدقيقة والصغيرة والدالّة، التفاصيل التي قد تدفعك مثلي إلى أن تطرح السؤال الذي بدأت به هذا الحديث عن من هو الأمريكي؟!.

وستكشف لك الإقامة الطويلة في الولايات المتحدة أنها ليست جنة الله على الأرض، وأن هناك من التمييز العنصري والعرقي والديني والثقافي ما يجعل سؤال الهوية الأمريكية مطروحا إلى اليوم، ومتصاعدا مع تصاعد ما يسمى دراسات التعددية العرقية الثقافية.

مكتبات في كل مكان

أكثر الأماكن التي أتردد عليها في كل مكان هي المكتبات. لا أذهب إلى بلد عربي أو أوربي إلا وأسأل عن المكتبات فيه. لا أميز في ذلك بين المكتبات العامة والخاصة، فكلا النوعين محبّب إلى نفسي، وكلا النوعين بيني وبينه عشرة قديمة جميلة ممتدة عبر سنوات العمر. وأول شيء كنت أحسب حسابه في السفر هو التأكد من حمل النقود الكافية لشراء الكتب طبعا. الآن، تغيرت الدنيا، وأصبحت هناك «الفيزا» و «الماستر كارد» و «الجولدن كارد» وغير ذلك من الأوراق التي أسميها النقود البلاستيكية.

وعادة ما أكتشف، في كل سفر، أن أكثر ما أنفقه من أموال هو على الكتب. ولم أشعر بالندم على ذلك، قط، إذ لا يزال الكتاب رفيقي، كما لا يزال الكتاب الجديد الجيد مطلبي ومسعاي في هذا العالم الذي أعيشه وأعيش فيه. وبقدر عودتي من كل بلد أزوره محمّلا بالكتب، يتجدد إعزازي لهذا البلد واحترامي لثقافته وحضارته على السواء، خصوصا منذ أن تعلّمتُ -وقت الصبا- أن أولى علامات الحضارة ومقياس التقدم هو وجود الكتب والمكتبات.

مؤكد أن علاقتي بالمكتبات اختلفت بعض الشيء مع وجود الإنترنت، ومع وجود شبكة التوزيع المذهلة التي

تدعى «أمازون» حيث تستطيع وأنت في مكانك من أي موضع في العالم أن تحصل على الكتاب الذي تريده بالدق على بعض الأزرار وكتابة الأرقام السرية لكارت الفيزا أو الماستر كارد الخاص بك. ولكن هذا الاختلاف ظاهري فحسب، فلا زالت متعتي الحقيقية هي في التجول عبر صفوف الكتب في كل المكتبات التي أزورها، منتقلا ما بين فروع المعرفة المختلفة كما تتنقل النحلة بين أنواع الزهور.

ويحلو لي، طبعا، أن أمسك الكتاب بيدي قبل أن أشتريه، وأطالع الفهرست، ولا بأس من بعض فقرات أو حتى صفحات من المقدمة، فإذا أعجبني الكتاب حملته بين ذراعي في مودة، وانتقلت إلى غيره، ولا أترك المكتبة إلا وأنا محمل بما لذ وطاب من ثمار المعرفة، وبما أرجو وآمل وأضر على أن أقرأه، أو حتى بما يمكن أن أؤجل قراءته إلى حين يأتي الوقت الذي أفرغ فيه لموضوع الكتاب.

وقد كانت سعادتي غامرة هذه المرة حين وجدت مكتبات جديدة افتتحت في مدينتي كمبردج وبوسطن. صحيح حزنت على المكتبة القديمة التي صادفتها منذ ست سنوات في شارع نيوبري في مدينة بوسطن، فقد أغلقت أبوابها، ولكنني فرحت عندما وجدت غيرها وأكبر منها من المكتبات المفتوحة حديثا. وقد استوقفتني منها مكتبتان لبيع الكتب، تقع كلتاهما في شارع واشنطن بمدينة بوسطن بالقرب من وسط

المدينة ومن الحديقة الممتدة التي تقع على البيكون هل وتواجه مبنى الولاية.

وما أكثر ما قضيت من ساعات بين مكتبة الـ «بوردر» ومكتبة «بارنز أند نوبل» في شارع واشنطن. تتكون الأولى من أكثر من طابق، ورهيبة الاتساع، وفي كل طابق، وبين الأرفف المحملة بالكتب، مجموعة من المقاعد الوثيرة، حيث يمكن لك أن تحمل ما تشاء من الكتب من على الأرفف وتقلّب فيها كما تشاء، أو تقرأ فيها كما تريد، قبل أن تقرر الشراء أو عدم الشراء. وإذا شعرت بالجوع، أو الرغبة في احتساء القهوة، فيمكن لك أن تحمل الكتاب، أو ما تشاء من كتب، وتذهب إلى الكافيتريا الموجودة في داخل المكتبة، فتأكل، أو تشرب، أو حتى تتحدث مع من تريد من البشر، إذا سمح لك الآخرون، أو الأخريات، بالحديث معهم، أو معهن.

وقد ظننت في زيارتي الأولى، هذه المرة، لشارع واشنطن، أن بإمكاني المرور على المكتبتين والفراغ منهما في ساعة أو ساعتين. ولكني سرعان ما اكتشفت سذاجتي، وسرقت مكتبة البوردر الوقت كله، وما كِدتُ أتأهب للانصراف، بعد ساعات من التجوال، والاختيار، والقراءة، حتى اكتشفت أن في ظهر المبنى مبنى بأكمله مخصّصا للكتب المستخدمة من قبل، وهي كتب بأسعار زهيدة جدا بالقياس إلى ارتفاع الأسعار الفظيع الذي تتميز به مطبوعات هذه السنوات.

وقررت بعد تجربتي هذه أن لا أزور سوى مكتبة واحدة في اليوم الذي أخصصه للمكتبات، وسط أيام العطلة الأسبوعية. هكذا، أخرج من منزلي، بعد أن أكون قضيت فترة الصباح أعمل في الكتاب الذي أحاول الفراغ منه قبل عودتي إلى القاهرة. وأنطلق إلى إحدى المكتبات، سواء في مدينة كمبردج أو مدينة بوسطن. وأظل في كل مكتبة أتفحص الكتب، وأقلّب الصفحات، وأقرأ من هنا أو هناك، حتى أشعر بالرضا عن الكتاب فأحمله، وأضعه في مكان أعرفه، وأذهب إلى كتاب آخر.

وهكذا، من فرع إلى فرع من فروع المعرفة المتداخلة. وقد اكتسبت خبرات طريفة من هذا الفحص، وتعلمت التفرقة بين الطبعات الغالية والطبعات الرخيصة، كما تعلمت أن الطبعة الرخيصة يمكن أن تكون أحيانا أفضل من الطبعة الغالية. والمثال على ذلك، مثلا، سلسلة الأعمال الكلاسيكية التي تصدرها مكتبة «بارنز ونوبل» (بارنز أند نوبل). وهي سلسلة كان آخر ما اقتنيته منها طبعة فخيمة من إلياذة هوميروس بأربعة دولارات. وهو ثمن أقل حتى من ثمن ورق الكتاب الجميل وغلافه السميك الرائع.

وأحسبني أصبحت نتيجة علاقتي بالمكتبات صديقا لبعض الذين يعملون فيها. وبعضهم أخذ يُظهر الود لي، بعد أن لاحظ كثرة ترددي، وما ظهر من حبي للكتب. وأذكر من هؤلاء رجلا وقورا يعمل بمكتبة مطبعة هارفارد للكتب، حيث عثرت على كتاب عن الأدب

المقارن كنت أبحث عنه لمعرفتي بتميز كاتبه، ولفت انتباهي هذا الرجل الذي أصبح صديقا فيما بعد أن الكتاب ثمنه ستون دولارا، وأنه من الأفضل أن أبحث عن طبقة ورقية «بيبرباك» منه أو حتى عن نسخة في محلات الكتب المستعملة، وأعطاني اسم شركة توزيع متخصصة في الكتب المستعملة وعنوانها الإليكتروني على الإنترنت. وللأسف، لم أجد طبعة رخيصة من الكتاب، ومضت أسابيع انشغلت فيها، ولم أتذكر الكتاب إلا عندما وجدت نفسي مارًا من أمام المكتبة، فدخلت إليها وسألت البائع الذي وجدته لا يزال يذكرني، ولا يزال يحتفظ بالنسخة الوحيدة المتبقية من الكتاب لي!

ولم يكتف بذلك، بل أخذ يتحدث معي حول اهتماماتي الثقافية. وعندما عرف أنني مصري سألني إذا كنت قد اطلعت على الترجمة الإنجليزية التي أصدرتها مطبعة جامعة هارفارد لكتاب أندريه ريمون الضخم عن القاهرة. وطبعا، فرحت بصدور ترجمة كتاب أندريه ريمون الذي دعوناه في المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة للحديث عن تأريخه لمدينة القاهرة. وصرتُ ألتقي بالبائع چون، كثيرا، كلما ذهبت في جولاتي وراء الكتب، تماما كما ألتقي بغيره من عشاق وعاشقات الكتب التي تجد نفسك في علاقة معهم ومعهن ما دمت من عشاق الكتب.

وأتصور أن المكتبات التي تبيع الكتب قد أصبحت، بعد تطورها، وتعدد وظائفها، وتنوع أجنحتها، أماكن

للالتقاء والتعارف بين محبي الثقافة الرفيعة. وسواء كنت تجلس وسط أرفف الكتب لتقلّب في الكتب التي تحبها، أو تجلس إلى مائدة صغيرة في كافتيريا المكتبة، أو تتجول بين أجنحة الكتب المسموعة والكتب المرئية على السواء، أو تكون في الأماكن التي توجد فيها أجهزة الكومبيوتر لتبحث بنفسك، أو تتأكد، من وجود أو عدم وجود الكتاب الذي تبحث عنه في المكتبة، وتعرف موضعه المحدد، فسوف تجد باستمرار من يبادلك الابتسامة الصافية، ومن يرغب في الحديث معك حول اهتمام ثقافي مشترك، أو حتى حول شريط فيلم مرفق بنسخة الكتاب الذي أخذ عنه.

وكثيرا ما تتحول الابتسامة إلى تعارف وإلى كلام وإلى صداقة أولها وآخرها الكتب، ومنطلقها المكتبات الموجودة في كل مكان يمكن أن يشير فيه داخل مدينة كمبردج، أو مدينة بوسطن، أو أي مكان يمكن أن تذهب إليه في العوالم المتقدمة. ولابد أنك، بعد أن تخبر هذه المكتبات مثلي، ستقول لنفسك: إنه بعدد المكتبات وتنوعها وتطورها وتعدد وظائفها وتباين أجنحتها تتحدد درجة التقدم في البلد الذي تزوره. وقد تشعر، مثلي، وأنت تتنقل بين مكتبات كمبردج وبوسطن أنك في قلب ثقافة الكوكب الأرضي الذي لا تزال بلادنا العربية، للأسف، بعيدة عنه!

مكتبة وايدنر

في جامعة هارڤارد عدد كبير من المكتبات، وليس فيها مكتبة واحدة عامة كما في أغلب الجامعات التي أعرفها. وقد تعرّفتُ على تسع من هذه المكتبات التي يمكن أن تفيدني في عملي الأدبي، ولم أتعرف على الباقي إما لأنها تخرج عن دائرة اختصاصي واهتماماتي، وإما لأنها بعيدة في المكان، خصوصا بعد أن وجدت كفايتي وما يزيد من الكتب في مكتبة وايدنر. وهي إحدى المكتبات الأساسية للجامعة، وتحتشد فيها مؤلفات العلوم الإنسانية والاجتماعية على سبيل التخصيص، وهي قريبة جدا من مكان عملي ومن منزلي على السواء. ولذلك اكتفيت بها عن غيرها من المكتبات التي لا أعرف عددها إلى الآن، وإن كان بعض الزملاء أخبرني أن الأساسي منها يزيد على عشرين مكتبة، فضلا عن عشرات المكتبات الصغيرة في المراكز والأقسام العلمية والبحثية.

وأذكر أن من أخبرني بذلك دهش عندما استمع إلى إجابتي عن عدد الكتب التي تمتلكها مكتبات جامعة هارڤارد، فأخبرني أنها تبلغ حوالي خمسة عشر مليون كتاب وثلاثمائة ألف وربما أكثر. ولما رأى دهشتي البالغة قال: ولماذا تعجب؟! ألا تعرف أن جامعة هارڤارد هي أغنى جامعات العالم بلا استثناء، وأنها تمتلك العدد الأكبر من المكتبات والمتاحف التي لا توجد في غيرها

من الجامعات، وأن موازنتها المالية أكبر من ميزانية بعض الدول، وأن نشاطها الاستثماري والعلمي يجاوز المليارات التي لا تتخيلها أيها القادم من جامعة القاهرة الفقيرة!

ولم أشعر برغبة في المجادلة، أو حتى الدفاع عن جامعة القاهرة، وإنما شعرت بالدهشة التي دفعتني إلى تذكر أنني لم أبحث عن كتاب في مكتبة وايدنر إلا وجدته، وأنني كثيرا ما فوجئت بوجود كتب ومطبوعات ما كنت أتخيل إمكان وجودها هناك، وأن عمليات المتابعة والتزويد لا تكف عن الحركة والنشاط والإضافة. ولذلك لم أعجب أن عدد الكتب في وايدنر قد تزايد إلى الدرجة التي ضاق معها المبنى الضخم بأدواره العديدة، وسراديبه، ومخازنه التي تبدو بلا نهاية، عن استيعاب الأعداد المتزايدة من الكتب!

وهو الأمر الذي دفع إدارة الجامعة إلى تخصيص قطعة أرض جديدة مترامية الأطراف خارج دائرة مباني الجامعة، لبناء مكتبة إضافية، كما دفعها إلى تعديل نظام مكتبة وايدنر، واللجوء إلى طريقة جديدة في التخزين، وإضافة مخازن جديدة. وقد ترتّب على ذلك أن الباحث عن الكتاب، أولا بواسطة الكومبيوتر، سوف يعرف هل هو موجود في المبنى نفسه أم في المخازن، فإذا كان في المبنى فإن الكومبيوتر يحدد له الطابق والموقع المحدد والرف المحدد، فيذهب إليه على الفور، أو يعرف الباحث أن الكتاب في المخازن فيصدر

للكومبيوتر أمرا بإخراجه، ويعود في اليوم التالي ليجد الكتاب جاهزا في انتظاره!

أذكر أن مكتبة وايدنر فتنتني عندما تعرفت عليها للمرة الأولى منذ ستة أعوام، فقضيت فيها الكثير من الوقت، إما بين قاعات القراءة فيها، حيث توجد قاعات للمراجع العامة، وأخرى للدوريات، وأخيرة للجرائد. وكنت أصعد سلالم المخازن لأستقر في الدور السادس، حيث توجد الكتب الأدبية في أجنحته، وأقضي الساعات بين الأرفف، متفرجا على الكتب، مكتشفا عشرات من الكتب الجديدة التي لا أعرفها، حتى في مجال تخصصي.

ولذلك خصصت يوما بعينه من أيام الأسبوع للتجول الحر بين صفوف الكتب، والانطلاق بلا هدف محدد، سوى تعرف الكتب التي لا نهاية لها على الأرفف التي كانت تحيط بي من كل مكان، وكنت أشعر بها تحنو على ظمأي الدائم إلى المعرفة، وتنقلني مثل البساط السحري بين أقطار العالم ولغاته ومعارفه بلا دليل، في الوحدة المطلقة، والصمت الذي لا يقطعه سوى دقات كعب حذائي على الأرضية الرخامية أو في الممرات الخشبية، متنشقا غبار الكتب الخفيف الذي ينشر على المكان كله غلالة تبعث على الرهبة والرغبة!

للأسف، تغير هذا النظام في هذه المرة، فمع تزايد المخزون، اضطر المسؤولون إلى نقل الآلاف المؤلّفة من الكتب في مخازن خارج المبنى، لكن مع تسهيل

الحصول عليها بواسطة تعديل نظام البحث الإليكتروني عن الكتب بواسطة أجهزة الكومبيوتر التي تقوم مقام الفهارس، أو بتوسيع شبكة أنظمة المكتبات وتوصيلها بأجهزة الكومبيوتر الموجودة في مكاتب الأساتذة.وهكذا، أصبح كل أستاذ يستطيع أن يتصل من خلال جهازه بنظام مكتبة وايدنر أو غيرها، ويعرف أين يوجد الكتاب الذي يريده، لو كان على الأرفف، أو يأمر بإحضاره لو كان في المخازن الخارجية.

الطريف أنني قضيت فترة إقامتي الأولى في جامعة هارفارد، ولم يشغلني اسم «وايدنر» الذي كنت أحسبه مجرد اسم يطلق على مبنى فحسب، وكنت أنسى السؤال عن صاحب الاسم في غمرة إعجابي بالمبنى الهائل الاتساع، وبقاعاته وأدواره وتماثيله وتحفه وممراته التي تبدو كاللابرنث أو التيه. هذه المرة، كنت قادما من الخارج، في وسط الثلج المتساقط، وفتحت الباب الخارجي للمكتبة، وظللت برهة في الممر الصغير الذي يصل ما بين الباب الخارجي والباب الداخلي كأنه نقطة عبور ينتقل بها الداخل من صخب عالم الخارج إلى هدوء عالم المكتبة.

وأثناء نفضي رذاذ الثلج عن معطفي، لمحت كتابة على الجدار الداخلي لهذا المعبر. وكانت الكتابة تقول: إن هذه المكتبة أنشأتها السيدة إليانور إلكنز وايدنر لذكرى ابنها هاري وايدنر الذي مات غرقا مع السفينة «تايتنك» في مياه المحيط. وأذكر أنني توقفت أمام

هذه الأسطر، وتركت الذكريات تنساب إلى ذهني عن غرق السفينة «تايتنك» في الفيلم الأخير الذي شاهدته الدنيا كلها، والذي حصد أكثر الجوائز منذ عامين أو يزيد قليلا.

ولم أترك المكان إلا بعد أن قررتُ بيني وبين نفسي معرفة ما يمكن معرفته عن هذا الشاب الذي خلّدت هذه المكتبة العظيمة ذكراه إلى الأبد. ودخلت إلى المكتبة وأخذت أبحث عن الكتب التي تعرض لتاريخ جامعة هارڤارد التي تأسست سنة 1636 في القرن السابع عشر، وظلت تنمو مع تعاقب القرون والعقود، أما هاري وايدنر فكان أحد الأثرياء الأمريكان الذين استقلوا السفينة تايتنك في رحلتها الأولى التي لم تكملها ما بين ميناء ساوثهاميتون في إنجلترا ونيويورك في الولايات المتحدة. وكان هاري على السفينة مع والده ووالدته، فغرق مع والده، بينما نجت أمه ووصيفة لها من الموت على إحدى قوارب النجاة.

وفي ذلك الوقت، كانت مكتبة هارڤارد القديمة التي كان يطلق عليها اسم جورهول قد ضاقت بحوالي نصف مليون كتاب تحتويها، ولم تعد تقبل المزيد من الاتساع، وتقرّر هدمها، وبناء مكتبة أخرى محلها تستوعب مليونين ونصف كتاب، وتتكلف مليونين من الدولارات بأسعار مطلع القرن العشرين. وبدأ البحث عن المتبرعين وهو البحث الذي عاصره غرق السفينة تايتنك، وغرق هاري وايدنر الذي كان شابا مولعا بجمع الكتب، وامتلك

وهو في السابعة والعشرين من عمره مكتبة كاملة للمجلدات النادرة. وقد كتب في وصيته أنه يوصي بكتبه لجامعة هارفارد، شريطة أن توضع في مكان لائق.

وفكرت والدته أنه من المناسب أن تتبرع ببناء جناح جديد في «قاعة جور» أو تقيم مبنى صغيرا لكتب ابنها بجوار «قاعة جور». ولكن رجال هارفارد شجعوها على أن تتبرع لبناء مكتبة جديدة يطلق عليها اسم ابنها، فوافقت في شهر يونيو سنة 1912 على بناء المبنى الذي أصبح يعرف باسم «مكتبة هاري إلكنز وايدنر التذكارية». ووضع تصميم المكتبة التي بنيت في سنوات معدودة واحد من أشهر المعماريين الأمريكيين، واكتملت بما جعل منها تحفة معمارية متميزة، سواء بأعمدتها القوطية التي تميز الواجهة، أو السلالم العديدة، أو الممرات، أو القاعات، وأهمها بالطبع قاعة وايدنر التذكارية التي لا تزال تحتفظ بأندر مجموعات الكتب التي كان يملكها.

وأقول لكم الحق. لم أستطع بعد أن عرفت هذه المعلومات، وكثيرا غيرها، سوى أن أدعو بالرحمة لروح هاري وايدنر، ذلك الشاب الذي عشق الكتب، وعشق اقتناء النادر منها، وأوصى بها بعد موته للجامعة التي أحبها، فكان مثالا لهؤلاء الأفراد المتميزين الذين نهضت بجهودهم عظمة الجامعات في العالم. وكان من حسن حظ هارفارد بالطبع أن والدة هاري الثرية لم تكتفِ

بتقديم الكتب التي أوصى بها ابنها، بل قدمت الكثير من المال الذي ساعد على اكتمال المكتبة.

أقبل الربيع

يقترب شهر أبريل من نهايته، وأوشك أن أقول وداعا لفصل الشتاء القاسي الذي قضيته في مدينة كمبردج من ولاية ماساشوستس الأمريكية. قال لي الجميع إنه كان واحدا من أقسى فصول الشتاء التي عرفوها، وأكّد المسئون أنهم لم يشهدوا منذ سنوات بعيدة كل هذا القدر من الجليد والعواصف الثلجية. أنا شخصيا لم أرَ عاصفة ثلجية من قبل إلا في أفلام السينما، وقد عانيت هذا الفصل أكثر من عاصفة، وعرفت معنى الثلوج الوحشية التي تطيح بكل شيء وتفمر كل شيء كالنصال الحادة.

وظللت أسأل أصدقائي متى ينتهي هذا الشتاء اللعين؟! وكانوا يقولون لي: اصبر. فمع نهاية مارس يخف الأمر، ومع أبريل يختفي كل جليد. ولا أذكر من هو ذلك الصديق الأمريكي الذي خدعني وقال لي إن الثالث عشر من أبريل هو النهاية الرسمية لفصل الثلج، ولن ترى نديف الثلوج القاسية بعد ذلك. ورغم كل تأكيداته، فقد رأيت عكس ما توقع، وظللت أعاني المطر الفظيع في فترات استراحة الثلج، خصوصا أن اليوم الأول من شهر أبريل شهد مطرا لم أرَ مثله من قبل في حياتي بهذا القدر من الكثافة والاستمرار.

أذكر أن أصدقائي حذروني في مساء اليوم الأخير من مارس، وقالوا إنك مسافر غدا صباحا إلى فيلادفيا لإلقاء محاضرتك في جامعة بنسلفانيا، فمن الأفضل أن تطلب التاكسي قبل ساعات من موعد الطائرة، وذلك لتضمن وصولك إلى المطار قبل موعد إقلاع الطائرة، وفعلت كما قالوا، واستغرقت الرحلة إلى المطار ثلاث أضعاف الوقت المعتاد بالسيارة بسبب المطر، ومع ذلك فإن السائق الذي كان يرى طريقه بالكاد من وراء مساحات الزجاج لم يكفّ عن المرح والضحك، ولم يتردد في السخرية من تأفّفي، وقال لي: المطر أفضل كثيرا من الثلج لأسباب كثيرة لم يشرح لي واحدة منها، ولم أردّ عليه بشيء فقد كنت قلقا على موعد الطائرة، خائفا من إلغاء الطيران. وعندما وصلنا إلى المطار، كان الكثير من الرحلات قد ألغي، وظلت الرحلة إلى مطار فيلادفيا كما هي لحسن الحظ بسبب أن الأوضاع الجوية أفضل فيها.

في الشتاء الماضي، وفي كل مرة كنت أزور فيها إحدى الولايات الأخرى، أجد الطقس في الولايات التي زرتها أخف وطأة من الطقس في ولاية ماساشوستس. وكنت أشعر بما يشبه الحسد للولايات التي كنت أراها مستمتعة بدفء الشمس وحنو الطبيعة وأعود بعد كل سفرة إلى مطار مدينة بوسطن، وأركب التاكسي إلى منزلي في مدينة كمبردج الملاصقة، وأظل أقارن بين جهامة الطقس الذي يستقبلني وحنو الطقس الذي

تركته، بل إنني أكثر من مرة تذكرت المشاهد التي أعرفها من الصحراء حيث الشمس الساطعة تغمر كل شيء، والحرارة تحيط الإنسان بما يشبه اللهيب. وكانت مثل هذه الذكريات تدفئني معنويا، خصوصا وأنا منكمش تحت حماية أطنان الملابس الشتوية ومسلّح بحذاء ثقيل الوزن لمقاومة الثلج وما هو مثل الثلج!

الحمد لله، اختفى ذلك كله الآن، وذهب فصل الشتاء بقسوته، وأخذت الأرض تستعيد خضرتها، وتصحو البراعم المتعددة الألوان على أغصان الأشجار، وتتثاءب النباتات وهي تنفض عنها ما اختزنته من برودة، مشرئبة بأعناقها إلى الشمس التي بدت حنونة، ناعمة، تبعث الدفء في الأوصال التي أنهكها البرد طويلا. حدث كل ذلك تدريجيا دون أن أنتبه، لكن مع مرور الوقت اكتملت حرارة الشمس، وفرضت الخضرة نفسها على العين، واشتدّت حرارة الشمس الناعمة في الخامس والعشرين من أبريل، فخرجت الفتيات في ملابس الصيف، وتخفّف الشبّان من ملابس الشتاء نهائيا، وظهرت الشورتات المتعددة الأحجام والأشكال، والقمصان الخفيفة، وظهرت السيقان البشرية تعلن عن وجود الفرح الوليد بالربيع.

ونزلت إلى أسفل المنزل لآخذ طريقي إلى الجامعة، فوجدت الساحة التي تحيط بمساكن الجامعة التي أسكن فيها امتلأت بالورود إلى جانب الخضرة، وافترش الطلاب والطالبات الأعشاب يتشمسن ويقرأن في الوقت

نفسه. ومضيت في طريقي إلى الجامعة لا أرى سوى الخضرة التي تفرش كل شيء والورود والأزهار التي أخذت تتفتح كابتسامة الفتيات التي ملأت كل شيء حولي مع الضحكات والانطلاقات العفوية البريئة.

وكما أنعشتني الشمس الدافئة، وأبهجت صدري المشاهد التي شاهدتها، تداعت على ذاكرتي كل ذكريات الربيع والشمس الناعمة. اختفت بالتأكيد كل الذكريات القاسية عن شمس الصحراء العربية في أشهر الصيف، وقد عانيتها وعرفت قسوتها، واختفت كذلك ذكريات الشتاء، أو أعلنت عن رغبتها في الرحيل تحت وطأة الذكريات الجديدة للربيع. ولست أدري، لماذا وسط هذا المكان الأجنبي، وبين كل هؤلاء الذين لا يعرفون العربية، وجدتُ نفسي أدندن بكلمات البحتري عن الربيع الذي يختال ضاحكا من الحسن حتى كاد أن يتكلّما. وكنت أنظر إلى تعدد ألوان الأشجار الذي أخذ يظهر، وتنوع ألوان الزهور والنباتات الوليدة، وأرى حركات العمال وهم يقومون بإصلاح أجزاء النجيل التي أفسدها الجليد، ويحيطون الأشجار بنوع أحمر من التربة المخلوطة ببقايا نباتات مطحونة، وأتطلع إلى الطالبات اللائي يجرين ضاحكات، وأقول لنفسي إنه الربيع، وأعود إلى الدندنة:

أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكا	**من الحسن حتى كاد أن يترنما**
وقد نبّه النيروز في غسق	**أوائل ورد كُنّ بالأمس**

الدجى	نؤما
يفتقـه برد الندى فكـأنـه	يبثّ حديثا كان قبل مكتما

ولم أستطع أن أذكر بقية الأبيات، ولم أجهد ذاكرتي في استحضارها، فقد اكتفيت بالربيع الطلق حولي، وفهمت معنى أن يختال الربيع ضاحكا من الحسن في أوجه الفتيات، وعلى امتداد أفرع الأشجار وأوراقها، ومع وجنات الزهور والورود التي تشرق بابتسامة الحسن الذي يتكلم. ولم أهتم كثيرا بثقل كلمة النيروز فقد شدّني حديث الربيع للورود التي كانت نائمة، وبدا لي هذا الحديث يتساقط على أوراقها الناعسة كقطرات الطلّ التي تغتسل بها الورود من نومها، ومررتُ دون اهتمام على البَرَد لأنه يذكّرني بقسوة الثلج التي أريد أن أنساها، وحلمت بهذا الحديث الذي كان مكتوما مقموعا في الشتاء، وينطلق الآن مع ضحكات الأزهار في كل مكان.

من أسف أننا في بلادنا لا نعرف فرحة الربيع كما يعرفها الجميع هنا، هذه الاحتفالية الجميلة التي تتجاوب فيها الطبيعة مع الإنسان، ويتجاوب فيها الإنسان مع جنائن الطبيعة التي صنعها على عينه، هذه الاحتفالية الجميلة لا نعرفها لأن إنساننا مطحون مسحوق تحت وطأة قيود ومشاكل كثيرة. والطبيعة في بعض أقطارنا لا تجود علينا بهذا الربيع الذي يختال ضاحكا، ويدفعنا إلى الفرحة والبهجة، الربيع في مصر

مثلا مقرون بالأتربة التي تهبّ من المقطم، والفصل الجميل في القاهرة هو فصل الخريف، لا الربيع. ولا أعرف منذ صغري عن الربيع إلا اقترانه بشمّ النسيم، وشم النسيم باقترانه بالبصل والفسيخ والبيض الملوّن، ولا أدري لماذا تكون احتفالياتنا دائما بالتهام الأكل؟! مؤكد أن هناك أماكن كثيرة في العالم العربي تعرف الطبيعة الجميلة، ومصر كذلك تعرف الطبيعة الخلّابة في بعض مناطقها، ولكن من الذي يستمتع بذلك كله؟!

أوقفت تدفق خواطري التأملية، وقلت لنفسي لا داعي لأفعال المساءلة النقضية في هذا اليوم البهيج، وردّد بين نفسك كلمات الربيع الذي ينشر أرديته الزاهية على كل شيء في الكون، وامرح في داخلك، ودع البهجة تسكن الأعماق، يحملها إليك شذى النبات وضحكات الطالبات والعيون الباسمة للأصدقاء، وقل: مرحبا للربيع الذي أقبل أخيرا بعد شوق طويل، فالمؤكد أن الحسن لا يكتمل جماله إلا بمعاناة أضداده، وقد عانينا من نقيض الربيع -الشتاء القاسي- طويلا.

ولذلك فجانب كبير من فرحتنا بمقدم الربيع هو فرحتنا بالخلاص من معاطف الشتاء الثقيلة، ومن الملابس الصوفية الداخلية المزعجة، ومن ثقل الحذاء الذي يشبه الدبابة الصغيرة، ومن عتمة الجو وغياب الضوء، ومن لسعات نديف الثلج وهو يقرص اللحم ويعضّ العظم، انتهى ذلك كله، ولم يعد سوى الربيع يختال ضاحكا!

أفلام هارفارد

أظن أنني عرفت جامعة هارفارد قبل أن أراها، أو أعمل بها، من الأفلام والمسلسلات التلفزيونية الأمريكية. طبعا، كنت أسمع عن أهمية هذه الجامعة من الأكاديميين الذين يتحدثون عن أهم الجامعات في العالم، أو عن هؤلاء الذين يتحدثون عن جامعات القمة العشر في الولايات المتحدة، ويضعون جامعة هارفارد على رأسها، وأحيانا يضعون جامعة الإم. آي. تي (اختصار: معهد ماساشوستس للتكنولوچيا) على القمة.

وكان ذلك قبل أن أشاهد بعيني، وأسمع بأذني التنابذ بين الجامعتين المتجاورتين في المكان، واللتين تطلان على شاطئ نهر شارلز الذي يفصل ما بين مدينة بوسطن ومدينة كمبردج كما يفصل نهر النيل ما بين الجيزة والمنيل. ولازلت إلى اليوم أسمع سخرية أبناء هارفارد من الإم. أى. تي والسخرية المقابلة، والتي يمكن تلخيصها في أن هارفارد تكتب أدبا، والإم. أى. تي تنتج علما وتكنولوچيا.

المهم، إنني قبل أن أسمع ذلك كله، وقبل أن أغادر جامعة القاهرة، كنت أسمع اسم هارفارد بوصفها أعظم جامعة أمريكية. وقد أكدت الأفلام التي رأيتها والتمثيليات التي شاهدتها هذه الصور، بل أضيف إلى ذلك أنني شاهدت بعض مباني جامعة هارفارد على

الشاشة الكبيرة والشاشة الصغيرة، قبل أن أراها فعليا. وأذكر أنني شاهدت مرة أخرى بعض هذه الأفلام، بواسطة الفيديو، للمقارنة بين انطباعاتي الأولى وانطباعاتي اللاحقة. وأذكر كذلك أنني كنت أتوقف عند بعض الشوارع، والمباني، وأقول لنفسي: لقد رأيت ذلك من قبل. هكذا، عرفت المبنى الأساسي لكلية الحقوق (أو مدرسة القانون) التي هي أشهر كلية في العالم كله، ويتقاتل الآلاف للالتحاق بها، وتتنافس الشركات العالمية لتعيين خريجيها، وشاهدت مكتبة وايدنر الشهيرة. ورأت عيناي على الشاشة «هارفارد يارد» ساحة هارفارد، وذلك بالإضافة إلى الشوارع الصغيرة الهادئة.

وكان الفيلم الأول الذي لابد أن يذكره الكثيرون، من أبناء جيلي على الأقل فيلم Love Story أو «قصة حب» الذي تم تصويره سنة 1969، وقام ببطولته رايان أونيل وإلي ماكجرو. وكان الفيلم عن قصة حب بين ابن أحد العائلات الثرية في ولاية ماساشوستس التي تقع فيها جامعة هارفارد التي كان يدرس الشاب فيها القانون، وفتاة جميلة فقيرة في جامعة رادكليف براون التي كانت في البداية جامعة مستقلة مخصصة للطالبات، ولكنها أصبحت فيما بعد إحدى كليات جامعة هارفارد، خصوصا بعد حركة تمرد المرأة في جامعة هارفارد، ضمن موجات الستينيات التحررية، ومطالبتها بالمساواة مع الرجل.

وتمضي قصة الحب الجميلة التي شدّت الملايين، ويتزوج الفتى حبيبته التي تدفعه إلى الأمام، ولا يهتم بأسرته الثرية، ويتخرج بعد أن كافح كفاحا مجيدا ليكون جديرا بحبيبته، ولكنه يكتشف أن حبيبته تصاب بمرض خطير، لا نجاة منه، وتنتهي قصة الحب الجميلة بموت الفتاة التي انتزعت حب الملايين.

وقد كنت أتصور أن هذه قصة خيالية، ولكنني فوجئت، وأنا أقرأ أحد الكتب على جامعة هارڤارد، أنها عن قصة حقيقية الأصل، وأن الممثل رايان أونيل الذي كان يقوم بتمثيل شخصية أوليڤر باريت الرابع لاعب الهوكي كريم الأصل لم يكن يؤدي دورا خياليا تماما، وأن حبيبته چيني كافيليري، ذات الأصل الإيطالي، الطالبة في كلية رادكليف للبنات لم تكن خيالا مائة في المائة. وعرفت أن الفيلم مأخوذ عن رواية أصدرها إريك سيجال ابن هارڤارد الذي حصل على الدكتوراه سنة 1958، ونشر كتابه سنة 1965، فأصبح الكتاب من أشهر الروايات، بل أشهر روايات ذلك العام، وقد قيل إن عدد ما طبع من رواية إريك سيجال كان أضخم عدد في تاريخ الطباعة. وقد وصفت مجلة هارڤارد «هارڤارد بولتن» ذلك الفيلم بأنه فرار بهيج من قسوة الحاضر، وأنه خلق عالما خياليا، كانت فيه أيام الكلية سعيدة، والنساء نقيات ومخلصات، والرجال أقوى وأكثر حساسية، وأمريكا نفسها كانت بلدا لا تعكره مشاكل التوترات الاجتماعية.

وقد دفعتني هذه المعلومات إلى مشاهدة الفيلم مرة أخرى، ومحاولة تحديد أماكن تصويره التي لا تزال قائمة إلى اليوم، وأهم من ذلك التفكير في الجهد المضني الذي يبذله الطلاب للحصول على شهاداتهم من كليات هارفارد، أو تسديد نفقات الدراسة فيها بوصفها أغلى جامعة في العالم. وأذكر أن هذا الجهد واضح في فيلم «الشركة» الذي قام بتمثيله توم كروز. وهو عن قصة طالب متفوق في كلية الحقوق، تغريه إحدى الشركات بالعمل فيها، عارضة مرتبا ضخما وسكنا رائعا، ويذهب إلى الشركة مع الفتاة التي يحبها والتي كانت تعمل مدرّسة أطفال. وهناك، يفاجأ بقيام الشركة بأعمال إجرامية، فيأخذ على عاتقه كشف فسادها، وبعد مغامرات توم كروز التي يحبها شباب هذه الأيام، ينجح الشاب في كشف جرائم الشركة، وينجو برقبته، ليعود هو وحبيبته إلى العالم النقي الذي بدأ منه.

ولكن ليس كل الأفلام تصوّر هارفارد على هذا النحو الإيجابي، فهناك روايات تحوّلت إلى أفلام، تظهر الوجه المقابل. أعني الوجه الإنساني الذي يمكن أن يختفي نتيجة الحرص على التفوق، أو تقليد الأساتذة البارزين الذين أضاعوا إنسانيتهم في رحلة تفوقهم. ومن هذه الأفلام فيلم بعنوان: «مطاردة الورقة» والورقة هنا هي شهادة القانون التي تقدمها كلية الحقوق، والتي يبذل أحد الشبان جهده الهائل للحصول عليها، في الوقت نفسه الذي كان يبذل جهدا موازيا لإرضاء أستاذه، ولكن

حظه يجعله يتعرف على ابنة هذا الأستاذ المتمردة على أبيها، والرافضة لاحتقاره الجانب الإنساني في الإنسان. وتُعدي الابنة المتمردة حبيبها الذي سرعان ما يكتشف أن جوهره الإنساني أهم من ورقة التخرج التي يحصل عليها، وأن هذه الورقة لا معنى لها لو تخلى عن قلبه ومشاعره وإنسانيته التي ينبغي أن تكون لها المكانة الأولى في داخل الإنسان.

وأذكر الآن فيلما ثالثا عن كلية الحقوق أيضا، في هارڤارد وهو عن شاب يصل إلى النتيجة نفسها، نتيجة تعرفه على أحد المتشردين الذي يتخذ من أحد بدرومات الجامعة مستقرا له. ويدخل الشاب مع هذا المتمرد المصاب بمرض خطير في سلسلة من المغامرات التي تنتهي به إلى النضج النفسي، واكتشاف أنه لا قيمة للتفوق العلمي بإنكار إنسانية الإنسان، أو تجاهل المشاعر الحقيقية التي يتميز بها الإنسان عن الآلة.

وقد عرفت من الكتب التي تتحدث عن تاريخ جامعة هارڤارد أن هوليوود لم تستغرق وقتا طويلا في اكتشاف أهمية هارڤارد للسينما، فكان أول فيلم بعنوان: «براون هارڤارد» سنة 1917، وهو فيلم مأخوذ عن مسرحية بالعنوان نفسه صدرت سنة 1909. وقد أعيد تمثيل هذا الفيلم سنة 1926 لإبراز الصراع على التفوق الرياضي والعلمي، وأبرزت المشاهد ملاعب كرة قدم هارڤارد، وميدان هارڤارد، ومكتبة وايدنر، والقاعة التذكارية، وغير ذلك من الأماكن التي تكررت بعد ذلك

في الأفلام، ومنها فيلم «الاستمرار مع ليزي» سنة 1922 وفيلم «الراچا الشاب» في السنة نفسها، وقام بتمثيله رودلف ڤالنتينو الذي كان شهيرا في ذلك الوقت، وقام في الفيلم بدور أمير هندي يأتي إلى هارڤارد للدراسة.

وقد استمرت أفلام هارڤارد بعد ذلك، مثل فيلم «بعد ذلك إلى الأبد» سنة 1926، وفيلم «من أجل مايك»، وفيلم فرانك كابرا «طيران كولومبيا» سنة 1929، وذلك في السلسلة التي لم تتوقف إلى اليوم، والتي تظهر جامعة هارڤارد وكلياتها بوصفها رمزا للتنافس العلمي والصراع على المناصب والعمل من أجل المستقبل في الوقت نفسه. ولذلك لم أدهش حين عرفت أنهم يحتفظون في بعض متاحف هارڤارد بمجموعة كاملة من الأفلام والمسلسلات التلفزيونية التي تعرضت للحياة فيها. وقلت لنفسي حين عرفت ذلك: أرجو أن تفعل جامعة القاهرة شيئا من ذلك، خصوصا أن الأفلام التي تم تصويرها في رحابة هذه الجامعة كثيرة إلى درجة أصبحت أراها لافتة.

هاملت في بوسطن

بيني وبين شخصية هاملت التي ابتدعها شكسبير محبة قديمة حتى من قبل أن أقرأ المسرحية التي تحمل اسمه، ربما لأن شخصية هاملت بدت لي منطوية على جانب رومانتيكي عندما تعرّفت عليها قراءة للمرة الأولى في إحدى الترجمات العربية التي لا أذكر صاحبها الآن، وكنت في حداثة عمري مولعا بالرومانتيكية في كل شيء فجذبتني شخصية هاملت ذلك المتردّد الأبدي، الممزّق بين رغبة المعرفة وإرادة الفعل.

وأذكر أنني منذ ذلك العهد البعيد وأنا مولع بتجليات هاملت في المسرح والسينما والترجمات العربية العديدة. ومنذ أن طالعت النص الإنجليزي للمسرحية، وأنا أحفظ بعض المشاهد الفردية التي يؤديها هاملت، خصوصا المونولوج الشهير «أكون أو لا أكون».

ولذلك لم أترك فيلما مأخوذا عن مسرحية هاملت إلا وشاهدته، ابتداء من الفيلم الذي قام ببطولته الممثل العالمي لورنس أوليڤييه وانتهاء بالفيلم الذي قام ببطولته الممثل المعاصر ميل جيبسون، وقد أخبرني بعض أصدقائي من أساتذة جامعة هارڤارد أن الممثل البريطاني ريتشارد برانا قام ببطولة فيلم أخير عن هاملت، ولكني للأسف لم أشاهد هذا الفيلم الأخير، وإن كنت سأسعى جاهدا لمشاهدته قبل عودتي إلى القاهرة.

وما دمت قد تطرقت إلى سيرة الأفلام المأخوذة عن مسرحية هاملت، فلا يمكن أن أنسى الإشارة إلى الفيلم الروسي المأخوذ عن هاملت، الذي جمع بين إخراجه المتميز وموسيقاه الرائعة وتمثيله الخلاب، خصوصا الممثل الروسي العبقري الذي قام بأداء شخصية هاملت، فضلا عن الممثلة التي قامت بدور أوفيليا، فأبدعت في تصوير البراءة والرقة، ثم الجنون الذي أفضى إلى انتحارها بعد ذلك. ولا أنسى استمتاعي بإيقاعات الجمل الشعرية التي كان ينطقها الممثلون في الفيلم الروسي، ولا عجب فقد اعتمد الفيلم على الترجمة الشعرية التي قام بها الشاعر والروائي الروسي بوريس باسترناك (مؤلف القصة المشهورة: «دكتور زيفاجو» والحائز على جائزة نوبل) ضمن ترجماته لروائع التراچيديات الشكسبيرية. ولذلك، كنا نستمتع بتذوق الإيقاع الشعري للغة الروسية على ألسنة الممثلين رغم عدم معرفتنا بها.

وقد كانت فرحتي كبيرة عندما استمعت إلى المذيع الخاص بالفترة الصباحية لإذاعة مدينة بوسطن يعلن عن قدوم «المسرح الملكي الوطني البريطاني» إلى مدينة بوسطن وتقديمه مسرحية هاملت الشهيرة. وسرعان ما تجمعت الأخبار عن العرض الجديد الذي سيعرض على مسرح «والبور». وهو واحد من أهم مسارح مدينة بوسطن. واتفقت مع مجموعة من الأصدقاء على الذهاب سويا، واستطعنا أن نوفر لأنفسنا أماكن بشق الأنفس، فقد كان الإقبال شديدا على

مشاهدة رائعة شكسبير. وتزايد شوقي إلى الذهاب عندما عرفت أن الذي سيقوم بأداء دور هاملت هو الممثل المسرحي البريطاني الشهير سيمون رسل بيل Simon Russell Beale، وهو ممثل يتحدث الكثيرون عن تميزه.

وذهبنا إلى المسرحية، وجلسنا في صالة المسرح الفخم، وبدأ الإظلام، وتلى علينا الصوت الداخلي تعليمات احترام المسرح، وابتداء العرض. ودخلت في دوامة السحر الخاص بالمسرح عامة، وبالنص الشكسبيري خاصة، وهاملت الذي لا تزال له جاذبيته الخاصة في نفسي. ولن أتردد في القول بأنني استمتعت بالعرض. ولكنني لم أتعاطف كثيرا مع المستر سيمون (أو سايمون بيل) في أداء دور هاملت، فقد كان تكوينه الجسدي عاملا غير مساعد على تحقيق الإيهام، فهو ممثل قصير نوعا، ممتلئ الجسم، وشخصية هاملت بطبيعتها الجسدية لابد أن تكون انعكاسا للطبيعة النفسية والعقلية، فهو لابد أن يكون أميل إلى النحافة، عصبي أو عصابي، انفعالي، يعكس مظهره الجسدي توهجه وتوتره الداخليين.

والمستر بيل رغم جودة أدائه بوجه عام لم يستطع أن يرتفع إلى مصاف العباقرة الذين شاهدتهم يؤدون شخصية هاملت من قبل. أما دور أوفيليا التي كانت تؤديه الممثلة البريطانية كاثرين برادشو فكانت مروعة، صوتها حاد، خشنة الطبع، لا تتناسب مع شخصية

أوفيليا بالغة الرقة. ولكن الحق أن هذه الممثلة البريطانية كانت أفضل في أداء حالات الجنون!

وقد أعجبني أداء بيتر ماكنري الذي قام بدور عم هاملت الذي قتل أخاه، والممثلة سارا كيستلمان التي قامت بدور جرترود والدة هاملت، وكان جيدا في أدائه الممثل بيتر بليث في دور بولونيوس والد أوفيليا وأخيها لايرتيس. وبقية الممثلين لا بأس بهم، خصوصا بيتر بليث الذي قام بدور حفّار القبور، بعد أن أدى دور بولونيوس في القسم الأول من المسرحية.

وربما كان إعجابي بالإخراج والتصميم والإضاءة والموسيقى أكبر بكثير من إعجابي بالتمثيل، وقد قلته لأصدقائي بعد أن خرجنا من مشاهدة المسرحية إن البطل الحقيقي في العرض هو المخرج ومعه المصمم والمسؤول عن الإضاءة والمؤلف الموسيقي، أما المخرج فقد قدّم مسرحية متميزة. وأهم ما فيها في تقديري هو الحرص على إبقاء النص الشكسبيري الأصلي كما هو دون حذف في جلّ المواضع، ولذلك كان هذا العرض أقرب العروض إلى نص شكسبير الأصلي.

وقد حاول المخرج أن يبرز المسرحية من خلال رؤية مسيحية على نحو واضح، فقد جعل قتل الأب بمثابة خطيئة لا يمكن الخلاص منها إلا بعد العقاب والتطهر من الإثم على السوء، ولذلك ظهر شبح الأب في بداية المسرحية أقرب إلى الروح المعذب الذي يدعو إلى الانتقام من مرتكبي خطيئة قتله، سواء الأخ الذي اغتال

أخاه مكرّرا جريمة قابيل والزوجة التي ارتكبت إثما له علاقة بسفاح المحارم.

والرموز المسيحية كانت بارزة، حرص المخرج على إبرازها، ابتداء من الصليب الذي أصبح جانبا من ديكور المسرح، مرورا بالصلوات وانتهاء بالتراتيل والأناشيد المسيحية الطابع، وهي التراتيل التي صنعت الإطار النغمي ما بين البداية والنهاية، كي تلفت انتباهنا إلى كل العلامات المسيحية الموجودة في الداخل، ومنها الأغنية الدينية التي كان يؤديها حفّار القبور، والتي لم أفهمها إلا بعون من صديقي الأمريكي الكاثوليكي الذي ترجمها لي بإنجليزية مفهومة أثناء العرض (في همس خفيض الصوت في أذني حتى لا نعكّر على الجالسين حولنا).

والحق أن المخرج چون كيرد John Caird برع في أداء تفسيره المسيحي الذي جعله لا يهتم بالأبعاد الأسطورية لظهور الشبح، وهي الأبعاد التي كان يتم التركيز عليها في أنواع الإخراج السابقة. وكذلك أدى تركيزه على التفسير المسيحي إلى أن يغفل التركيز الفرويدي على قبلة هاملت الشهيرة لأمه، ويجعل القبلة تختفي داخل الجو العاطفي الذي لم يحمل علامات عقدة أوديب إذ لم يكن من المطلوب التركيز عليها في الإخراج.

وقد ضبطت نفسي أستخدم معلوماتي النقدية عن تفسيرات الهالة، وما قرأته عند الدارسين المختلفين،

ابتداء من محاضرات برادلي الشهيرة عن التراچيديا الشكسبيرية، مرورا بكتابات إرنست جونز ومدارس التحليل النفسي، وليس انتهاء بالتفكيكيين الذين توقفوا عند أعمال شكسبير. ومن الواضح أن المخرج كان على معرفة بهذا التراث، لكن الأكثر دلالة أنه تولّى التركيز على الرؤية المسيحية الخاصة بها، ومن ثم جعل من عرض شكسبير عرضا أخلاقيا دينيا عن الخطيئة التي يتم التكفير عنها والتطهر منها بواسطة الموت. ولذلك فإن مشاهد الجثث التي تحتشد بها مسرحية هاملت أخذت طابع التكفير عن خطيئة أسهمت فيها كل الأطراف التي كان لابد من عقابها بالموت في نوع من العدالة الشعرية الدينية.

وكانت البداية موت بولونيوس على يدي هاملت الذي حسب إياه عمه، ثم أوفيليا التي انتحرت حزنا على وفاة الأب وعلى تنكّر الحبيب هاملت، ثم النهاية الفاجعة التي تتابع فيها موت الأم المخطئة والعم الآثم ولايرتيس صديق هاملت القديم الذي كان ضحية تآمر العم، وهاملت الذي كان لابد أن يموت بدوره، ربما عقابا له على تردده الطويل، وربما لاستكمال معنى الخلاص في تفسير المخرج چون كيرد.

ولم تنغلق الستارة مع مشهد الموت الأخير على الجثث الأربع للعم والأم وهاملت الابن ولايرتيس، مقابل بقاء هوراشيو الصديق المخلص حيا (وقام بأداء دوره الممثل سيمون -أو سايمون- داي)، وإنما بخروج

هوراشيو من فتحة مستطيلة ينبثق منها ضوء ساطع، كأنها طريق الخلاص، وينهض الموتى ليقفوا صفا واحدا في اتجاه مصدر الضوء الذي يشير إلى طريق الأمل بعد التطهر من الإثم، ويتحول المشهد، لينغلق الستار على ما يشبه القاعة المظلمة المحاطة بما يشبه التوابيت المضيئة التي بدت كأنها شواهد على الماضي الذي لا يزال موصولا بالحاضر على نحو أو آخر.

وقد وصلت إلينا رؤية المخرج على نحو ناجح بواسطة الجهد الذي قام به تيم هيتلي مصمم الديكور البسيط والتجريدي والمعبر في الوقت نفسه عن الرؤية التفسيرية، وساعده على ذلك بول بانيت مصمم الإضاءة الذي أدرك رؤية مصمم الديكور، خصوصا في الثريات المعلّقة على مستويات متعددة مع مصدر الإضاءة المغاير الذي يتناسب وعناصر الديكور المعتم على امتداد النص، والذي لم يتخفف من قتامته إلا في لحظات نادرة.

أما موسيقى چون كاميرون فكانت عملا رائعا، لم تسرق الآذان من العرض، ولم تنفصل عنه، بل تناغمت معه، صانعة خلفية نغمية للإيقاع المسرحي الذي شمل كل شيء، والواقع أن المخرج لم يترك خبرة فنية إلا واستعان بها، ابتداء من كريستوفر شت مهندس الصوت، أو مصممه، مرورا بالخبير تيري كنج مخرج مشاهد المبارزة، وليس انتهاء بالخبير الموسيقي جوناثان كوبر المخرج الموسيقي للعرض مع كين

أوكستوبي الذي قام بالعزف الموسيقي الحي أثناء العرض.

لكن ماذا عن هذه الرؤية المسيحية للمخرج؟ هل أغنت النص القديم؟ هل كانت أقرب إليه من غيرها؟ كانت مثل هذه الأسئلة تدور على ألسنة بعضنا بعد أن تركنا قاعة المسرح إلى مطعم قريب منه، لعله الوحيد في مدينة بوسطن الذي يفتح أبوابه إلى الواحدة والنصف بعد منتصف الليل، وظللنا نتناقش فيه حول المسرحية التي انتهى عرضها في الحادية عشرة مساء، وفتحت لنا أبوابا ممتعة من خلال الفن، ذلك رغم كل التحفظات التي لا أزال منطويا عليها فيما يتصل بسلبية التركيز على جانب واحد من التفسير.

لكني قلت لأصدقائي ولنفسي -في النهاية- لا بأس من التركيز على تفسير واحد، ما ظلّ هذا التفسير أصيلا، وما زال علامة على تميز مخرج قادر على أن يفتح لنا أبوابا، وهي أبواب لابد من استكمالها بالحديث عن عرض المخرج بيتر بروك لنص هاملت نفسه، وهو العرض الموجود حاليا في نيويورك.

أدبنا في أمريكا

هذه هي المرة الثالثة التي أقوم فيها بتدريس الأدب العربي في الولايات المتحدة الأمريكية. كانت المرة الأولى في جامعة وسكنسون في مدينة ماديسون سنة 1977، وكان تدريس الأدب العربي واللغة العربية جزءا من مقررات قسم اللغات والآداب الإفريقية بجامعة وسكنسن، خصوصا بعد أن قامت بعض العناصر الصهيونية بطرد الأدب العربي من قسم اللغات السامية، فتقبله الأساتذة الذين يتولون مهمة تدريس الآداب واللغات الإفريقية بالترحاب في قسمهم. ولم تمنعهم من ذلك مفارقة أن الأدب العربي لا يقع كله جغرافيا في قارة إفريقيا. وكانت المرة الثانية بعد سنوات عديدة، في جامعة هارڤارد سنة 1995، وهي الجامعة التي أصرّت على دعوتي للمرة الثانية هذا العام لأتولى تدريس الأدب العربي فيها سنة 2001.

هذه المرات الثلاث على أي حال أتاحت لي تكوين بعض الملاحظات عن أدبنا العربي في الجامعات الأمريكية على وجه التحديد، خصوصا في علاقته بالطلاب الذين لا يعرفون العربية أو يتقنونها لدرجة قراءة الأعمال الأدبية بها، ولذلك فهناك ما يعرف في المقررات الدراسية باسم «الأدب العربي المترجم» والذي يتمثل في الأعمال الأدبية المترجمة إلى اللغة الإنجليزية، وهو مقرر أصبح شائعا في أغلب الجامعات

الأمريكية، مع تدريس اللغة العربية نفسها، نتيجة متغيرات كثيرة.

وقد لاحظتُ في زيارتي التدريسية الأولى قلة المحصول المترجم إلى اللغة الإنجليزية، وهو محصول كان يتمثل في أعمال قليلة من الأدب العربي الحديث، خصوصا الرواية،حيث بعض أعمال نجيب محفوظ (ولم يكن من بينها الثلاثية كاملة) ويوسف إدريس والطيب صالح وكاتب ياسين وغيرهم من جيل الخمسينيات، إلى جانب بعض أعمال جيل الرواد الذي يضم طه حسين وتوفيق الحكيم، ولم تكن أغلب أعمال نجيب محفوظ، أو يوسف إدريس فضلا عن كتاب الستينيات، قد ترجمت في ذلك الوقت، فمثلا «الزيني بركات» لجمال الغيطاني لم تترجم إلا في سنة 1988 إلى الإنجليزية، بعد أن كانت قد ترجمت إلى الفرنسية سنة 1985، وقس على جمال الغيطاني غيره من أبناء جيله أو الجيل اللاحق أو السابق.

ولذلك، كانت النصوص المتوفرة من الروايات العربية باللغة الإنجليزية محدودة إلى حد كبير، وطبعا كانت أقل في الشعر وفي المسر ح، وكان الاهتمام الغالب بالأدب العربي القديم. وأتصور أن ذلك كان السبب في أن دراسات الأدب العربي المتأثرة بالبنيوية التي كانت صاعدة في السبعينيات الأمريكية كانت عن الأدب العربي القديم بالدرجة الأولى، وكانت بمثابة تطور طبيعي لحركة الاهتمام الأدبي بالنصوص العربية

القديمة، وهي الحركة التي كانت كتابات جرونباوم نقطة دفع أساسية لها.

وأذكر أنني أثناء إقامتي وتدريسي، في جامعة وسكنسون، اكتشفت مركز جامعة ميتشجان للميكروفيلم، وهو المركز الذي كان يحتفظ بنسخ من كل الرسائل الجامعية في الولايات المتحدة. وبواسطة هذا المكتب، قرأت أطروحة الجنرال بيليد الإسرائيلي عن نجيب محفوظ، وكانت بعنوان: «الدين موطن»، وذلك في الوقت الذي عرفت فيه ما كتبه ساسون صوميخ عن أعمال نجيب محفوظ ويوسف إدريس. وأذكر أنني أخذت في جمع ما كتب في إسرائيل عن الأدب العربي، خلال زيارة لثلاثة أسابيع في واشنطن حيث مكتبة الكونجرس، ولكنني توقفت عن إكمال المحاولة نتيجة مبادرة السلام التي قام بها الرئيس السادات الذي زار إسرائيل في ذلك الوقت.

وعندما عدت إلى الولايات المتحدة المرة الثانية، زائرا لجامعة هارڤارد، لاحظت ضآلة الاهتمام بالأدب العربي الحديث في هذه الجامعة التي بدت كما لو كانت لم تسمع بأحد من الكتّاب العرب المعاصرين، والتي بدت في الوقت نفسه -خصوصا في دائرة الاهتمام بالدراسات العربية- غير مهتمة بالتطورات الجديدة في النقد الأدبي. وكان ذلك نتيجة تقاليد الدراسة المحافظة في جامعة هارڤارد التي اهتم أساتذتها باللغة العربية وآدابها كجزء من اهتمامهم بالآداب السامية، وفي

موازاة دراساتهم الكتاب المقدس. ولذلك كان التركيز على الأدب العربي القديم، والدراسات الفيلولوجية على الطريقة الألمانية.

ورغم أن الاهتمام بالأدب العربي الحديث كان قد بدأ يغلب على الكثير من الجامعات الأمريكية، نتيجة حرب 1967، وأهمية النفط العربي، وبروز المشكلات العربية المعاصرة، وتزايد عدد أبناء الجالية العربية، والسمعة الموجبة التي احتلّها الأدب العربي بعد حصول نجيب محفوظ على جائزة نوبل سنة 1988، أقول رغم ذلك كله، كان الاهتمام بالأدب العربي الحديث المعاصر ضئيلا في جامعة هارڤارد. وقد أحدث تدريسي لهذا الأدب دوامة جديدة من الاهتمام ، استجابت لها الجامعة بتوسيع الميزانية، وتوظيف بعض الدارسين لتدريس هذا الأدب الحديث والمعاصر على وجه التحديد.

ولا أزال أذكر الدهشة التي كانت مرتبطة بالاستجابات الموجبة لأعمال سليمان فياض والغيطاني وعبد الحكيم قاسم وغيرهم من كتّاب الستينيات الذين اهتممتُ بتقديمهم من العالم العربي كله. وقد دفعت صديقي بيل جرانارا إلى ترجمة رواية «الزلزال» للكاتب الجزائري الطاهر وطّار. وصدرت الترجمة الإنجليزية مع مقدمة لي منذ ثلاثة أعوام تقريبا. ويعمل بيل جرانارا حاليا في ترجمة «غرناطة» رضوى عاشور. وهو مثال على غيره من شباب الأكاديميين المهتمين بالدراسات

العربية في الولايات المتحدة، وهم الأكاديميون الذي أخذوا يميلون إلى ترجمة الأدب العربي الحديث بعد أن أصبح له سوق خاصة به، وبعد أن تعرف هؤلاء الأكاديميون على كتابات العديد من الكتاب العرب.

وقد أخذ الاهتمام يجاوز جيلي وجيل نجيب محفوظ ويوسف إدريس والطيب صالح وجبرا إبراهيم جبرا إلى صنع الله إبراهيم وعبد الحكيم قاسم وزيد مطيع دماج وعبد الرحمن منيف، كما انتقل الاهتمام إلى أدب المرأة فترجمت أعمال غادة السمان وحنان الشيخ و هدى بركات وسلوى بكر، وتمضي القائمة لتشمل ميرال الطحاوي ومي التلمساني. وترجمة روجر آلن لرواية «دنيا زاد» للكاتبة مي التلمساني هي إحدى الترجمات الموجودة في القائمة المختصرة حاليا لأفضل الأعمال المترجمة.

ولذلك لم أدهش هذه المرة، وأنا أراجع فهارس مكتبة وايدنر في هارفارد، لمعرفة المتاح من الأدب العربي المترجم، فقد وجدت القائمة كبيرة بالفعل، وتضم العديد من الأجيال المتتابعة أو المتصارعة، وتشمل الرواية والمسرح ومجموعات القصة القصيرة، وبشكل يغطي الأقطار العربية على نحو لافت للانتباه. وقد ظهرت دور نشر متخصصة في الترجمة عن الأدب العربي، مثل دار نشر «القارات الثلاثة»، كما ظهر ناشرون جدد لترجمة النتاج المترجم، مثل دار «الساقي» في لندن، وأخذت دور النشر تظهر اهتمامها

وتصدر سلاسل خاصة كما فعلت دار نشر «هاينمان»، كما أخذت الجامعات تتنافس في نشر الترجمات عن العربية، وعلى رأس القائمة إلى الآن جامعة سيراكيوز.

ولا شك أن شباب الدارسين والدارسات الأمريكان الذين يذهبون إلى الأقطار العربية لممارسة اللغة العربية أصبح لهم دور مهم في عملية الترجمة. أنا شخصيا سعدت عندما وجدت أحد الطلاب الذين قمت بالتدريس لهم في إحدى السنوات في الجامعة الأمريكية بالقاهرة قد نهض بمهمة ترجمة رواية «أصوات» لسليمان فياض التي كانت ضمن المقرر الدراسي في تلك السنة. وكانت الأصوات الجديدة للكاتبات الشابات (ولا أقول «كتابة البنات» كما شاع في القاهرة) ذات أثر إيجابي طيب بعد ترجمة أصواتهم إلى اللغة الإنجليزية.

وكان من نتيجة ذلك أنني لم أجد صعوبة في اختيار نماذج عربية من الرواية المعاصرة لأناقش مع طلاب وطالبات الدراسات العليا في جامعة هارفارد كيفيات تعبير الرواية العربية عن أشكال متعددة من القمع السياسي والديني والاجتماعي والأدبي... إلخ. وكانت النماذج الموجودة أمامي في المكتبة كافية لأن أختار خمسة عشر عملا روائيا على امتداد الأقطار العربية، مترجمة كلها إلى اللغة الإنجليزية، وأقوم بتدريسها لطلاب الأدب المقارن الذين لا يعرفون اللغة العربية.

سوق الترجمة

كان أمرا طبيعيا، نتيجة تدريسي الأدب العربي بلغة إنجليزية، أن أراجع الترجمات الإنجليزية المتاحة للأعمال الروائية المعاصرة في مكتبة هارفارد. ولحسن الحظ، وجدتُ عددا كبيرا من هذه الترجمات، الأمر الذي أتاح لي حرية الاختيار، وفرصة المقارنة بين مستوى هذه الترجمات. وبقدر ما لاحظتُ أن الرواية المصرية تأخذ النصيب الأكبر من حركة الترجمة، وذلك لتعدد موضوعاتها وتنوع اهتماماتها وتباين أجيال واتجاهات كتّابها وكاتباتها، فضلا عن تفوقها العددي على غيرها من روايات هذا القطر العربي أو ذاك، فقد لاحظت أن حركة الترجمة إلى الإنجليزية لم تفلت الأقطار العربية التي يجب ترجمة أعمالها، وسعت في حدود الإمكانات المتاحة للمترجمين والمترجمات إلى تغطية أقطار الأدب العربي كله. وما كان ذلك يمكن أن يتم إلا لمجموعة من العوامل التي أدت إلى تنشيط سوق الترجمة من العربية إلى الإنجليزية.

وتشمل هذه العوامل ما حظي به الأدب العربي بوجه عام، والرواية العربية بوجه خاص، من سمعة جيدة نتيجة حصول نجيب محفوظ على جائزة نوبل. صحيح أن سمعة الأدب العربي أو الرواية العربية لا تضارع سمعة الأدب الياباني أو مكانة رواية أمريكا اللاتينية أو حتى روايات إفريقيا السوداء، ولكن مكانة الأدب العربي

أخذت في التصاعد، وأصبح بإمكان المرء أن يعثر على روايات عربية لكتّاب وكاتبات في المكتبات التي تبيع الروايات الحديثة، وأصبح من المألوف أن ترى اسم حنان الشيخ إلى جانب اسم إليزابيث أليندي، واسم عبد الرحمن منيف غير بعيد عن اسم كادارا، واسم نجيب محفوظ قريبا من اسم كالفينو أو كونديرا. ولا ينفصل هذا العامل عن عامل آخر يتصل بتصاعد أسهم الرواية بوجه عام، نتيجة تقديمها بواسطة السينما والتلفزيون بما يؤكد جماهيريتها، وربما يؤكد أننا نعيش في زمن الرواية.

ويمكن أن أضيف إلى ذلك من الأسباب السياسية أو الاجتماعية ما يؤكد التوسع في حركة الإقبال على ترجمات الرواية العربية، خصوصا حين تكون هذه الترجمات بموضوعات تجذب انتباه القرّاء والمحلّلين السياسيين أو الاجتماعيين، مثل الموضوعات الخاصة بالحريم أو قمع المرأة أو التعصب الديني أو ما أشبه ذلك. لكن المؤكد أن تزايد عدد أقسام الأدب المقارن في الجامعات الأمريكية، جنبا إلى جنب تزايد أقسام الدراسات العربية أو دراسات الشرق الأوسط بوجه عام، وذلك في موازاة انتشار خطاب ما بعد الاستعمار وتزايد تأثيره في إبراز معاني التعددية الثقافية وأهميتها، ومن ثم تقليص هيمنة المركزية الأوربية، أقول من المؤكد أن ذلك كله أضاف من عوامل التنشيط إلى سوق الترجمة عن اللغة العربية ما هو سبب ازدهارها الحالي.

ولكن هذا الازدهار له جانبه السلبي إلى جانب جوانبه الإيجابية التي ينبغي الإضافة إليها. وأول مظاهر هذا الجانب السلبي أن حركة الترجمة الإنجليزية عن العربية إلى اليوم، مثل غيرها من حركات الترجمة إلى اللغات الأخرى، لا تزال عفوية، وغير مخططة، ولا تنال رعاية أو اهتمام المؤسسات الثقافية الضخمة أو القوية. ويترتب على ذلك أن أغلب هذه الترجمات تتم بجهود فردية، وبمبادرات ذاتية من هذا المترجم أو تلك المترجمة.

وقد حاولت الهيئة العامة للكتاب في مصر النهوض بمشروع للترجمة عن العربية إلى الإنجليزية، ولكن مستوى الترجمات، فضلا عن رداءة الطباعة والإخراج الفني، أساءت إلى الأعمال المترجمة أكثر مما قدمت إليها من نفع. وقد حاولت سلمى الخضراء الجيوسي تأسيس مشروع آخر، وأصدرت بالفعل عددا من الترجمات جيدة المستوى، لكن مشروعها سرعان ما توقف نتيجة افتقاد الدعم المالي.

وبقيت حركة الترجمة فردية، ذاتية، إلى أبعد الحدود، كما ظلت عشوائيتها هي الطابع المسيطر الذي يبرر مثلا الإسراف في ترجمة أعمال لا تستحق الترجمة، وعدم التوفر على استكمال ترجمة ما يستحق بالفعل وما يجب ترجمته. ولم ينج من هذه العشوائية في تقديري إلا نجيب محفوظ بعد حصوله على جائزة نوبل، فقد دفع ذلك الجامعة الأمريكية في القاهرة إلى شراء حق

ترجمة كل أعمال محفوظ إلى الإنجليزية واحتكارها، ومضت في ذلك، حتى أصبحت أهم أعمال نجيب محفوظ مترجمة إلى الإنجليزية، ابتداء من «الثلاثية» و«الحرافيش» و«أولاد حارتنا»، مرورا بـ «اللص والكلاب» و«السمان والخريف» و«الطريق» و «دنيا الله»، وليس انتهاء بـ «بداية ونهاية» و «زقاق المدق» و «اخناتون» و «ألف ليلة» ... إلخ.

وقد أدى ذلك إلى أن أصبح نجيب محفوظ أكبر كاتب عربي مترجم إلى الإنجليزية، بل الكاتب الذي دفعت مكانته الكثير من المترجمين إلى الإقبال على الأدب العربي.

والواقع أن هذه العشوائية قد دفعت بعض المترجمين الشبان أو الشابات إلى المجيء إلى العالم العربي، والاعتماد على صداقات كانت هي المدخل إلى اختيار هذا العمل أو ذاك للترجمة. وقد فوجئت في المكتبة بأعمال مترجمة لا قيمة لها، ولا مبرر لترجمتها سوى أن هذا الكاتب أو هذه الكاتبة أكرم المترجم أو المترجمة، ودفعه إلى ترجمة عمله. ولا يخلو هذا الجانب من أصدقاء الهوى، أو من الوساطات غير البريئة، خصوصا إذا كان المترجم لا يمتلك الخبرة الكافية أو المعرفة اللازمة بالأدب العربي، وعندئذ، يغدو فريسة سهلة لصداقات لا يهدف أصحابها أو صاحباتها إلا إلى رؤية أعمالهم أو أعمالهن مترجمة بلغة أجنبية، والتشدق بهذا الأمر كما لو كان فخرا كبيرا.

وواقع الأمر أن هذا النوع من الترجمة لا يجد من يُقبل عليه، ويظل توزيعه محدودا جدا إلى أبعد حد، وضرره أكثر من نفعه، لأنه لا يقدم صورة زائفة عن هذا الكاتب العربي أو الكاتبة العربية فحسب، وإنما يسيء إلى تمثيلات الأدب العربي نفسها.

والواقع أن أعمالا روائية عربية جيدة قد ظلمها هذا النوع من الترجمة، خصوصا بعد أن نهض بها مترجمون غير أكفاء. وليت الأصدقاء والصديقات من الكتّاب والكاتبات العرب يدركون أن الترجمة الرديئة أكثر ضررا من عدم الترجمة، وأنه من الأفضل للعمل الإبداعي أن ينتظر المترجم المتميز أو المترجمة القديرة للنهوض بعبء الترجمة التي تضيف إلى الأصل.

وأعترف أنني كنت أهمس لنفسي، وأنا أتصفح الترجمات غير المتميزة والمليئة بالأخطاء، بأن أصحابها يستحقون ذلك لأنهم تلهفوا على الترجمة، وقدموا موافقاتهم الرسمية، بل دفعوا من حسبوهم مترجمين إلى الترجمة. وكنت أكرر لنفسي: يستحقون ما جرى لهم نتيجة ظنهم السابق بأن كل من يتكلم الإنجليزية قادر على الترجمة، أو أن كل مبتدئ يمكن أن يكون ناقلا أمينا مبينا بلغته هو.

وأعتقد أن السخرية من الترجمات الرديئة لابد أن تقترن بالثناء على الترجمات الإنجليزية المتميزة، وفي المقدمة منها الترجمات التي نهض بها دينيس چونسون ديڤيز، ومنها ترجمته المتميزة رائعة الطيب صالح

«موسم الهجرة إلى الشمال» وترجمته لرواية صنع الله إبراهيم «تلك الرائحة». ومن ذلك الترجمة التي قامت بها هيلاري كيلباترك لرواية غسان كنفاني «رجال من الشمس»، وترجمة بيتر ثرو لرواية عبد الحكيم قاسم «المهدي»، وترجمة تريفور لي جاسيك Treveor le Gassick الذي ترجم «الصبار» رواية سحر خليفة، وكاثرين كوبهام التي ترجمت «بوصلة من أجل عباد الشمس» التي كتبتها ليانة بدر، وفاروق عبد الوهاب الذي ترجم رائعة جمال الغيطاني «الزيني بركات» وقدّم للترجمة إدوارد سعيد.

ولا أنسى ترجمة دينيس چونسون ديڤيز لقصص سلوى بكر، أو ترجمة مارلين بوث لمختارات من قصص الكاتبات المصريات، ناهيك عن ترجمات روجر آلان وعشرات غيرهم من المترجمين والمترجمات الأكفاء، وهم المترجمون والمترجمات الذين يفرح المرء بجهدهم الذي جعل الأدب العربي المعاصر (وبخاصة الرواية) بضاعة رائجة في سوق الترجمة. وليت الجامعة العربية، والمؤسسات الثقافية العربية، تحتفي بأمثال هؤلاء المترجمين والمترجمات وتتولى تكريمهم، ففي تكريمها لناقلي أدبنا إلى لغات العالم تكريما لأدبنا الذي يمضي في طريقه إلى العالمية الحقيقية.

مفارقات أغنى جامعة في العالم

لا جدال في أن جامعة هارڤارد أغنى جامعة في العالم من ناحية الأموال والودائع والسندات التي تمتلكها ومن ناحية المباني والمعامل والمنازل والمرافق التي هي بعض ممتلكاتها. وما أكثر ما يتكرر الحديث عن أن جامعة هارڤارد هي أغنى جامعة على الإطلاق على ألسنة أساتذتها الذين تلمح نبرة الفخر واضحة في حديثهم عن جامعتهم التي يتباهون بها. والغنى المادي علامة في هذا السياق على الغنى العلمي، وعلى كثرة المتاحف، بل كثرة المكتبات بكل أنواعها، وأذكر أنني ذهبت مع بعض زملائي إلى جامعة دارتموت في ولاية قريبة من ولاية فيرومونت. وكانت بعض مباني الجامعة التي نزورها متواضعة، فنظر إلينا زميلنا الأمريكي لافتا انتباهنا بصلف أبناء هارڤارد المعتاد: لا بأس لو احتملنا بعض الوقت، فنحن لسنا في هارڤارد على أي حال.

وعندما يحدثك العارفون بميزانية جامعة هارڤارد وتفاصيلها، تندهش لأن هذه الميزانية أكبر من ميزانية بعض الحكومات التي تدعي الغنى والثراء، وتتعالى على غيرها من الحكومات الفقيرة. وبالطبع، يزداد ثراء هارڤارد عاما بعد عام بسبب استثماراتها المالية العديدة

الموزعة على أماكن لا حصر لها في الكرة الأرضية. ومن المفارقات الطريفة أن جامعة هارڤارد رفضت في الستينيات والسبعينيات احتجاجات الطلاب على استثماراتها في جنوب إفريقيا، ورفضت سحب استثماراتها احتجاجا على السياسة العنصرية لحكومة جنوب إفريقيا في ذلك الوقت. وكان ذلك ضمن سياق، فرض فيه الطلاب الأمريكيون على جامعاتهم المختلفة سحب الاستثمارات المالية من جنوب إفريقيا، احتجاجا على سياسة التفرقة العنصرية.

ولم تأبه جامعة هارڤارد بهذه الاحتجاجات، وظلّت مبقية على استثماراتها في جنوب إفريقيا لما تحققه لها هذه الاستثمارات من عوائد مالية ضخمة إلى اليوم. ولكن الطريف أن جامعة هارڤارد التي ظلت محافظة على موقفها المحافظ، كسرت نزعتها التقليدية المألوفة، ودعت نِلْسن مانديلا إليها بعد سقوط حكومة بريتوريا العنصرية البيضاء. وكان نلسن مانديلا ثالث شخص تمنحه هارڤارد درجة الدكتوراة الفخرية (بعد چورج واشنطون، وتشرشل). وكان ذلك حدثا كبيرا جدا في ولايات إنجلترا الجديدة، وداخل أمريكا نفسها.

وعندما فعلت الجامعة ذلك لم تأبه أيضا باحتجاج المحتجين كما لم تأبه من قبل، حين كان الطلاب يطالبون بسحب أموال الاستثمار في جنوب إفريقيا. وقال البعض: إنها مفارقات هارڤارد، بينما قال البعض الآخر: إنه الحرص على المكسب، ورفض سحب

الاستثمارات في المرة الأولى كان بسبب العائد المالي الضخم، أما تكريم مانديلا في المرة الثانية فكان بسبب الحرص على استمرار هذا العائد المالي، فهذه هي النزعة البرجماتية الأمريكية التي اكتملت ملامحها الفلسفية في جامعة هارفارد نفسها.

وقد ظهرت مفارقات جامعة هارفارد في الشهرين الماضيين، وذلك من خلال الطريقة التي تعاملت بها الجامعة مع العمال العاملين فيها. والطريف أن الجامعة التي لا تتردد في دفع ما يقرب من مائة ألف دولار سنويا لنفقات تهذيب النجيل الأخضر في ساحاتها والاعتناء به تتردد عشرات المرات في رفع أجور هؤلاء العمال الفقراء. ورغم أن الحد الأدنى للأجور، أو الحد الأدنى المعقول، في الولايات المتحدة الأمريكية يقترب من عشرة دولارات في الساعة، فإن هؤلاء العمال يحصلون على ست دولارات في الساعة، الأمر الذي دفع إلى السخط، وكشف عن بقاء أنواع من الظلم، لا يليق لها أن تبقى في هذه الجامعة العريقة التي هي أول جامعات الولايات من حيث النشأة.

ويبدو أن الطلاب أدركوا معاناة هؤلاء العمال البؤساء، فقرروا التظاهر من أجلهم، وتضامنا معهم. وبالفعل تجمع عدد من الطلاب والطالبات وأعدوا الشعارات اللازمة وطبعوا المنشورات اللازمة التي قامت بتوزيعها، وتوجهوا إلى مقر رئيس الجامعة، وصادف أن الجامعة قد اختارت رئيسا لها في ذلك الوقت. ويبدو أن الأمر لا

يدخل في الصدفة، فالأدق أن أقول إن الطلبة استغلوا تعيين رئيس جديد للجامعة، وقرروا التظاهر، وممارسة الضغوط التي يعرفونها عليه لعله يستجيب لهم.

ويبدو أن رئيس الجامعة الجديد أدرك اللعبة فلم يستجب لمظاهرة الطلاب التي لم تلفت انتباه أحد. ولم يصب الإحباط الطلبة فتوجهوا إلى الساحة الخضراء الكبرى في هارڤارد، واسمها هارڤارد يارد، واستقروا هناك، ونصبوا مجموعة من الخيام للنوم بعد أن قرروا البقاء في حالة تظاهر مستمر إلى أن ترضخ الجامعة لمطالبهم. ومع مضي الأيام تزايد عدد الطالبات والطلاب الذين انضموا إلى الاحتجاج، ومن ثم ازداد عدد الخيام الموجودة في الركن الواسع الذي احتله الطلاب من هارڤارد يارد.

وكنت أمر كل يوم على هذا التجمع الظريف، وألمح الشعارات واللافتات التي علّقها الطلاب فوق الخيام، ووصلوها بالحبال بين الأشجار، وكان أول ما يلفت انتباهي لافتة كبيرة، أصبحت معتادا على مشاهدتها كل يوم، وأنا في طريقي للقاء تلامذتي وهي لافتة مكتوب عليها عبارة أجور المعيشة (Living Wages) التي أصبحت أتوقع رؤيتها كلما مررت بهارڤارد يارد. ولم يكتف الطلاب بذلك، وإنما تعدّوا ذلك إلى احتلال مكتب رئيس الجامعة الذي ترك لهم مكتبه مع بعض حجرات المكاتب الإدارية حوله. واستأجر الطلاب مجموعة من مكبّرات الصوت، وصنعوا مجموعة من الحوامل

الخشبية، علّقوا عليها إحصاءات بعدد العمال وجنسياتهم ونوعياتهم ومتوسطات أجورهم المتدنية وبعض القصص عن حياتهم المأساوية. ونشط طلاب الدراسة الاجتماعية بين المتظاهرين لتقديم دراسات اجتماعية جنبا إلى جنب طلاب الدراسات النفسية.

وتحوّلت التظاهرة إلى احتفالية كبيرة دائمة، يتبارى فيها الخطباء، ويقرأ فيها الطلاب ما تكتبه الصحف عنهم، وما انتهوا إليه من دراسات، ويتوقف العابرون إلى هارفارد يارد، يستمعون إلى ما يقال: أو يشاهدون ألوان الخيام التي كثر عددها وأصبحت محاطة باللافتات والشعارات. وتأخذ الحماسة بعض الطالبات فيقررن الانضمام إلى المتظاهرين، أو يقرر بعض الطلاب المشاهدين الانخراط في النشاط الطلابي. ولا يتردد بعض الأساتذة في إظهار تعاطفهم، خصوصا أن الامتحانات أصبحت على الأبواب، ويقبلوا تأجيل تقديم البحوث من الطلاب والطالبات المناضلات.

وكل ذلك والشرطة تقف لحراسة الطلاب وليس لعقابهم، وتتزايد أعدادها لحماية المنشآت وحماية حرية الطالبات والطلاب في التعبير عن رأيهم، فحق حرية التعبير دستوري، والقانون يسمح بالتظاهر، وليس هناك مشكلة عند أحد، بل يقبل رجال الشرطة دخول بعض المثقفين من خارج الجامعة لقراءة أشعار أو مقالات أو قصص أنا شخصيا، توقفت مدة حوالي ساعتين، أتابع شاعرا عجوزا من الدرجة الثالثة، يلقي قصائد حماسية

عن الحرية والعدل. ولم يكن وقوفي إعجابا بالشعر بل اندماجا في الموقف، واستمتاعا بمشاهدة ردود الأفعال المختلفة.

ونجح الطلبة هذه المرة في لفت الانتباه بعد أن صبروا وتزايد عددهم. وأخذت الجرائد الأمريكية تكتب عنهم. بدأت جرائد ولايات نيو إنجلند التي منها ولاية ماساشوستس التي تقع جامعة هارڤارد فيها. وانتقل الأمر إلى الجرائد الكبرى مثل النيويورك تايمز وغيرها. وأخذ الطلاب ينسخون هذه المقالات ويعلّقونها في كل مكان. ولم يمنعهم اقتراب الامتحانات من الاستمرار في التظاهر، إلى أن تحرّج الوضع، ونجح الضغط، واستجاب رئيس الجامعة، وتقرر تشكيل لجنة ثلاثية، تضم ممثلين عن الجامعة وممثلين عن الطلاب، وممثلين عن العمال الذي لم يشترك واحد منهم في هذه التظاهرة الطويلة.

وأوكلت الجامعة للجنة دراسة حالة أجور العاملين، وأبدت الاستعداد لرفعها، وأعلنت قبول توصياتها شريطة أن يفضّ الطلاب مظاهراتهم، وينصرفوا إلى امتحاناتهم. وكانت ليلة لم ينم فيها الطلاب والطالبات في هارڤارد يارد، رقصوا وغنّوا حتى الصباح محتفلين بنجاح عملهم من أجل تحقيق شيء من العمل الاجتماعي للعمال الفقراء الذين هم مهاجرون في الأغلب الأعم. وتذكرنا نحن العواجيز بأيام الستينيات، ومظاهرات الطلاب في فرنسا، والدور التحرّري الذي يقوم به الطلاب، والذي يبدو أنه لم ينته بعد.

ولم أر أحدا من العمال أو العاملات يحتفل، فقد ظلوا ينتظرون نتيجة تقرير اللجنة وتوصياتها، حالمين بأن يرتفع أجرهم من ستة دولارات في الساعة إلى عشرة دولارات وربع كما طالب الطلاب. أما السيدة التي تأتي إلى منزلي لمدة ساعتين من كل أسبوع، للتنظيف، وهي أمريكية عجوز من مدينة صغيرة قريبة من كمبردج، فلم تعجبها النتيجة. وقالت: وهل تكفي عشرة دولارات في الساعة.هذا ليس بعدل ونظرت إليها باسما، فاهما سر سخطها، فقد اشترطت علي، عندما طلبت منها المساعدة، أن يكون أجرها ثمانية عشر دولارا في الساعة لا تنقص. وقبلت ما طلبت نتيجة معرفتي بالارتفاع المتزايد في مستوى المعيشة، مبررا ذلك لنفسي بأنني لا أعيش في القاهرة، وأدفع في إيجار الشقة الصغيرة التي أسكنها، وهي ذات غرفة واحدة، حوالي ألفي دولار، تذهب إلى جامعة هارڤارد التي تملك المبنى الذي أسكن فيه، وتقوم بتأجيره تحقيقا لبعض أوجه الكسب المادي التي لا نهاية لها في السياق المليء بمفارقات أغنى جامعة في العالم.

المحافظ حامل؟!

عندما تقيم في ولاية أمريكية لفترة غير قصيرة، وتعمل بها، فمن الضروري أن تعرف اسم محافظ الولاية مهما كانت المدينة التي تسكنها، وتعرف أسماء بعض أعضاء الكونجرس، الذين يمثلون الولاية التي أنت فيها، وتعرف بالطبع الاتجاهات السياسية، خصوصا الصراع بين الجمهوريين والديمقراطيين. وكنت أعرف اسم محافظ ولاية ماساشوستس وأتابع أخباره، ضمن اهتمامي بأخبار الحياة الأمريكية من حولي. ولاحظت أن من المقربين للرئيس الأمريكي السابق بوش الابن، وكان ذلك هو سبب اختياره سفيرا للولايات المتحدة في كندا، وهو المنصب الذى توليه السياسة الأمريكية عناية خاصة.

وقد ترك المحافظ منصبه لمن كانت تنوب عنه، وهي سيدة شابة اسمها چين سويفت، لم تصل إلى الأربعين من عمرها بعد، فهي في السادسة والثلاثين على وجه التحديد. ولكنها تتميز بكفاءة لافتة، جعلت المحافظ السابق يؤثرها على غيرها. وأصبحت هذه الشابة التي لم تكمل الأربعين قائمة بعمل المحافظ في الولاية التي تعد المركز الثقافي الأول للولايات المتحدة، والتي تعد قلعة الواسب، وهم الفئة التي لها تميزها التقليدي الخاص في التاريخ الأمريكي.

ولكن السيدة چين سويفت كانت حاملا عندما تولت المنصب، وشيئا فشيئا بدأت مظاهر الحمل في الظهور الساطع، من خلال الأثواب الواسعة والبطن الكبيرة التي كانت تبدو وكأنها تحمل توأما. وكنت أعجب لهذه السيدة النشطة التي لم يؤثر فيها الحمل، والتي تنتقل من مكان إلى مكان، وتؤدي عملها الشاق بحماسة بالغة. وحماسة واضح منها حرصها على دخول معركة الانتخابات القادمة التي ستحين بعد انتهاء فترة ولاية المحافظ السابق التي تكملها. وقد أوضحت چين سويفت أنها ستدخل معركة انتخاب المحافظ الجديد واثقة من نفسها ومن عملها.

ويبدو أنها لكي تثبت ذلك كانت تتحرك بحيوية ونشاط وحماسة ظلت ظاهرة في كل النشرات الإخبارية للقنوات التلفزيونية العديدة لولاية ماساشوستس، أو مدينة بوسطن التي هي مركز الولاية. ولم يكفّ ممثلو الحزب المعارض عن الهجوم عليها بالطبع، وانتقدوا أنها تنتقل بواسطة طائرة هليكوبتر، وأنها تدرس في جامعة سفوك، وحاولوا تصويرها على أنها تستغل منصبها، ولكن المحافظة الشابة لم تأبه بذلك كله، وظلت تقوم بعملها، وتجذب إليها حماسة سكان الولاية، خصوصا النساء.

وسرعان ما كشف الأطباء عن أن المحافظة الشابة حامل في توأم، وأنها بصحة جيدة. وكان حقا منظرا بالغ الطرافة أن يشاهد المرء في البرامج الإخبارية

بالتلفزيون چين سويفت وهي تفتتح هذا الشيء أو ذاك، أو تحضر الاجتماعات وهي في ضخامة الحامل في توأم، وتحاول أن تظل متوثبة بالحيوية. ولكن الشهر الأخير من الحمل كان متعبا، وكان في تعبه فرصة للهجوم على المحافظة الشابة من أجنحة المعارضة، ومن المتطلعين إلى ترشيح أنفسهم لمنصب محافظ الولاية في انتخاباتها القادمة. وساعد المعارضة على المضي في هجومها المتزايد أن چين سويفت دخلت المستشفى لتبقى تحت رعاية الأطباء في مدينة بوسطن عاصمة المحافظة، ولكنها لم تشأ التخلّي عن مهامها، فطلبت تركيب جهاز يصلها بقاعات الاجتماعات في مجلس المحافظة، ورأست من فراشها في المستشفى مجموعة من الاجتماعات.

وزاد هياج المعارضة، وتزايد الهجوم على المحافظة الشابة، وطالبها المعارضون بالاستقالة من منصب المحافظ، وشككوا في قدرتها على قيادة المحافظة المهمة، مؤكّدين أن متاعب الحمل والولادة لا تتناسب ومنصب المحافظ المهم. وكانت حدّة المعارك الكلامية حول هذا الأمر جديدة تماما على الحياة السياسية الأمريكية، فقد كانت هذه المرة الأولى التي تحمل فيها امرأة تشغل منصب المحافظ، وتستعد لولادة توأم، وتقيم في مستشفى، وتمارس عملها من سرير المستشفى.

وردّت المحافظة الشابة على الذين يهاجمونها من سرير المستشفى، وأعلنت أنها تؤدي عملها بكفاءة، وأن إقامتها في المستشفى لا تؤثر بالسلب على العمل بأي حال من الأحوال. ولم يعجب هذا الدفاع المعارضين فشنّوا المزيد من الحملات، ولم يكن مقصدهم دفعها إلى الاستقالة فحسب، وإنما الحيلولة بينها وترشيح نفسها في الانتخابات القادمة، وذلك عن طريق تشويه سمعتها الإدارية. ولكن كل الهجوم لم يفلح في زعزعة المحافظة العنيدة عن موقفها، وتولّت هي الرد على الخصوم.

ونسي الخصوم في غمار ذلك أن هجومهم على چين سويفت جاوزها إلى الهجوم على المرأة بوجه عام، حتى لو كان ذلك بشكل مباشر، وأنهم أثاروا السؤال الحساس: هل يمنع الحمل والولادة المرأة من القيام بواجبها في المناصب القيادية؟ ومسّ السؤال والهجوم العصب العاري للمرأة الأمريكية، وتطوعت الكثيرات للدفاع عن المحافظة الحامل ضد هجوم الرجال الظالم. وبدا واضحا أنه لم توجد امرأة في تيار الهجوم على المحافظة.

وانقسم الرأي العام حولها إلى رأي أغلبية نسائية، تسندها أصوات رجال متعاطفة مع موقف المحافظة، ومع التأكيد على أن الحمل لا يمكن أن يمنع المرأة الحديثة من القيام بواجبها ما ظلّت بصحة جيدة، وأن الرجال الذين ينتمون إلى أفكار العصور القديمة عليهم

أن يخجلوا من عصبيتهم الذكورية، ويتركوا المحافظة الشابة تؤدي عملها، وتستعد للإنجاب في هدوء.

ومضت الأيام والنقاش مشتعل. وكان أطرف المواقف هو موقف عضو الكونجرس المعارض الذي كان أقسى المهاجمين للمحافظة چين سويفت. ولم يتوقف عن هجومه إلا عندما تولّت ابنته نفسها الرد عليه، معلنة أنها أم، وأن أمومتها لم تمنعها من ممارسة عملها بالكفاءة نفسها، وأن حمل المرأة وولادتها مسألة لا ينبغي إثارتها ما دامت المرأة قادرة على العمل. وأعترف أنني تعاطفت مع أفكار ابنة عضو الكونجرس المعارض، وتأثرت بنبرة الحماسة المخلصة في حجاجها، وتأثرت بعدم ترددها في الاختلاف مع والدها نفسه تأكيدا لحقها وحق النساء في العمل وممارسة العمل العام والمناصب القيادية في الوقت نفسه.

وكان طريفا الاستماع إلى صوت الابنة ونبراتها الواثقة ورؤية ملامحها التي تبين عن ثقة امرأة بعدالة قضيتها وسلامتها، كما كان طريفا الاستماع إلى تعليق والدها، عضو الكونجرس المعارض، وهو الرد الذي بدا مهزوزا، خصوصا بعد أن وضعت الابنة أباها في موقف صعب، واضطرته إلى السكوت!

وسرعان ما اكتشف المعارضون والخصوم أن هجومهم لم يؤد غرضه، وأن التعاطف مع المحافظة الشابة الراقدة على سرير المستشفى تزايد وتزايد، وأنها حصلت على شعبية هائلة لم تكن تتمتع بها قبل حملة

الرجال الطامعين في منصب المحافظ، وأصبحت المحافظة الشابة مادة للكثير من الأحاديث التي تدور على موائد الطعام وفي الحفلات، وبدا واضحا أن الرجال من أمثالي لا يستطيعون الحديث عن المحافظة الشابة إلا بالتقدير والإعجاب، وإلا انهال عليهم سخط النساء الحاضرات واللائي نظرن إلى الهجوم على المحافظة بوصفه هجوما عليهن.

وما زلت أذكر ملامح وجه أستاذ أمريكي زميل، جرؤ ونحن في حفل عشاء على إبداء رأيه الذي يرفض فيه أن تقوم امرأة حامل بعمل محافظ، فالمنصب خطير ويتطلب تفرغا كاملا وتركيزا مطلقا. ويا للهجوم الذي انهمر على الرجل المسكين الذي اتُّهم بالعداء للمرأة، واتهم بالرجعية والتخلف بعبارات غير مباشرة، وكانت ملامح هذا الزميل المسكين خير حافز على بقية الرجال بالصمت أمام منطق النساء، أو تبني موقف النساء وعدم الاعتراض عليه!

وفي أثناء ذلك كله حدثت الولادة. وظهرت جريدة «البوسطن جلوب» في صبيحة الأربعاء السادس عشر من مايو الماضي، وهي تحمل في صدارتها الأولى خبر ولادة المحافظة الشابة. وكان المانشيت الرئيسي يقول: «ابنتان توأم ومكان في التاريخ لسويفت». وتحت المانشيت في أقصى يسار الصفحة صورة باسمة للمحافظة في تألقها اللافت قبل الولادة، ووجهها مرفوع إلى السماء كأنه يتعالى على وجوه الخصوم!

وتقول تفاصيل الخبر إن چين سويف القائمة بعمل المحافظة وضعت فتاتين توأم بواسطة عملية قيصرية في مساء الأمس، وأن تلك هي المرة الأولى التي يلد فيها محافظ في تاريخ الأمة الأمريكية أثناء أداء الوظيفة. وذكرت الصحيفة اسم المولودة الأولى وهي لورين ألما هنت التي تزن ستة أرطال، وولدت في تمام الساعة التاسعة وإحدى عشرة دقيقة مساء، بينما ولدت بعدها بدقيقة واحدة أختها سارة چين هنت التي تزن خمسة أرطال وأربع أونصات، وأدخلوها العناية المركّزة بعد أن لاحظوا أنها لا تتنفس بسهولة مثل أختها. وصرّحت الطبيبة المولّدة ليلى شويلر أن صحة الأم ممتازة، وأنها ظلت تؤدي عملها إلى أن دخلت غرفة العمليات، وقالت إن الولادة كانت سهلة مع العملية، ولا شيء غير عادي فيها إلا حرس الأمن الخاص بالمحافظة، وعندما خرجت المحافظة من غرفة العمليات بعد الولادة أشارت لمساعديها الذين ينتسبون مثلها إلى الحزب الجمهوري بعلامة الإيجاب (ok). وقال المتحدث الصحفي للولاية: إن المحافظة چين وزوجها شوك هنت في غاية السعادة. وأعلنت المستشفى أن چين سويفت ستستريح لمدة خمسة أيام بالمستشفى وتخرج بعد ذلك.

وبالفعل، مضت الأيام الخمسة، وخرجت چين سويفت من المستشفى، وصدرت جرائد اليوم التالي

تتصدرها صورتها وهي تحمل الوليدتين التوأم، كل واحدة في يد، وبجوارها زوجها السعيد بها.

وأعلنت المحافظة أنها ستبدأ إجازة الوضع الخاصة بها في بلدتها «وليامز تاون» مع أهلها وأصدقائها، وستتفرغ تماما في هذه الإجازة للعناية بطفلتيها. وظلت صورة الأم والوليدتين التوأم تشغل الأخبار والجرائد إلى أن انشغل الرأي العام بشيء جديد، خصوصا وأن كل الجامعات الأمريكية ستقوم بحفلات تخرّجها ابتداء من الأيام الأخيرة لشهر مايو الذي اقترب من نهايته. وترك الجميع المحافِظة تهنأ بأمومتها، لكن إلى حين فما زال الخصوم الديمقراطيون في الانتظار!

تقدم الجامعات

كنت أتحاور مع زميلي الأمريكي حول شروط التقدم في الجامعات، وحول المعايير التي تجعلنا نقول إن هذه الجامعة متقدمة على غيرها، وذكر زميلي أهمية المكتبات والمعامل والمراكز البحثية والمتاحف. بينما قمت بالتركيز على حرية البحث العلمي وحرية التفكير الأكاديمي، وقلت لزميلي: بدون هذه الحرية لا يمكن أن توجد جامعة، ولا يمكن أن يتحقق تقدم أو تفوق، فالحرية هي الشرط الأول لوجود الجامعة، والشرط الأساسي لازدهار فكرها الخلاق وكشوفها العلمية الرائدة.

ووافقني زميلي الأمريكي على ما قلت، لكنه أضاف قائلا: إنك تركز على هذه الحرية لأنكم تعانون من غيابها في الجامعات العربية، كما يعاني غيركم في جامعات العالم الثالث، حيث التدخل السياسي والقمع الفكري والاضطهاد الاعتقادي أمور واردة وحيث لا اهتمام حقيقيا أو متأصلا بتوفير المناخ المناسب للبحث العلمي والفكري، ناهيك عن التقتير في الإنفاق على البحث العلمي.

ولكن هذه السلبيات غير موجودة في الجامعات الأوربية الكبرى والجامعات الأمريكية التي انتزعت حقها في حرية البحث والتفكير منذ أجيال وأجيال،

واستقرّ أمر هذه الحرية بوصفها إحدى المسلمات التي لا يمكن الجدال حولها أو النيل منها.

ولذلك، فإن تقدم الجامعات في العالم الغربي يقاس بمعايير مختلفة، أولها الإنتاج الفكري والعلمي لأساتذة الجامعة، سواء كان هذا الإنتاج يتمثل في كتب أو مقالات، أو يتمثل في مشروعات علمية متعددة. وثاني هذه المقاييس السمعة الدولية التي يصل إليها الأساتذة نتيجة أبحاثهم ودراساتهم بالطبع، ولعلك لاحظت أن الجامعات المحترمة تحرص على أن لا تزيد عدد ساعات تدريس الأستاذ على أربع ساعات، ومثلها ساعات لقاء الطلاب، وذلك حتى يتاح للأستاذ التفرغ للبحث العلمي، ودليل ذلك اهتمام الجامعات المتقدمة، مثل هارڤارد، بتشجيع أساتذتها على حضور المؤتمرات العلمية، أو منحهم سنة تفرغ للبحث، أو تغطية النفقات المالية لمشروعاتهم البحثية.

ولم يتوقف صديقي الأستاذ في جامعة هارڤارد عن الحديث، بل مضى قائلا: وبالطبع يا عزيزي لابد من إضافة الحصول على جوائز نوبل بوصفها مقياسا لتقدم الجامعة، خصوصا في مجالات البحث العلمي، فحصول الأستاذ على جائزة نوبل ليس شهادة له وحده، وإنما شهادة للجامعة التي وفّرت له إمكانات البحث العلمي، وتحملت نفقاته المالية الباهظة، وذلك على نحو أتاح للبحث كل أسباب التقدم والتفوق.

ولا أعرف لما تفتخر بعض جامعاتكم في مصر بحصول زويل على جائزة نوبل؟! هل لأنه تخرج من إحدى الجامعات المصرية؟ وهل لأنه حصل منها على درجاته العلمية الأولى؟! ولكن ماذا عن الجامعة التي حصل منها على درجة الدكتوراه، وعن الجامعة التي أتاحت له كل الإمكانات التي دفعته إلى التفوق والابتكار. لا تغضب مني. أنا شخصيا أتصور لو كان زويل في الجامعة التي بدأ منها في بلدكم ما كان قد وصل إلى ما وصل إليه من الحصول على جائزة نوبل!

ولم أرغب في مجادلة صديقي الأمريكي كثيرا، فأنا أعلم أنه ليس من الأمريكيين المتعصبين، فضلا عن أنه ليس أمريكي الأصل، وأنه هاجر من بلده ألمانيا ليعمل في هارفارد، ولكي يفيد من إمكاناتها اللامحدودة. ويبدو أنه انتهز فترة صمتي، واستغراقي في التفكير حول ما قال، ومضى يضيف ما يراه مؤكدا لما ذكره لي.

وقال: تأمل جامعة هارفارد على سبيل المثال، سوف تجد عددا كبيرا من أساتذتها قد حصلوا على جوائز نوبل في العلوم، وأن هذا الأمر ليس صدفة، ولم يقع على سبيل الاستثناء، وإنما يبدو كما لو كان قاعدة مطردة، وحدثا متكررا منذ مطلع القرن، وذلك إلى الدرجة التي تجعل حصول أساتذة هارفارد على جوائز نوبل مسألة عادية، وطبيعية، وجزءا لا يتجزأ من تقاليدها. ولقا كنت لا أعرف شيئا عن هذا الجانب من تاريخ جامعة هارفارد، فقد طلبت من صديقي أن

يحدثني عنه، وأن يخبرني بما لا أعرف حول هذا الموضوع الذي أثار فضولي.

وقال لي زميلي:هل تعرف أن أول أستاذ حصل على جائزة نوبل في العلوم هو البروفسور ثيودور ريتشاردز سنة 1915 الذي كان أول أمريكي يحصل على جائزة نوبل في الكيمياء؟! وقد كان ذلك نتيجة دمج علوم الفيزياء بغيرها من العلوم للمزيد من اكتشاف أسرار الذرة والإشعاع وجوهر المادة. وقد اكتشف إرنست روثرفورد في جامعة مانشستر كيفية استخدام قذائف الراديوم لتأسيس وجود الجزيء في الذرة، وأن اكتشافاته التي نشرها سنة 1911 قد دشنت عصر الذرة، وأن البروفيسور ريتشاردز في جامعة هارفارد بدأ من حيث انتهى سلفه، ومضى إلى الأمام مضيفا اكتشافات جديدة، جعلته أول أمريكي يحصل على جائزة نوبل في الكيمياء.

وقد تتابعت من بعده الأسماء، فكان أول من حصل على جائزة نوبل في الطب كل من الدكتور چورچ ر. مينوت ووليام ميرفي سنة 1934. وكان ذلك في سياق تشجيع العلماء على المجيء إلى هارفارد، وتوفير كل شيء لهم. هل تعرف أن ألبرت أينتشتين قد جاء إلى هارفارد سنة 1935 ومنحته هارفارد درجة الدكتوراه الفخرية؟ وهل تعرف أنه بعد حوالي عشر سنوات حصل الفيزيائي برسي بردجمان على جائزة نوبل سنة 1946 في فرع فيزياء الضغط العالي؟ وهل تعرف أن چون

كيندي أقام حفل عشاء لتكريم تسعة وأربعين عالما أمريكيا حصلوا على جوائز نوبل، والكثير منهم من جامعة هارفارد؟

ويمكن أن تضيف إلى أسماء هؤلاء اسم چيمس واطسون الذي كان ثامن أستاذ يحصل على جائزة نوبل في فترة ما بعد الحرب. وقد سبقه إلى ذلك كل من بيرسي بردجمان الذي حصل على نوبل سنة 1946 في الفيزياء، وإدوارد بارسيل الذي حصل عليها سنة 1952 في الفيزياء كذلك، وفرتيز ليبمان في الفسيولوجي سنة 1953، وچون إندرر سنة 1954، وچورچ بيكيسي سنة 1961. أما چيمس واطسون فقد حصل على نوبل سنة 1962 نتيجة بحوثه حول الدي. إن. إيه. وأنت تعرف خطورة اكتشافات الدي. إن. إيه؟

قلت لصديقي: عندي فكرة ما عن هذه الأهمية. لكن لا أريد أن نترك موضوع جوائز نوبل، فهل توقفت عند سنة 1962؟ نظر صديقي إلي بابتسامة لم تخل من معنى السخرية. قال: كلا، استمر الفوز في جوائز نوبل، وأذكر لك اسم كونراد بلوخ المتخصص في الكيمياء الحيوية الذي حصل على نوبل سنة 1964، وكذلك چورچ والد الذي حصل على نوبل سنة 1967. وحسبي أن أقول لك: إنه في الفترة من 1971 إلى سنة 1990 كان يحصل على جائزة نوبل في العلوم عضو من أعضاء التدريس في كل عام تقريبا، وأن عدد ثماني

عشرة جائزة يمكن تسجيلها في هذه الفترة إلى السجل القديم.

ولم يتوقف الأمر بعد ذلك، فهو لا يزال مستمرا إلى اليوم. وأظنك تعرف، بعد زيارتك لجامعة هارڤارد، أكثر من مرة، أن هذا الأمر مبعث فخر للجامعة، وأن هذا الحصول المتميز على الجوائز لا يمكن فصله عن توفير كل الإمكانات للباحثين، وأحسبك تذكر ما قلته لك من إن ميزانية البحث العلمي في جامعة هارڤارد قد تكون أعلى من ميزانية بعض الدول!

ولم أجد عندي ما يمكن أن أضيفه إلى ما قاله صديقي الأستاذ في جامعة هارڤارد، فقط تمنيت في أعماقي أن يأتي يوم ما تصل فيه جامعة عربية إلى هذا المستوى، وأن يأتي يوم ما ينفق فيه أثرياء العرب على البحث العلمي قدر ما يتبرع به أثرياء الأمريكان للبحوث العلمية في الجامعات الأمريكية وعلى رأسها جامعة هارڤارد.

ومن المؤكد أنني لن أرى ذلك في حياتي، فالشواهد القائمة لا تدل على ذلك، وتكاد تدل على تدهور عام في مستوى الجامعات العربية كلها. ولكن من يدري ماذا يمكن أن يحدث في المستقبل؟! عسى أن يكون حظ أولادنا أو حتى أحفادنا أفضل من حظنا، وتتاح لهم الإمكانات والمناخات التي تساعد على إيجاد جامعات متقدمة بكل معنى الكلمة، وليست جامعات هي مجرد مدارس للتلقين والحفظ وتكرار ما هو معروف من قبل!

نوادي القلوب الوحيدة

أول شيء أفعله عندما أصل إلى منزلي في مدينة كمبردج، وبعد أن أفتح الباب الرئيسي للبناية بالمفتاح الخاص بي، هو التوقف في المدخل أمام صندوق البريد الخاص بي، وأفتح الصندوق متلهفا على الخطابات الواردة من الأهل والأصدقاء في القاهرة وغيرها، وأحمل الخطابات بين يديّ فرحا، وأتطلع إلى ركن يشبه المصطبة، يضع عليه ساعي البريد الأظرف الكبيرة والطرود التي تحمل الكتب أو المجلات أو أشرطة الفيديو أو الدي في دي، وأحمل ما أجده لأصعد إلى شقتي في الدور الرابع متعجلا فتح الباب، والتخفف من المعطف وما أشبه، والجلوس إلى المنضدة الموجودة في أول الصالة، ومطالعة الخطابات والطرود.

وأبتدئ، طبعا، بخطابات الأهل والأحباب والأصدقاء، فإذا فرغت منها انتقلت إلى غيرها، وتصفحت ما يستحق القراءة، وما هو مرسل لي من بعض دور النشر، أو حتى من بعض أصدقائي في الولايات المتحدة، ومنهم الصديق فتحي أبو رفيعة الذي يعمل في الأمم المتحدة، ويقيم في نيويورك، والذي يواظب على إرسال بعض الكتب المتميزة التي يرى أنها تهمني. لكن ليس هذا ما يحمل البريد، فهناك عشرات من الخطابات التي تحمل مواد دعائية، ونشرات لا أول لها ولا آخر، بل إغراءات بتغيير الشركة التي تتبعها في المكالمات

الدولية بحوافز لا يمكن لأحد مقاومتها... إلخ. وهذا النوع من الخطابات أصبحت أعرفه من شكله الخارجي بحكم الخبرة، وأسرع بتنحيته، تمهيدا لإلقائه في سلة المهملات.

ولكن لفت نظري مظروف أبيض تكررت ملاحظتي له، وألقيته أكثر من مرة في سلة المهملات، ويبدو أنه جذب انتباهي هذه المرة لأنه كان على رأس خطابات النشرات، ولم أكن قد تلقيت خطابات من أحد في هذا اليوم. أمسكت بالمظروف الأبيض، فلاحظت في أعلاه من ناحية اليسار كلمة «توقعات عظيمة» (أو «آمال عظيمة») وبين كلمتي «توقعات» و «عظيمة» المطبوعة بالبنط الأسود العريض رسم باللون الأحمر لقلبين متداخلين بحالة حب. وأسفل هذين القلبين فتحة دائرية في المظروف، يبرز منها بلونه الأحمر قلب كبير يجذب العين. وإلى يسار دائرة هذا القلب ثلاثة أسطر فوق بعضها بالبنط العريض يقول: «أين تذهب لكي تقابل نوعية متميزة من الأفراد». والمقصود الأشخاص الذين لا رفيق لهم أو حبيب أو زوج من الرجال والنساء.

وفتحت المظروف، وإذا بورقة مطبوع على وجهها الأول خطاب بعنوان «عزيزي الوحيد: إن إيجاد الوقت لمقابلة أفراد وحيدين مثلك وتطوير علاقة مع هؤلاء الأفراد الجدد مسألة تغدو صعبة كل عام، وذلك لأننا لا نتعرض بالقدر الكافي إلى النوعية المتميزة من الأفراد

الوحيدين، فنحن منهمكون في عملنا، مستغرقون في الحدود الضيقة لدائرة أصدقائنا. وكلما أصبحنا أكثر انشغالا، أصبحنا لا نجد الوقت الكافي للبحث عن معارف جديدة، وتضيق دائرة اختياراتنا.

ولذلك فإننا نأمل في فرص نادرة، أو لقاءات غير مرتقبة، وذلك كله لا يكفي. وتوقعات عظيمة تعرض عليك طريقا أفضل. فقد خدمنا آلافا من الأفراد الوحيدين (العزاب) الذين قابلوا من أسعدوهم عن طريقنا. وفي الواقع، فإن نجاحنا سجّلته برامج تلفزيونية ناجحة مثل برنامج فيل دوناهو، أوبرا، سالي جيسي رافييل، وبرنامج 48 ساعة في السي ب إس، فضلا عن محرّرين في المجلات البارزة مثل النيوزويك وچرنال وول ستريت وجلامور ومس واينو ريبابليك... إلخ. ونحن نجعل مقابلة المتميزين والمتميزات سهلة. وأنت لن تضيع وقتك في مقابلة أناس لا تريدهم، ففي الڤيديو الشامل الذي نقدمه ما يتيح لك تحديد كل شيء بنفسك.

إن شرائط الڤيديو الخاصة بنا تجعلك ترى في وقت فراغك مكتبتنا الكاملة من الأفراد المختارين الذين يزيدون على مائة وثمانين ألف عضو على امتداد الولايات المتحدة، في أكبر مجموعة للاختيار. وفي خصوصية مريحة، سوف ترى وتسمع هؤلاء في محادثات مسترخية بواسطة الڤيديو. ويمكن لك بعد ذلك أن تختار من تريد أن تقابل. ونحن نقدم برنامجا

فعالا على نحو مدهش ومحترم لكي نساعدك على اختيار الأشخاص الذين تريد أن تدخل في علاقة معهم. ولذلك فلا تضيع وقتك الثمين على مواعيد عشوائية أو مع الخاسرين.

ولكي تعرف المزيد عن كيفية وصولك إلى علاقة إيجابية تفتقدها في حياتك، استكمل الاستبيان الموجود على ظهر الخطاب وأرسله إلينا، أو هاتف مركزنا المحلي القريب منك اليوم. والمعلومات مجانية. وما تكتبه سري. ولا إلزام لنا تجاهك. وربما كان الرفيق المناسب المحتمل الذي قد لا تقابله بالطرق العادية ينتظرك الآن على شرائط الفيديو التي سوف نمكّنك من رؤيتها بعد اتصالك واشتراكك في العضوية. وتحت الخطاب توقيع باسم امرأة هي مديرة مركز «التوقعات العظيمة». وإلى جانب التوقيع مساحة بيضاوية باللون الأحمر مطبوع عليها بالأسود «من فضلك أكمل الاستبيان السري وأرسله إلينا اليوم. استكشف اختياراتك، وستجد كم هو سهل أن تقابل أقرانا ناجحين ليس عندهم وقت مثلك للبحث الطويل عن الرفاق المناسبين».

وتحت ذلك تحذير يقول: «إذا كنت متزوجا أو داخلا في علاقة جادة، فاقبل اعتذارنا في الاتصال بك، وأعطِ هذا الخطاب لصديق وحيد أو صديقة وحيدة». وعلى أيسر الخطاب، وعلى امتداد الصفحة، مراكز «التوقعات العظيمة» وقد عددتُها فوجدتها ثمانية وأربعين مركزا

على امتداد الولايات المتحدة مع رقم التليفون الخاص بكل مركز.

وعندما قرأت ذلك كله، لم أقاوم الفضول في مطالعة الصفحة التي تحمل الاستبيان فوجدتها على شكل خطاب مرسل إلى المركز، ويعلوه إقرار بالموافقة على الاشتراك في العضوية وطلب التفاصيل، وتحت ذلك قسمان: قسم عن الشخص (الذكر أو الأنثى) الذي تبحث عنه من حيث العمر والتدخين ومكان الإقامة والتعليم والعمل والمظهر والديانة والوضع الأسري والاهتمامات الثقافية. وقسم عن الطالب نفسه: من حيث وضعه الاجتماعي، وتوقعاته، وهدفه الاجتماعي من العلاقة، ودرجات دخله (تحت خمسة عشر ألف دولار في العام، وهو الحد الأدنى، ثم درجات تزيد على دخل مائة ألف دولار في العام) ومعلومات أخرى لا تترك شيئا عن هذا الطالب.

وقد فهمت أن كل هذه المعلومات تدخل الكومبيوتر الرئيسي للمركز الذي يقوم -بواسطة الكومبيوتر- بتقديم الاختيارات التي تتناسب وكل شخص. وهكذا، تستطيع وأنت جالس في منزلك، أو حتى في مكتبك، أن تفتح جهاز التلفزيون الخاص بك، وتشاهد عشرات النساء، إذا كنت رجلا، أو عشرات الرجال إذا كنت امرأة، وذلك في عمليات تقديم تتيح لك اختيار من تشاء، ويساعدك المركز على إكمال عملية الاتصال.

الحق أن فضولي تزايد لمعرفة بقايا هذه العملية، ولكن ذلك يتطلب الاتصال بمقر المركز في مدينة بوسطن، وتحمل النفقات المطلوبة. وأهم من ذلك كله أنني شخص من الذين ينطبق عليهم التحذير، فأنا متزوج، ومستقيم، من المنزل إلى الجامعة ومن الجامعة إلى المنزل كما أقول لزوجتي، وجاوزت السن الذي يغري بالمغامرة، ولست على استعداد للدخول في هذا النوع من المغامرات. حسبي معرفة ما يدور حولي، وقد عرفت من أصدقائي الأمريكان أن مركز «التوقعات العظيمة» ليس الوحيد، ولاحظت أن الجرائد المحلية تخصص صفحة للتعارف، وهي صفحة أتسلى أحيانا بمطالعتها لأعرف الحالات والأعمار والوظائف.

وكان من السهل ملاحظة أن الشباب لا يُقبل على هذه النوادي، ولا على قراءة هذه الصفحات، فالشباب يملك الوقت، ويملك إمكانيات الاختيار الواسعة، أما متوسطو العمر من الرجال والنساء، وأما العواجيز من الرجال والنساء، فأمرهم مختلف، ولذلك فهم يُقبلون على مراكز من عينة «التوقعات العظيمة» علاجا للوحدة التي يعانون منها، خصوصا بعد زواج الأبناء، أو استقلالهم، أو بعد الانفصال الشائع بين الأزواج. وعندئذٍ، تبدو مراكز «التوقعات العظيمة» حلا للذين يعانون تعاسة الوحدة، ويمتلكون المال للإنفاق على نزواتهم التي يمكن أن تساعدهم عليها أندية القلوب الوحيدة!

ولم يفتني بعد البحث العابر أن أعضاء هذه النوادي لا يخبرون أحدا بهذه العضوية، ولا بما يدفعونه فيها، ولا حتى بما يحلمون بأن يحققه لهم هذا النادي أو ذاك المركز للقلوب الوحيدة. لكن الذي لا شك فيه أن اختيار عنوان رواية الكاتب الإنجليزي الشهير شارلز ديكنز عنوانا للنادي مسألة تكشف عن مستوى ثقافي بعينه، يمكن أن يتصف به القائمون أو القائمات على نوادي القلوب الوحيدة.

لغة الزهور

أحسبني مدينا لإقامتي في مدينة كمبردج الأمريكية باكتشاف جهلي الفظيع بلغة الزهور ولغة النباتات بوجه عام، هذا عدا أوجه أخرى كثيرة من الجهل اكتشفتها وأحاول معالجتها لعلي أجاوز جوانب جهلي. أما لغة الزهور فقد تصاعدت مشكلتها إلى جهاز الوعي في رأسي بعد انقضاء فصل الشتاء، وذوبان الجليد، ومن ثمّ مقدم الربيع بتفتح الزهور، واكتساء الأغصان بالأوراق الخضراء، وامتلاء الممرات والحدائق والشواطئ وباحات الجامعة وساحات المنازل بمختلف ألوان الزهور والنبات. ومن تمكّن الربيع، واكتمال الخضرة الربيعية، صِرتُ أستمتع فعلا بالمشي في شوارع كمبردج الهادئة، متمتعا بمشاهد الأشجار المختلفة الألوان والأشكال ومساحات الظل، ومشاهدة باحات البيوت وحدائقها التي يباري أصحابها في استنبات الزهور والنباتات المختلفة فيها.

ومن المناظر التي تعوّدت عليها مع أواخر شهر إبريل وبداية مايو أن تجد سكان هذه المنازل يضعون القفّازات في أيديهم، ويحفرون في الأرض لشتلات الزرع الجديد. وأمضي في تجوالي على شاطئ نهر شارلز الذي يفصل مدينة كمبردج عن مدينة بوسطن، ولا أملّ من السير لأميال، فتعدد ألوان النبات وأنواع الأزهار والأشجار يبهج العين والقلب، ويجعل السائر

يدخل في جنة بهيجة من الروائح والألوان والأشكال والأحجام!

وقررت مرة أن أختبر نفسي وأعرف أسماء الأشجار والنباتات التي تقابلني، فكانت النتيجة سقوطا مريعا في الامتحان، وجهلا فادحا لا يليق بسني. وقلت لنفسي : دعك من الأسماء الإفرنجية، وماذا عن الأسماء العربية التي تعرفها للزهور؟وهنا، وجدتني فصيحا أعرف الورد البلدي والنرجس والقرنفل والياسمين وزهر الليمون. وقلت لنفسي: ليس هذا فحسب، فهناك الليلك والأقحوان والنيلوفر، وأخذت أستعيد الأبيات التي لازلت أحفظها، واكتشفت أنني أحفظ أسماء الكثير من الأزهار التي يتحدث عنها الشعراء، ولكني لم أر هذه الأزهار، وحتى إذا كنت رأيتها فأنا لا أعرف كيف أطابق بين الاسم والزهرة المتعينة أو النبات المختلف. واكتشفت أنني لست وحدي في ذلك، وأننا كما نقول: كله عند العرب صابون، يمكن أن نقول كله عند العرب ورود وزهور، ولكن ماذا عن مئات بل آلاف الأسماء؟ لا شيء كله زهور وورود. وماذا عن الخبرة الحية بالطبيعة؟ لا شيء!

وبالطبع، كانت خيبتي كبيرة عندما سرت مع صديقي بيل جرانارا على شاطئ نهر شارلز، ثم عبرناه إلى الشاطئ الآخر، حيث مررنا بشارع جميل في طريقنا إلى حدائق «الكومون» الرائعة. وحلا لصديقي بيل جرانارا أن يختبر معلوماتي، وسألني عن هذه الأزهار

البديعة التي تتكاثف في مدخل هذا المنزل الذي مررنا به، فقلت: لا أعرف؟ فقال لي: هذه هي الفوسيثيا، ثم انتقل إلى غيرها المتكاثر أمام منزل آخر وسألني: وما هذه؟ فقلت لا أعرف، هذه هي الهياكنث، أما هذه فهي الهولي هوك، وانطلق بيل يعدّد لي الأسماء، ويذكر لي منها العشرات، ويطلب مني في كل مرة أن أكرّر وراءه اسم الزهرة أو اسم النبات أو اسم الشجرة، ومضينا على هذا الحال لأكثر من ساعة ونصف، دون أن ننتبه إلى أننا قد دخلنا إلى حدائق الكومون في بوسطن.

وظللنا على هذا الحال إلى أن شعرتُ بأنني لن أتذكر كل هذه الأسماء، فطلبت منه الاكتفاء بما ذكر، حتى أعطي لذاكرتي الفرصة للتذكر، وضحكت قائلا: لو تذكرت عشرة أسماء أو عشرين لكان في ذلك إنجازا بارزا أحققه للمرة الأولى. وتوقف بيل عن اختباري، كما توقف عن استعراض معلوماته وعن الأسماء التي يحفظها، والتي يبدو أنه لا نهاية لها.

وكنت أعزّي نفسي طوال الوقت بأن أتطلع إلى الزهور والنباتات الفاتنة، وأدعو ذاكرتي التي أنهكتُها عبر امتداد سنوات عمري بما لا أكفّ عن تحصيله أو التهامه من ألوان المعرفة، أقول دعوت ذاكرتي لأن تعينني وتتذكر كل هذه الأسماء، لا لأنها أسماء وإنما لأنها الوسيلة الممكنة لاستحضار البهجة الاستثنائية لهذه المشاهد التي أتمتع بها.

ومضينا في صمت بين الأشجار والزهور، ونحن لا نبتعد عن شاطئ بركة صناعية كبيرة، وتركت لتداعياتي العنان، مسترجعا كلمات الأغنية العربية الشهيرة التي تقول: «شوف الزهور واتعلّم، بين الحبايب تعرف تتكلم». وقلت لنفسي: إن معناها صحيح وعميق، فالكثير من أحاديث الربيع عن الطبيعة، والكثير من أحاديث الطبيعة يدور حول الزهور والنباتات، والمعرفة بالزهور والنباتات هي جانب من حياة كل أوربي وأمريكي، يبدأها منذ سنوات الطفولة، حيث يمضي مع أسرته أو مع أساتذته بين الحدائق أو الغابات، ويتعلم منذ البداية كيفية التمتع بمعرفة أسرار الطبيعة من حوله في كل أوجهها وتنوعاتها، ولذلك تظل علاقته بالطبيعة وثيقة طوال حياته، يعود إليها دائما ليجدّد نشاطه ويجدد معرفته بأسرارها وصفاتها وأسمائها طوال الوقت.

بعد ذلك بأسبوعين تقريبا دعاني الصديق عبد الحميد صبرة، وهو واحد من أعظم علماء العالم في مجال تاريخ العلوم، وهو أستاذ تاريخ العلوم في جامعة هارفارد التي يعمل بها من سنوات عديدة، أقول دعاني الصديق العزيز إلى منزله في بلدة لكسنجتون القريبة من كمبردج، وكان أول ما فعله أن دخل بي مباشرة إلى حديقة المنزل قبل دخول المنزل، ومضى يشرح لي زهور ونباتات وأشجار حديقته التي يشرف على رعايتها بنفسه، ويفخر بأنه استنبت هذا المكان، وأنه جلب هذه

الشجرة التي أصبحت ضخمة، والتي أصبحت تظللنا وقت الغداء.

وبالطبع، كانت خيبتي كبيرة، لأنني لم أتذكر أكثر الأسماء التي تعلّمتها من بيل جرانارا، وكانت أسماء عبد الحميد صبرة مختلفة. وظللت أستمع إلى شرح هذا العجوز الشاب الذي جاوز الخامسة والسبعين ويتمتع بحيوية شاب في الثلاثين بسبب حبه للطبيعة. ولم ينقذني منه سوى زوجته نانسي التي لا تزال محتفظة بنضارتها في شيخوختها، كأنها زهرة أخرى من أزهار حديقتهم، وعندما قلت لها ذلك، توهجت وجنتاها وأضاءت عينيها ابتسامة جميلة في لون أزهار الفوشيا. وقادتنا الزوجة إلى المنزل لنحتسي الشاي مع المفن الإنجليزي English Muffen الشهير، حسب تقاليد الواسب W.A.S.P من أبناء نيو إنجلند الأصلاء.

وبعد الشاي، خرجنا بالسيارة إلى مدينة صغيرة قريبة من لكسنجتون، حيث ذهبنا إلى الجسر الذي شهد أول معركة دارت بين الوطنيين الأمريكيين، والجيش البريطاني المحتل آنذاك، وكانت هذه المعركة بداية حرب الاستقلال الطويلة التي انتهت بدحر إنجلترا، وخروجها من أمريكا التي أصبحت دولة مستقلة، تمضي في طريقها الواعد صوب المستقبل. وتوقفنا عند اللافتات التي تشرح الأحداث التاريخية، ومضى صبرة يقرأ الأسطر بصوت درامي مرتفع، بينما انشغلت عيناي

بتأمل التماثيل التذكارية، واسترجاع بدايات الاستقلال الأمريكي في علاقته بالتاريخ الأمريكي عموما.

وكتمث السؤال عن الهنود الحمر، وعن ماذا فعل بهم المستوطنون الأمريكيون أولا، وجيش الاستقلال الأمريكي ثانيا. وقد عوضتني زوجة صبرة عن عدم السؤال، بأن قادتنا في جولة في السهول الخضراء الممتزجة بالغابات المحيطة بالمكان، ومضينا وراءها، أنا وصبرة وابنهما الصغير بيتر، ولكنها أخذت بيدي لأكون إلى جوارها، ومضت تقول لي كأنني ابنها بيتر في صغره، هذه الشجرة اسمها كذا،وعمرها أكثر من مائتي عام، وهذا التنوع في ألوان السهل الممتد بسبب تموج كثافة النباتات المتعددة الألوان، وهذا السهل يتميز بكثرة الزهور الفلانية،ومضت هي الأخرى في تعداد الأسماء، وذاكرتي الواهنة تحاول التسجيل، كأنها تتعلم للمرة الأولى مفردات لغة الزهور!

وأعترف أن هذه التجربة جعلتني أعيد النظر في علاقة أدبنا العربي بالطبيعة. هناك وصف للطبيعة بالطبع، ولكن ليس بنية الاستغراق أو الرغبة في الاستكشاف أو تأمل التفاصيل التي تصنع رحم الوجود أو أقداس المكان. ولم أعجب لأن محمد حسين هيكل دعا إلى أدب قومي، ودعا أدباء مصر إلى الاهتمام بنيلهم، وإلى تصوير الطبيعة حولهم، وكانت دعوته هذه علامة باكرة على نوع المعرفة التي ظلت كما هي، لم تتغير جذريا، أعني المعرفة بلغة الزهور.

شاي مفتخر

دعاني صديق أمريكي من أصل عراقي إلى العشاء. وبعد أن فرغنا من طعامنا، لم يطلب الصديق القهوة المعتادة في نهاية الطعام، وقال لي: من الأفضل أن ننطلق إلى مكان آخر لنحتسي الشاي، وأحسبك من أهل الشاي ومحبيه، مثل بقية أبناء العالم العربي. قلت لصديقي: لا بأس، ولكن أين نجد الشاي الذي تفكر فيه في كمبردج هذه؟ قال لي: اصبر، وسترى. وخرجنا من المطعم الصيني الذي تناولنا فيه العشاء. ولم نستقل السيارة، بل سرنا قليلا، وبدا الأمر كما لو كان صديقي يريد الترين قليلا لهضم طعام العشاء الخفيف على المعدة، ولا أحسبني في حاجة إلى الإشارة أن ذوي المعد المرهقة من أمثالنا يفضلون الأكل الصيني لسهولة هضمه وعدم إثارته أوجاع المعدة التقليدية.

ومضينا في طريقنا، وأنا أحسب أننا نتريض، ونستمتع بنسمات ما بعد الغروب التي تداعب الأوجه ببعض برودتها، كأنها تذكّرنا بالشتاء الذي رحل، وتعدنا للصيف الذي سرعان ما يقبل. وفجأة، توقف صديقي، وجذب يدي لندخل إلى محل لم أنتبه إليه من قبل، أثناء جولاتي على الأقدام في مدينة كمبردج التي تفتنني دائما بهدوئها وخضرتها، وقبل أن أدلف مع صديقي إلى المحل الجديد، طالعت بسرعة اللافتة الكبيرة المعلقة في المدخل، والتي تحمل اسم المحل،

فوجدتها تضم كلمة واحدة هي: «تي لوكس» التي تتكون من كلمتين موصولتين معا، الأولى معناها «شاي» والثانية معناها «مفتخر»!

ودخلنا إلى المحل الذي جذبني بغرابة الديكور الذي لم أعتده، وبما يشبه الأدراج التي تمتد من فوق الأرض بقليل إلى قرب السقف، وتحتل الجدار الذي يقع على يمين الداخل، وأمام هذه الأدراج شاب باسم الوجه، يرتدي زيًا خاصا، مكونا من بنطال وقميص من اللون الأزرق، وعلى صدره كتابة بيضاوية الشكل بالأحرف البيضاء التي تحمل اسم المحل «تي لوكس» أو «شاي مفتخر»، واختار لنا صديقي منضدة في أقصى زاوية داخلية لنرى، ونحن حولها، كل شيء في المحل. ومن المؤكد أنه تعمّد ذلك ليتيح لعينيّ إشباع فضولهما في النظر.

وبالفعل، أخذت أتطلع إلى من حولي، وكلي فضول من ترتيب المكان، ولم يفتني أن ألمح ساعة رملية زجاجية صغيرة في منتصف المنضدة الدائرية التي نجلس إليها، وأثار فضولي أنني وجدت مثلها على كل المناضد المتناثرة حولنا. ولم يكن على الجدران سوى بعض اللوحات لمزارع الشاي المختلفة وأوراقه المتنوعة.

وسرعان ما جاءت فتاة ضاحكة العينين. ووضعت ما يشبه الكراسة المستطيلة، وقالت لنا: خذوا وقتكم في اختيار ما تريدون. وقبل أن أتطلع إلى الكراسة، وأقلب

صفحاتها، ابتسم صديقي وهو يسألني عن رأيي في هذه المفاجأة، موضحا أن هذا المحل واحد من سلسلة كبيرة العدد من المحلات التي تحمل الاسم نفسه، وتنتشر في الكثير من مدن الولايات المتحدة، وأنها مخصصة للشاي وعشاقه فقط، وتقدم جميع أنواع الشاي التي يعرفها البشر، بل تقدم تركيبات ووصفات جديدة ابتدعها أصحاب فكرة سلاسل المحلات هذه. وأخذت أتطلع إلى الكراسة التي كتب عليها فيما يشبه الخط الأفقي في أسفل الغلاف: «الشاي للجميع». وفوق ذلك صورة فتاة جميلة ترتدي الزيّ الخاص بالمحل، وتحمل بين يديها بعض عبوات الشاي. وإلى اليسار من أعلى رأسها مربع مكتوب عليه: «ملعقة تي لوكس لمعايرة الشاي مجانا».

وبدأت أتصفح الكراسة، وسرعان ما قلت لصديقي ضاحكا: هذه كراسة تحتاج إلى مذاكرة ودراسة أولا، ففي صفحة الفهرس كانت العناوين التالية: «أنواع الشاي الكلاسيكي الأسود، أنواع الشاي الكلاسيكي الأخضر، أنواع الشاي الكلاسيكي الأوولنج، أنواع الشاي الأبيض وشاي البوشنج وشاي بيرو، وأنواع الشاي المعطرة، وأنواع الشاي شاي، وأنواع الشاي المنزوعة الكافيين، وأنواع الشاي الموسمية، وأنواع شاي الأعشاب المخلوطة، وأنواع الشاي الصحية، وأخيرا هدايا الشاي وأوصاف الشاي الاصطلاحية».

وقلت لصديقي وأنا لا أرفع عيني عن الكراسة المستطيلة: واغوثاه، كل هذه الأنواع من الشاي موجودة في العالم، وأنا لا أعرف منها سوى الشاي الأحمر الذي نشربه صباح مساء على امتداد الأمة العربية، وقد أسميناه كذلك تمييزا عن الشاي الأخضر الذي يفضله إخواننا في المغرب. ولم أسترسل في الكلام، فقد اندفعت عيني إلى الصفحات التالية، فوجدتُ معلومات تعليمية عن تاريخ الشاي، وعن الكيفية التي ينبغي أن نتبعها عند اختيار النوع الذي نريد، وكيف نشتري الشاي، وما أسعار أنواعه.

ولاحظت أنني لا يمكن أن أطالع صفحات الكراسة كما أريد، وجاءت الفتاة الظريفة، ضاحكة العينين لتسألنا عن ماذا نريد أن نختار، ونظر إلي صديقي باسما، منتظرا تعليقي أو اختياري، فقلت للفتاة: أولا، هل يمكن أن أحتفظ بنسخة هذه الكراسة الجميلة؟ فأجابت بالموافقة، مؤكدة أنهم يسعدهم ذلك، ويساعدهم انضمامي إلى جماعات محبي الشاي التي ترتبط بسلاسل هذه المحلات. ولم أسألها عن ضمير الجمع في الذين يسعدهم حصولي على الكراسة، وإنما شكرتها، وقلت لها: دعينا بعض الوقت لاختيار ما نريد.

وتركتني الفتاة باسمة، متشجعة بابتسامة صديقي المؤيدة لطلبي، وأخذتُ أقلّب صفحات الكراسة، وبدأت بما أعرفه من الأنواع التقليدية، فوجدت أنواع الشاي الأسود الذي نعرفه جميعا على صفحتين ونصف، وتبدأ

على النحو التالي: «الشاي الأسود هو أكثر أنواع الشاي (الأخضر والأوولنج مع الأسود) من حيث الإعداد أو التصنيع. وكل شاي مأخوذ من كاميليا السينينس، ولكن إعداده وتصنيعه مسألة مهمة تؤثر على مذاقه. وفيما يتصل بالشاي الأسود، فإن الأوراق تُذرّى أو لتبقى منها الأوراق المندّاه التي تغدو طريّة الملمس. وبعدها تُرضّ الأوراق يدويا أو بواسطة ماكينة دوّارة، وذلك لأكسدة الأوراق. وعملية الأكسدة هذه تغيّر من كيمياء الأوراق وتركيبها».

وبعد هذه المعلومات التي عرفتها للمرة الأولى تأتي أنواع الشاي حسب الأقطار التي تنتجه، فهناك أربعة عشر نوعا للشاي الهندي الأسود (شاي الإفطار الأيرلندي منزوع الكافيين، شاي الآسام الطبيعي، شاي الإفطار الأيرلندي العودي، شاي الدارجيلنج، الماكايباري، الچانجيانا، النيلجيري، الأوتو، التيمي... إلخ) وحوالي ستة أنواع للشاي الصيني، ونوعان لشاي نيبال، وخمسة لشاي سيريلانكا، وثلاثة لإفريقيا (التانزاني، والكيني، والذروة الذهبية وما أشبه).

وتأتي الأنواع بعد ذلك متتابعة وتحمل من الأسماء ما لا رأت عيناي ولا سمعت أذناي. ولم أستطع سوى القفز من نوع إلى نوع لأفهم هذا الاختيار الصعب الذي ينبغي أن أقوم به. قرأت بسرعة أنواع الشاي ذات النكهة، فوجدتها محصورة في الأسود والأخضر، وأن أنواعها تكتسب النكهة من تطعيمها بزيت معين وقطع من

الفواكه أو بتائل الزهور المجففة، ولذلك فهناك «شاي المانجو، وشاي السينشا (ما يشبه البرتقال) وشاي الشمام والشاي الأبيض، وشاي البندق الملكي، وشاي البرقوق، وشاي الماندرين، وشاي القرفة، والخوخ، والكمثرى، و الرمان ...».

ومضيت أقرأ، وكلما ازدادت القراءة ازداد شعوري بالحيرة، فقلت لنفسي: خذ شاي «الإيرل جراي» الأسود، وتخلص من ورطة الاختيار، فوددت أن هذا النوع الذي كنت أحسبه بسيطا يتكون من عشرة أنواع، منها (إيرل جراي اليشب، وإيرل جراي التوت، وإيرل جراي ميدان هارفارد، وإيرل جراي الزهرة الزرقاء، وإيرل جراي شارع شارلز، وياسمين جراي... إلخ).

ولم يفتني ملاحظة أن بعض هذه الأسماء تشير إلى فواكه وبعضها إلى أماكن. ولما كنا في مكان بالقرب من ميدان هارفارد (هارفارد سكوير) الشهير، فقد استقر رأيي على احتساء شاي ميدان هارفارد. وأغلقت الكراسة ووضعتها في حقيبتي حتى أكمل قراءتها في المنزل.

ولما رآني صديقي أتنفس الصعداء، ابتسم قائلا: إذن قررتَ أن تطلب النوع المحبب، فأشرت برأسي بعلامة الإيجاب، وسرعان ما جاءت الفتاة الظريفة ضاحكة العينين، وأخبرناها بما نريد، فذهبت إلى الفتى الواقف أمام الأدراج، ففتح أحدها، وقام ببقية خطوات عمله. وجاءت الفتاة حاملة بزادين من الماء الساخن، ومع كل

منهما فنجان فوقه مصفاة جميلة مغموسة في الماء، وكان علينا وضع كمية الشاي فوق المصفاة، وقلب الساعة الرملية الصغيرة، والانتظار إلى أن تتساقط ذراتها الرملية مؤذنة لنا بانقضاء الوقت الذي يحتاج إليه خليط الشاي لاكتمال نكهته. وبعد أن التزمنا بالوقت، ومددث يدي إلى فنجاني، وارتشفث عدة رشفات لأرى ما الفرق بينه وبين الشاي الذي أشربه مع الفطور، فلم أجد فارقا كبيرا. ولكن هذا الإحباط لم يمنعني من الثرثرة الطويلة مع صديقي عن السيد مخترع فكرة هذه المحلات مع زوجته التي تشاركه عشق الشاي. ولله في خلقه شؤون!

برانش الوداع

عندما فرغت من محاضراتي بجامعة هارڤارد، أصرّ طلاب الدراسات العليا الذين أدرّس لهم الرواية العربية المترجمة بالإنجليزية على دعوتي إلى حفل عشاء أقاموه لي في أحد المطاعم القريبة من الجامعة، تعبيرا عن شكرهم وسعادتهم بالعمل والبحث تحت إشرافي. وذهبت معهم بالفعل إلى مطعم هندي ظريف، برروا اختياره بقولهم إن محاضراتي جعلتهم على ألفة بالثقافة العربية، فلذلك قرروا العشاء على تقاليد ثقافة مغايرة، هي الثقافة الهندية، وبعد العشاء اصطحبوني إلى مقهى «ديدالوس» الذين اختاروه بوصفهم دارسي أدب مقارن، واسم «ديدالوس» هو اسم شخصية يونانية أسطورية، وفي الوقت نفسه بطل رواية جيمس جويس الشهيرة «يولسيس» الذي يدعى ستيڤن ديدالوس.

ويبدو أن طلابي الآخرين الذين أدرّس لهم المادة الثانية، وهي نصوص الأدب العربي، غاروا من زملائهم، وأصروا على دعوتي للعشاء، ولكنني اعتذرت لهم بأن الأيام القليلة الباقية لي في كمبردج مزدحمة بالمواعيد، ولكنهم أصروا، وإزاء إصراراهم اتفقت معهم على أن نلتقي في الصباح المتأخر من يوم الأحد الأخير من شهر مايو، ولم يقتنعوا إلا بعد أن جعلوني أقبل دعوتهم على البرانش (Brunch). والبرانش كلمة تمزج بين

كلمتي الإفطار (Breakfast والغداء (Lunch) وتجمع بينهما، خصوصا يوم الأحد الذي يستيقظ فيه الناس متأخرين، ولا يتناولون إفطارهم في موعده المعتاد، وقد يستغنون عن الغداء بالجمع بينه والإفطار في الساعة العاشرة صباحا. وهكذا، اتفقت معهم على أن نلتقي في برانش وداعي يظهرون فيه مشاعرهم الطيبة، وأقول لهم وداعا، ونتبادل مشاعر المحبة قبل رحيلي، لأن الكثير منهم ممن أنهى الدراسة سيبقى إلى الشهر القادم (يونيو) لحضور حفل التخرج والمشاركة فيه.

وجاء يوم الأحد. وخرجت من منزلي في العاشرة والنصف. وقررتُ المشي إلى مكان اللقاء والتمتع بالبرودة الخفيفة التي لا تزال في الجو. ولم أنس مظلتي، فالأمطار على أشدها في ذلك الوقت في منطقة نيو إنجلند. وكان من الطبيعي أن أخترق الجامعة لأختصر الطريق، وأمتع عيني بمشاهدة ساحة هارڤارد (هارڤارد يارد) بخضرتها البديعة وامتدادها الفسيح.

وبالفعل، دخلت من إحدى البوابات القديمة لجامعة هارڤارد، ودلفت إلى ساحة هارڤارد، حيث تقع مساكن الطلاب والطالبات على ضلعين من أضلاع مستطيلة، ففوجئت بعدد رهيب من السيارات أمام مساكن الطالبات التي تقع في البداية، وبعدها مساكن الطلاب، وأمام هذه المساكن وتلك صفٌ لا نهاية له من السيارات،

وحركة لا تنتهي وأثاث يخرج، وحقائب تظهر، وبنات يقبلن بعضهن باكيات وصيحات وداع.

وسألت أول من التقيت به، فاكتشفت أن اليوم هو يوم رحيل الطالبات والطلاب الذين لن يتخرجوا من المستجدين، وأبناء وبنات المراحل الجامعية الأولى، وأن هذه السيارات هي سيارات الطلاب والطالبات، أو سيارات أهلهم الذين جاءوا لاصطحابهم، أو سيارات الأصدقاء الذين جاءوا لحملهم.

وأثارني منظر السيارات، ومنظر الحقائب التي تدخل إلى السيارات، ومشاهد الوداع اللافتة، فرحة الآباء والأمهات الذين ينتظرون بناتهم أو أبناءهم ليفرغوا من مراجعة غرفهم، ومنظر قطع الأثاث التي يخرجها الطلاب والطالبات ليحملوها معهم في سياراتهم لأنها من ممتلكاتهم الخاصة، وكان كل شيء يؤذن بالرحيل، ويعلن لحظات الوداع الحاشدة، لحظات بدا لي فيها كل شيء على امتداد ساحة هارفارد يقول: الوداع، الوداع، وإلى لقاء مع بداية العام الدراسي الجديد.

وتذكرت رحيلي بعد أيام ثلاثة، وأنني لن أعود في العام الدراسي الجديد، فعندي ارتباطاتي في القاهرة وعملي الذي لا أستطيع أن أبتعد عنه أكثر من ذلك، ولكنني على الأقل دخلت في مشاعر التوديع، وتخيلت أن الأشجار التي تكاثفت خضرتها، والزهور التي لا حصر لتعدد ألوانها وأشكالها، والنباتات التي تملأ كل مكان، والعطر الذي يُخلفه المطر على الخضرة، وحركة رحيل

السيارات التي لا ينتهي صفها الطويل، كل ذلك بدا كما لو كان يقول لي: والوداع لك أيضا، يا من سترتحل بعد أيام!

وتركت نفسي لذكريات التلمذة في جامعة القاهرة التي تداعت على ذهني بسبب علاقة المشابهة، وتذكرت أننا كنا نلتقي في اليوم الأخير لنا في القاهرة، نحن القادمين من خارج القاهرة مع أبنائها وبناتها، ونقضي هذا اليوم في ربوع حديقة الحيوان، أو حديقة الأورمان، أو فيهما معا واحدة بعد أخرى. وما كان علينا سوى أن نعبر طريق الجامعة إلى حديقة الحيوان أو حديقة الأورمان، وكلتاهما تواجه جامعة القاهرة.

وأخذت صور هذه الذكريات تتداعى على ذهني، أصدقائي العراقيين والسوريين و الفلسطينيين والمغاربة والليبيين والتوانسة، الأصدقاء العرب الذين كانت تمتلئ بهم جامعة القاهرة، قبل أن توجد جامعات في أوطانهم، الأصدقاء الذين أصبحوا مثلنا وأصبحنا مثلهم، وتواعدنا قبل الرحيل على الإبقاء على علاقة المودة، وكررت الفتيات مثل الفتيان وعود عدم النسيان وأهمية الذكرى وضرورة التواصل، تماما كما يفعل هؤلاء الأولاد والبنات الذين أراهم أمامي الآن، وألمح أوجههم التي ذكّرتني بأوجهنا ونحن نودّع يومنا الأخير في القاهرة.

وهاأنذا، الآن، أكتشف أن الكثرة الكاثرة من تجمعاتنا لم تحافظ على وعودها، فالزمن الخؤون أنسانا الأحباب،

ومشاغل الأيام تساقطت على الذاكرة وقادتها إلى النسيان، وغابت الأوجه الحبيبة والابتسامات العذبة والأعين الضاحكة في الضباب الذي يسيطر على الذاكرة المرهقة بأعباء العمل والأسرة والمستقبل والمشكلات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، وأخيرا المشكلات الصحية التي انتهت بوفاة الكثيرين من هؤلاء الذين ودّعتهم وودّعوني منذ سنوات بعيدة، والموت الذي اختطف أكثر من زميلة عزيزة كان حضورها بيننا كطائر أخضر المنقار في تلك السنوات البعيدة التي ابتعثتها من الذاكرة مشاهد الوداع في ساحة هارفارد!

ولكن ما أبعد الفارق بين الأمس واليوم. كل طالب أو طالبة يصطحب معه جهاز الكومبيوتر الخاص به، والظاهر مع عناصر متاعه كالعلامة الدالة على عصره. والسيارات تتعدد أنواعها وألوانها. السيارات العادية التي يشترك فيها أكثر من فتى وفتاة، توفيرا للنفقات، خصوصا إذا كانوا من أبناء ولاية واحدة، خارج ولاية ماساشوستس، وتلك هي السيارات التي ستحمل الطالبات والطلاب الذين حصلوا على منح تسمح لهم بالدراسة في جامعة هارفارد مجانا.

وإلى جوار ذلك السيارات الفارهة، سيارات الأهالي الأثرياء الذين يدفعون كل عام دراسي حوالي أربعين ألف دولار نفقات تعليم أبنائهم وبناتهم في الجامعة التي يتباهون بها. وغير بعيد عن ذلك لمحت سيارات ليموزين، ضخمة، كل واحدة منها أشبه بعربة قطار،

وإلى جوارها سائقوها بأزيائهم المعروفة وتلك هي سيارات يستأجرها محب ثري لفتاته الطالبة، أو يستأجرها مجموعة من الطلاب والطالبات الأثرياء لتحملهم في يومهم الأخير إلى مكان قريب من الجامعة.

أما نحن فلم نكن نعرف الكومبيوتر، ولم نكن نعرف حتى أجهزة التصوير، فكنا نقضي ساعات وساعات في المكتبة، ننسخ بأيدينا الكتب التي نريد أن نحتفظ بها، والتي لا نستطيع شراءها. ولم نكن نعرف السيارات، فقد كان أغلب أساتذتنا، خصوصا الشباب منهم، لا يمتلكون سيارات، كانت السيارات للأساتذة كبار السن الذين استطاعوا على امتداد السنوات الطويلة تدبير أثمان سياراتهم.

ولا أذكر أن واحدا من زملائي أو زميلاتي كان يمتلك سيارة، ولا كان أحد معارفنا يمتلك سيارة في ذلك الزمان. كنا نخرج على أقدامنا من جامعة القاهرة إلى خضرة حديقة الحيوان أو الأورمان، ونقضي اليوم كله سعداء بتناول «سميط وبيض» نحصل عليه من الباعة الجائلين في الحديقة، أو نكتفي بسندوتش جبنة وفول. هؤلاء الطلاب والطالبات الذين أراهم لا يعرفون ذلك كله، تغير كل شيء وحملتنا أمواج الأعوام وألقت بنا في عوالم متباعدة!

وظللت سادرا في تداعياتي إلى أن وصلت إلى المطعم الذي ألتقي فيه مع طلابي وطالباتي. استقبلني

الطلاب بالتحية، أما الطالبات فقبلنني. وجلست محاطا بهم. وسألت نفسي. ترى هل يستطيع تلامذتي في جامعة القاهرة تدبير نفقات مثل هذا المطعم الفخم الذي اختاره طلابي وطالباتي لي؟ وهل يمكن للطالبات أن يسلكن مع أساتذتهن مسلكهن مع آبائهن، فالأساتذة آباء في آخر المطاف؟ وهل تفترش البسمة والضحكة أوجه طلابي وطالباتي في جامعة القاهرة أم تكسوها هموم الحياة المتعددة؟!

ولم أستطع أن أمضي في المقارنة، فقد جذبني الصخب الذي أصبحت محاطا به مع المحبة، واندمجت شيئا فشيئا مع طلابي في برانش الوداع. وقلت لنفسي: مؤكد أنني سأفتقد هؤلاء الطلاب والطالبات عندما أعود إلى جامعة القاهرة، تماما مثلما أفتقد، الآن، تلامذتي في الجامعة التي أنتسب إليها وأظل أحلم دائما بمستقبل أفضل لها، حتى وأنا بعيد بعيد عنها في المطعم الذي اختاره تلامذتي الأمريكان ملتقى لبرانش الوداع!

أثقال الكتب

عندما اقتربت إقامتي في الولايات المتحدة الأمريكية من نهايتها، كان أهم ما يشغل ذهني هو كيفية نقل الكتب الكثيرة التي اشتريتها طوال أشهر الإقامة. وكالعادة، فاجأني الحجم الضخم للكتب وأعدادها الرهيبة التي ظلت تتراكم، والتي ظلّت تتزايد كلما دخلت مكتبة من المكتبات. ولا أذكر أنني عرجت على إحدى المكتبات إلا وخرجت بكمية كبيرة من الكتب، أحملها فرحا، ولا أبالي بثقلها وأنا في طريقي للعودة إلى المنزل. وكان أصدقائي الأمريكان يستغربون مما أفعل، ويسألونني عن سبب هذا الجنون الذي أعانيه، وكنت أحدّثهم أولا عن عشقي الذي لم ينقطع للكتب، والذي يبدو أنه لم يتناقص مع سنوات العمر الممتدة، بل تزايد ربما نتيجة تزايد القدرة على الشراء.

وكنت أحدّث هؤلاء الأصدقاء الحميمين بالطبع عن فقر مكتباتنا العامة بالقياس إلى مكتباتهم، وأقول: إن مكتبات جامعة هارڤارد على سبيل المثال تضم أكثر من خمسة عشر مليون عنوانا، وإننا إذا أضفنا إليها مكتبات جامعة الإم. أي. تي. وجامعة ويلزلي وغيرها من المكتبات الموجودة في مدينة كمبردج الصغيرة وحدها، تضاعفت الملايين مرات ومرات، ووصل حجمها إلى ما يماثل حجم سكان مصر كثيفة السكان. وكنت أقول إن عدد السكان يتناسب تناسبا عكسيا في الأوطان العربية

مع أعداد الكتب، وأنه كلما ارتفع عدد السكان تقلص عدد الكتب، وكانت النسبة مخجلة إلى أبعد حد!

أما عن مكتبة جامعة القاهرة فربما كان لا بأس بها في الكتب القديمة، لكن مصادر المعرفة المعاصرة، وآفاق المعرفة المتجددة غير موجودة، ولذلك فلابد لكل أستاذ في جامعة مثل هذه الجامعة أن تكون له مكتبته المتخصصة، خصوصا إذا كان يشتغل في فروع معرفية متجددة، والنقد الأدبي الذي تخصصت فيه لا يرحم المشتغلين به، فكل يوم يخرج علينا بالجديد من الكتب والإصدارات، وتياراته المتغيرة متلاحقة في تسارع إيقاعها.

وكان بعض الأصدقاء لا يقتنع بذلك، ويقول: حتى لو كانت مكتبات جامعاتكم فقيرة، وكان شراء الكتب الجديدة ضرورة، فلماذا تثقل على نفسك، وتحمل معك مئات الكيلوات من الولايات المتحدة. يكفي أن تجلس إلى مكتبك في القاهرة، وتفتح جهاز الكومبيوتر الخاص بك على شركات بيع الكتب العالمية، من مثل شركة الأمازون، وتطلب منها كل ما تشاء من كتب، بل تسأل موقعها أو موقع غيرها عن كل ما تشاء من كتب، وتضغط على بعض الأزرار، بعد أن تدخل الأرقام السرية للماستر كارد الخاص بك أو الڤيزا كارد، وسوف تصلك الكتب التي تشتهيها إلى منزلك بواسطة البريد، أما أن تترك نفسك فريسة للجنون الخاص باقتناء الكتب الجديدة في المجالات المعرفية التي تحبها، وما أكثرها،

فإن هذا نوع من الجنون الذي لم يعد مقبولا في زمن الإنترنت، وتحوّل العالم إلى قرية كونية صغيرة. وأذكر أن واحدا من هؤلاء الأصدقاء جرؤ على أن يقول لي ضاحكا: أنت تذكّرني بمن يصر على الارتحال بالجمل عبر القارات.

وكنت أكظم غيظي من سخرية الأصدقاء، وأتجاهل هذه السخرية في الحالات التي لم أكن أفلح في الإقناع. وكنت أحدّثهم عن أن الدخول إلى دكاكين الكتب، وتصفّح الكتب نفسها ورقة ورقة بعد تأمل الفهرست، والتوقف عند صفحات بعينها، والتمهل في التصفح واختبار مادة الكتاب، ونسيان النفس والوقت أثناء هذه العملية، متعة غامرة لا يمكن أن يتيحها الإنترنت، وأن الكتاب يفقد حضوره الحي عندما يختفي من أمام العين، ويغيب عن لمسات الأصابع، بل عن مدى الإدراك الشمي للأنف، ويتحوّل إلى مجرد معلومة مختزلة أمام العين على شاشة جهاز بارد، تستدعي كل ما فيه بحركة أصابع على أزرار.

وكنت أحاول وصف فرحتي بلقاء الكتاب الجديد ولهفتي عليه لو جمع -إلى إثارة عنوانه- غواية موضوعات فصوله، وغواية المطالعة الخاطفة لفقرة في هذه الصفحة أو تلك، والمرء واقف بين صفوف الكتب، أو جالس على المقاعد الصغيرة المستديرة المتناثرة بين صفوف الكتب للذين أرهقهم الوقوف.

وكنت أصف لهم متعتي وأنا أحمل صفا من الكتب بين يديّ في مكتبات البيع الكبيرة، وأمضي فرحا بما أحمل إلى الركن المخصص للقهوة واحتساء المشروبات، وأجلس إلى قهوة ساخنة أرتشفها في أيام البرد، بينما أقلّب صفحات الكتب التي أحملها، وأنتقي منها في النهاية ما تعمقت أواصر الصداقة السريعة بيني وبينه.

ولكن ما أقل ما كنت أجد من يتعاطف معي في ذلك كله، ولا تزال ترن في أذني الجمل الساخرة التي تأتي على سبيل التعليق من بعض هؤلاء الذين أصابتهم دروشة التكنولوچيا الاتصالية والغرام بإمكانات الإنترنت. ولا أزال أذكر الوقت التي ظللت أفند فيه فكرة أن يعتمد المرء على مكتبة إلكترونية، وأن إنسان الزمن القادم لم يعد في حاجة إلى مكتبة خاصة تحتل حجرات من البيت، و أنه يستطيع أن يطلب من أي شركة نشر إلكترونية أن تعد له موقعا خاصا به، يضم كل الكتب التي يريدها، والتي لا يمكن أن يطالعها معه غيره. وكنت أحدّث دراويش الإنترنت، ولا أزال، عن فتنة الكتاب المطبوع، وأن هذه الفتنة ستظل قائمة، ولن تختفي، وأن حمل الكتاب الجديد في اليد يشبه لعشاق الكتب المهوَسين بها حمل وليد جديد!

ولذلك أصممت سمعي عن الاستجابة إلى الساخرين، ومضيت في عاداتي التي يصعب مفارقتها، وظللت أشتري الكتب، وأفرح بها، إلى أن ذهبت السكرة وجاءت الفكرة كما يقولون، وصار التفكير في وسيلة النقل

والشحن أمرا ضروريا. وبعد تفكير لم يطل، قلت لنفسي: اقسم الكتب إلى قسمين: قسم أرسله بواسطة البريد البحري وهو رخيص الثمن، واجعل هذا القسم هو القسم الأكبر، واحمل ما يصعب عليك أن تفارقه من الكتب القليلة معك في الطائرة. وجلست يوما كاملا أقوم بقسمة الكتب، مقررا منذ البداية أن لا أحمل معي في حقائبي إلا عددا معدودا من الكتب.

وكنت أحسب الأمر سهلا، ولكن سرعان ما اكتشفت صعوبته فما أكثر الكتب التي أريد حملها معي. وكانت النتيجة سبعة كراتين أرسلتها بالبريد البحري. وجاء يوم السفر وما أصعبه، وكان معي صديقي بيل جرانارا وأيمن السيد وسنان أنطوان، وظللنا ننقل الحقائب من الدور الرابع إلى الشارع، ومضينا منهكين إلى المطار وبحثنا عن حمال يقبل أن يساعدنا في حمل أثقال الكتب، وما أكثر ما سمعنا من شتائم الحمالين، إلى أن أفلحنا في إقناع اثنين منهم بأننا سنعطيهم أجرا استثنائيا تماما.

ووصلنا إلى مكان وزن الحقائب، وكانت موظفة شركة الطيران البريطانية إنجليزية باردة، ومع ذلك لم تتردد في إظهار دهشتها من كثرة عدد الحقائب،ورفضت أن تقبل أي حقيبة بعد أن حاولت حمل الحقيبة الأولى، وكانت لسوء الحظ أثقل الحقائب وزنا. واستعادت نبرة سكان المستعمرات القديمة، وقالت في نبرة لا رادّ لها: لن أقبل حقيبة تزن أكثر من

مائة رطل. وكان هذا يعني رفض الحقيبة الأولى. ولحسن الحظ، كانت الثانية مائة بالتمام والكمال، والثالثة والرابعة في الحدود نفسها، أما حقائب الملابس فكان امرها هيّنا. وبقيت الحقيبة التي جاوزت الوزن.

وحاولت الاستعانة بكل وسائل الإقناع، لكن بلا فائدة. وكان لابد من إخراج مجموعة من الكتب لإنقاص وزن الحقيبة. وقمت بذلك صاغرا، والعرق يتصبب على وجهي من الحرج والإرهاق معا، فقد كانت عشرات الأعين تنظر إلى ذلك المجنون الذي يحمل هذه الكتب في حقائبه، وكانت العيون من حولي كأنها تتهمني بأنني لا أعيش في مطلع القرن الواحد والعشرين.

وأخيرا جاء دور العقاب المالي بدفع ثمن الوزن الزائد، والحمد لله أنقذني الماستر كارد، لكني دفعت ما لم أدفعه من قبل في وزن زائد، وما لا أظن أنني سوف أدفعه بعد ذلك. ولم يعلّق صديقي جرانارا إلا بجملة واحدة بالإنجليزية ترجمتها: لابد أن ندفع لكي نتعلم.وسكت حتى لا يغضبني.

أما أنا فقد تنفست الصعداء، وودّعت الأصدقاء الذين كانت أعينهم تقول لي: ألم نقل لك؟! وتركت معهم بعض الكتب التي لم تتسع لها حقيبة اليد التي أحملها معي في الطائرة، والتي أصبحت ثقيلة لدرجة رهيبة. ومضيت إلى الطائرة، وجلست إلى مقعدي، والتقطت أنفاسي، ومسحت عرقي الغزير الذي تدافع من كل خلايا جسدي، وتنهدت مستريحا، وقلت لنفسي: الحمد

لله. ولم أشغل نفسي بمطار القاهرة، فالأمر فيه يسير، والأصدقاء والأهل ينتظرون، ولا يشغل أحد باله مجنون يحمل حقائب كتب، خصوصا أن الكثيرين يعرفونه مبتليا بحرفة الكتابة.

ولكنني لم أملك سوى استرجاع نظرات الأعين المودعة التي قالت دون كلام: ألم نقل لك؟! هل كان الأمر يستحق هذا العذاب والحرج؟! ألم يكن من الأفضل إرسال الكتب بالبريد، أو حتى الشحن التجاري؟! ولماذا لا تدخل القرن الحادي والعشرين أيها المنتسب إلى النصف الأول من القرن العشرين؟! ومتى تكف عن عنادك وتدخل دنيا الإنترنت وتطلب الكتب عن طريقه؟!

وشيئا فشيئا انداحت الأسئلة مع بداية الرحلة، والانتقال إلى العالم الخاص بالطائرة، وبداية فيلم مثير للانتباه. ولكن لهفتي على الكتب ظلت قائمة إلى أن وصلت إلى القاهرة، ورأيت الحقائب مصفوفة في حجرة مكتبي وفتحتها بعد أن أكملت واجب السلام والتحية، وأخذت أتأمل ألوانها وأنا أشعر بسعاد غامرة، نسيت معها كل شيء بما في ذلك الحرج والعرق كل ما تكلّفته من مال للوزن المفرد في الزيادة لأثقال الكتب!